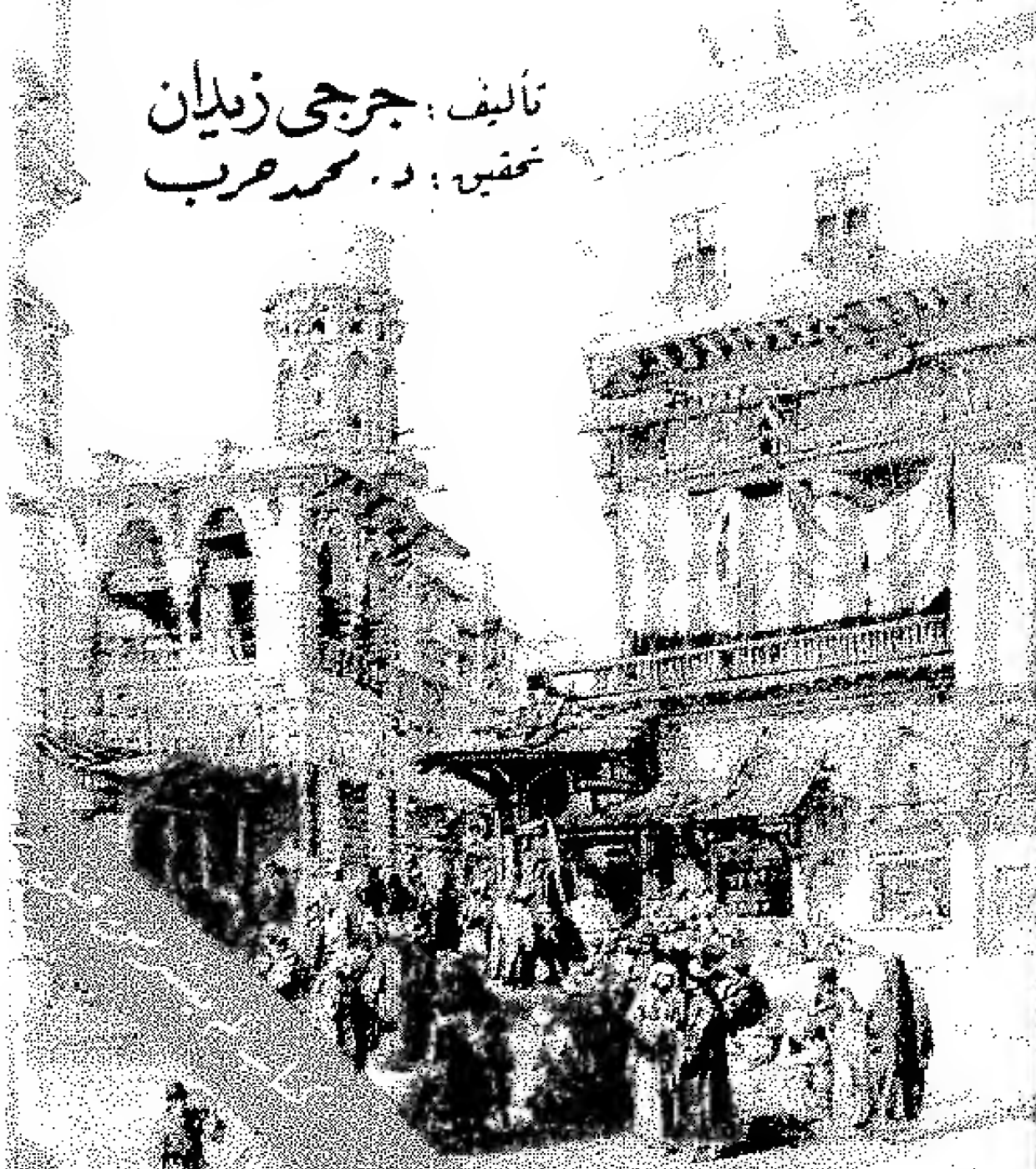


مصر العثمانية

تأليف: جرجي زيدان
تحقيق: د. محمد عرب

دار الفکر





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى تبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب - قلايون - ٢٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
KITAB AL-HILAL

No - 517 - JA - 1994

العدد ٥١٧ - رجب - يناير ١٩٩٤

فص : FAX 3625469

أسعار البيع العدد فئة ٣٠٠ قرش

سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٦٦٠٠ ليرة - الأردن ٢٤٠٠ فلما - الكويت ١٢٥٠ فلما -
السعودية ١٢ ريال - تونس ٢ دينار - المغرب ٢٥ درهم - البحرين ١,٢٠٠ دينار
- الدوحة ١٢ فلما - قطر / أبو ظبي ١٢ درهم - مسقط ١,٢٠٠ ريال - غزة والضفة

أهداءات ٢٠٠٣

اسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البصوي

الإسماعيلية

٨٢
٩٦٢,٥٣
زید

مصر العثمانية

تأليف

جرجي زيدان

تحقيق

دار الهلال
مكتبة دار الهلال
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
د. محمد حسن

دار الهلال
١٨٨١٠٤

الفـلـا فـلـلـفـنـان

محمـد أبـو طـالـب

هذا الكتاب

أحد كتب التنوير الهامة ، الذي لم ير النور منذ عام ١٩١١ ،
ويوم كتابته أثار أزمة حادة ، ولكنها لم تكن في شدة كتاب «الشعر
الجاهلي للدكتور طه حسين ، أو «الإسلام وأصول الحكم» لعلي
عبد الرازق .

وقصة الكتاب ، انه بعد إنشاء الجامعة التي نادت الهلال
بقيامها في عدد فبراير ١٨٩٩ ، عرض على جرجي زيدان تدريس
مادة التاريخ الاسلامي تقديراً لجهوده في نقل الثقافة العالمية
إلى اللغة العربية ، وتم الاتفاق على أن يكون موضوعه
«مصر العثمانية» ، وقدم إلى الجامعة هذا الكتاب ، وتقاضى
مكافأة عنه .

وقبل بدء السنة الدراسية تم الاستغناء عن جرجي زيدان
كمحاضر في الجامعة «فليس مقبولاً لشاعر السواد الأعظم أن
يدرس غير المسلم التاريخ الإسلامي»^١
وعلق جرجي زيدان على هذا الموقف في الهلال مجلد ١٩ ص

١٧٧ وذكر .. « أنه قبل - التدريس - حيا في خدمة أبناء العربية، بعد أن وقف حياته لهذا الغرض » ، وهو يرى بحق أن التاريخ العربي يجب أن يكون من المكونات الفكرية للمسلمين والمسيحيين العرب جميعاً ..

وتصدى الكاتب مصطفى لطفى المنفلوطى لهذه الحملة وقال ..
« قالوا إنه شوه التاريخ الإسلامى ، وعيث بحقائقه ، ولم يسألوا من أين نقل ولا كيف استن ، بل سألوه لِمَ لم يكتب كما كتبوا ، ولمَ لم يستنتج مثلاً استنتجوا ، كأنما لم يكفهم أن يروه بينهم مسيحياً متسامحاً حتى أراءوا منه أن يكون مسلماً متعصباً » .



مكتبة العثمانية

أو

تاريخ مصر في عهد الدولة العثمانية
من القطع المطبوعة سنة ١٢٥٥ هـ و ١٢٦٧ م
في عهد الخديوي إسماعيل ١٢٦٤ هـ و ١٢٩١ م

مخطوطات
في يد الخديوي



الكتاب
عربي زبدان
مكتبة الخديوي

للدروس المتتابعة في

تاريخ مصر الحديثة

سنة ١٩١١

مسودة الصفحة الأولى من المخطوط . بخط جرجي زيدان .

التعريف بجرجى زيدان

جرجى زيدان ، لبنانى أسرته من قرية عين عنوب ، ولد فى بيروت فى ١٤ / ١٢ / ١٨٦١ م حيث كان والده قد افتتح مطعماً فيها . تعلم وهو فى الخامسة من عمره فى مدرسة يديرها القسيس إلياس شفيق ، وفى الثانية عشرة من عمره تعلم صناعة الأحذية فمارسها عامين ثم عمل بعدها فى مطعم أبيه . وكان له معارف وصداقات مع خريجى الكلية الأمريكية فى بيروت ، فسهل له هذا الانضمام لجمعية شمس البر البيروتية وكانت فرعاً لجمعية الشبان المسيحيين الإنجليزية ومقرها إنجلترا . وزامله فى هذه الجمعية بعض أعلام عصره مثل يعقوب حروف ووطرس البستاني .

وفى عام ١٨٨١ م دخل مدرسة الطب ولم يتمكن من الدراسة فيها إلا عاماً واحداً فقط . ثم هاجر إلى مصر عام ١٨٨٣ ، وفيها عمل فى صحيفة الزمان اليومية التى كان يمتلكها

وبديرها الكسان صرافيان الأرمني وكانت الجريدة اليومية الوحيدة
فى القاهرة بعد أن عطل الاحتلال الإنجليزى صحافة مصر بعد
الثورة العربية .

فى هذه الفترة انتظم جرجى زيدان فى سلك المخابرات
البريطانية ، وفى عام ١٨٨٤ م رافق الحملة الإنكليزية إلى السودان
مترجماً فى قلم الاستخبارات البريطانية . وعمل فى
جريدة المقتطف ثم استقال منها عام ١٨٨٩ م ليشغل بالكتابة
والتأليف والتدريس فى المدارس معلماً للغة العربية فى المدرسة
العبيدية .

وفى عام ١٨٩١ أنشأ مطبعة التأليف بالاشتراك مع نجيب
مترى مؤسس دار المعارف فى مصر ثم انفضت الشراكة بينهما
بعد عام واحد فقط على الإنشاء فاحتفظ جرجى زيدان بالمطبعة
لنفسه واسماها مطبعة الهلال ، على حين قام نجيب مترى بإنشاء
مطبعة مستقلة اسماها مطبعة المعارف .

وفى عام ١٨٩٢ م أصدر جرجى زيدان مجلة الهلال وقام
بتحريرها بنفسه إلى أن كبر ولده إميل فساعدده فى تحريرها .
وتوفى جرجى زيدان فى يوليو عام ١٩١٤ م . (١)

(١) شوقى أبو خليل ، جرجى زيدان فى الميزان ، دمشق ١٩٨٠ م ، ص ١٥ وما

بعدها .

مؤلفاته

أولاً : كتب التراجم والمسير :

١ - تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر
١٩٠٢ م .

٢ - بناء النهضة العربية ، كتاب الهلال رقم ٧٢ .

٣ - رحلة جرجى زيدان إلى أوروبا عام ١٩١٢ م ، ١٩٢٣ م .

ثانياً : كتب الجغرافيا :

١ - عجائب الخلق ، ١٩١٢ م .

٢ - مختصر جغرافية مصر ، ١٨٩١ م .

ثالثاً : كتب اللغة العربية وتاريخ أديبها :

١ - الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ، ١٨٨١ م .

٢ - تاريخ اللغة العربية باعتبارها كائناً حياً نامياً

خاضعاً لناموس الارتقاء ١٩٠٤ م .

٣ - تاريخ أديب اللغة العربية ، ١٩١١ م .

٤ - الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية .

٥ - البلغة في أصول اللغة . (غير موجود)

رابعاً : كتب في الاجتماع :

١ - علم الفراسة الحديث . (غير موجود)

٢ - مختارات جرجى في فلسفة الاجتماع والعمران ١٩٢٠ م .

خامساً : روايات تاريخ الإسلام :

واعتمد تقسيم أزمنة هذه الروايات حسب العصور :

العصر الجاهلي ، العصر الراشد ، الأموي ، العباسي ،
المغولي ، العثماني ، الحديث .

وعدها ٢٢ رواية بدأها برواية فتاة غسان واختتمها بجهاد
المحبين . وعناوينها كالآتي :

فتاة غسان - أرماتوسسة المصرية - عذراء قريش -
١٧ رمضان - غادة كربلاء - الحجاج بن يوسف - فتح الأندلس -
شارل وعبد الرحمن - أبو مسلم الخراساني - العباسة أخت
الرشيد - الأمين والمأمون - عروس فرغانة - أحمد بن طوائف -
عبد الرحمن الناصر - فتاة القيروان - صلاح الدين الأيوبي -
شجرة الدر - الانقلاب العثماني - أسير المتمهدين - المملوك
الشارد - استبعاد المماليك - جهاد المحبين .

سادساً : كتب التاريخ :

- ١ - تاريخ التمدن الإسلامى ، ١٩٠٢ م .
 - ٢ - تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامى إلى الآن ، مع لذلك
فى تاريخ مصر القديم ، ١٨٨٩ م .
 - ٣ - العرب قبل الإسلام - ١٩٠٨ م ، لم يكمل .
 - ٤ - التاريخ العام منذ الخليقة إلى الآن ، ١٩٠٨ م ، لم يكمل .
 - ٥ - تاريخ إنجلترا منذ نشأتها إلى هذه الأيام ، ١٨٨٩ م .
 - ٦ - تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى هذه الأيام ، ١٨٨٩ م .
 - ٧ - تاريخ اليونان والرومان ١٨٩٧ .
 - ٨ - طبقات الأمم أو السلائل البشرية ، ١٩١٢ م .
 - ٩ - أنساب العرب القدماء ، ١٩٠٦ م .
- وأجرى زيدان مقالة كبيرة بعنوان « تاريخ الجند العثمانى منذ
نشوء الدولة العثمانية إلى اليوم » (١) .
والكتاب المخطوط الوحيد لأجرى زيدان الذى لم ينشر حتى
الآن ، هو الذى بين أيديكم الآن وهو « تاريخ مصر العثمانية » .
والذى قمنا بنشره وتحقيقه وتقديمه للقراء .

(١) أجرى زيدان ، تاريخ الجند العثمانى منذ نشوء الدولة العثمانية إلى اليوم ،

مجلة الهلال ، السنة ١٧ جزء ٨ ، أول مايو ١٩٠٩ م .

وهو يشمل تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى الحملة الفرنسية ، أعدّه جرجى زيدان ليكون محاضرات تلقى في الجامعة المصرية .

ولا يوجد من هذا المخطوط إلا النسخة الوحيدة بخط جرجى زيدان نفسه وصورتها الفوتوغرافية مودعة في مكتبة جامعة القاهرة .^(٤)

كتاب تاريخ مصر العثمانية

وقد ألفه جرجى زيدان عام ١٩١١م « لدروس التاريخ الإسلامى فى الجامعة المصرية » بتعبيره هو فى صفحة غلاف المخطوط ، وهذا هو هدفه المعلن ، لتأليفه هذا الكتاب وقد قسمه كالآتى :

مقدمات تمهيدية ، كتبها على فصول ذكر منها مكانة التاريخ الإسلامى بالنظر إلى سائر التواريخ وحلل فيها معنى لفظ تاريخ ثم أقسام التاريخ العام فأقسام التاريخ الإسلامى ومزايا هذا التاريخ ، وكما دلت من الاهتمام بالجانب الحضارى تحدث عن تحضر الأتراك فالغول فالبربر فالزنوج ، فتاريخ مصر بالنظر إلى سواء وأقسامه .

(٤) جرجى زيدان ، مصر العثمانية أو تاريخ مصر فى عهد الدولة العثمانية ، مخطوط بخط المؤلف ، صورة فوتوغرافية ، مكتبة جامعة القاهرة ، مخطوط رقم ٧٥ ، ص ٢٠٠٢ .

موضوع هذا الكتاب ، وما كانت عليه مصر عند الفتح
العثماني ، وبالتالي كان لا بد أن يذكر أصل السلاطين المماليك
ودولة المماليك الأولى أو الاتراك البحرية ، واختص الملك الظاهر
بيبرس بدراسة ثم دولة المماليك الثانية (الجراكسة) .

وذكر العلاقات العثمانية المصرية أو بمعنى أصح العثمانية
الملوكية . وأفسح مجالاً في هذه المقدمات التمهيدية لأصل ونشأة
الدولة العثمانية باعتبار أن موضوع الكتاب تاريخ مصر في
ارتباطها بهذه الدولة ثم ذكر الإنكشارية أصلاً وتاريخاً لارتباط
وضع تاريخ مصر العثمانية في بعض جوانبه بهم ، ثم درس سليم
الأول باعتباره السلطان العثماني الذي فتح مصر وفي أثناء
دراسته لهذا كان لا بد أن يقوم أيضاً بدراسة عن سلطنة الأشرف
طومان باي آخر السلاطين المماليك .

بعد ذلك تنبه جرجي زيدان إلى تاريخ مصر العثمانية
فقسّمه تقسيماً خاصاً ، وكان على أدوار أربعسة وكل نور له
جانبان السياسي والحضاري .

يمتاز جرجي زيدان في تقسيمه لتاريخ مصر العثمانية ،
أيضاً في ربطه بين استانبول والقاهرة يعنى العهد العثماني العام
حسب سلاطينه ثم العهد العثماني في مصر ، وهو خاص ، حسب
ولاة .

وتطرق جرجى زيدان إلى أمور رأها ضرورة ورأيهاها
استطراداً مثل حديثه عن نظام الخلافة والسلطنة في الإسلام وقتل
الإخوة في الدولة العثمانية ، مما يسر له التعبير عن كثير من
أفكاره في تاريخ مصر .

على كل حال قسّم جرجى زيدان أبنوار تاريخ مصر
العثمانية كالآتي :

الدور الأول من سلطنة السلطان سليم الأول وإنهاء بحكم
السلطان مصطفى بن محمد . وبالتالي أحوال مصر في هذا العهد
من خلال الولاة العثمانيين فيها . واهتم في ذلك بدراسة
المسكوكات والأوضاع الاجتماعية والصحية والاقتصادية وبعد
حديثه عن التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي عرج إلى
العلم والأدب في عصر الدور الأول من الحكم العثماني في مصر
ذاكراً المؤرخين والشعراء والأدباء والمحدثين والفقهاء وعلماء
المذاهب الأربعة والمتصوفة وسائر العلماء بمؤلفاتهم .

والدور الثاني من العصر العثماني وهو « انتقال النفوذ في
مصر إلى المماليك » بدأه بسلطنة السلطان العثماني أحمد بن
محمد ومنتهاً بسلطنة السلطان مصطفى بن محمد ، ذاكراً في
هذا العلاقة بين قاسم بك و ذو الفقار بك في مصر ثم مشيخة
إسماعيل بك و ذو الفقار بك وعثمان بك وإبراهيم الكخيا ورضوان
وعلى بك الكبير .

والدور الثالث من العصر العثماني في مصر ، ركز جرجى زيدان الحديث فيه على علي بك الكبير وتطور تاريخه في مصر وعلاقته بالروس وبظاهر العمر ومحمد بك أبي الذهب .

والدور الرابع من العصر العثماني في مصر بدأه المؤلف بسلطنة السلطان العثماني عبد الحميد الأول في استانبول ومشيخة إسماعيل بك وإبراهيم بك ومراد بك في مصر مع الحملة العثمانية التي جاءت بقيادة القيطان حسن باشا لحرب الماليك .

وانتهى هذا الدور سياسياً بسلطنة السلطان سليم الثالث وأجل جرجى زيدان الحديث عن المظاهر الحضارية من علم وأدب واجتماع واقتصاد ومالية وتعليم إلى آخر كتابه ضمماً هذه الظواهر الحضارية في الانوار الثلاثة ، معاً .

الحدود الزمنية للكتاب

ذكر جرجى زيدان فى بداية مخطوطه ، عنوان هذه المخطوطة على عنوانين : الأول هو مصر العثمانية والآخر تاريخ مصر فى عهد الدولة العثمانية ، ومن المفيد هنا ذكر عنوان المخطوط بالكامل : مصر العثمانية أو تاريخ مصر فى عهد الدولة العثمانية من الفتح العثمانى سنة ٩٢٢ هـ أو ١٥١٧ م إلى الحملة الفرنسية سنة ١٢١٣ هـ أو ١٧٩٨ م .

وهذه هى الحدود الزمنية للكتاب ، ولا يخفى أن التاريخ العثمانى فى مصر قد امتد أكثر من هذا ، امتد حتى عام ١٩١٤ وهو تاريخ إعلان الحماية البريطانية على مصر وإبتياعها رسمياً عن النفوذ العثمانى .

نقد الكتاب

أولاً : الإيجابيات :

سد جرجى زيدان فجوة فى كتابته لتاريخ مصر ، بخطه هذا الكتاب ، لقد تناول التاريخ تناولاً شاملاً يدخل فى أدبيات التاريخ . إنه الدراسة الواسعة لمفهوم كلمة التاريخ فلم يقتصر على

التاريخ السياسى ككتاب بعض كتاب عصره وإنما اشتملت برأسه على التاريخ السياسى والتاريخ الاجتماعى والتاريخ الاقتصادى والتاريخ المالى والتاريخ الحضارى . إن هذه الميزة لجرى زيدان لا نعتدحها فيه اليوم فقط فقد سبقنا إلى ذلك الكاتب التركى الذائع الصيت المعلم جودت فى كتابه ذيل على ابن بطوطة (١) . وكذلك سليمان اولوضاغ فى مقدمته لكتاب تاريخ الإسلام لمحمود أسعد استانبول ١٩٨١ م .

لقد سد زيدان فراغاً فى الكتابة التاريخية عن مصر عامة وعن العهد العثمانى خاصة ، لقد كتب هذا الكتاب الذى بين ايدينا الآن عام ١٩١١ م .

وهو رغم قدمه نسبياً وهو ما يدخل فى مسمى التراث المعاصر . يتميز بشمولية واضحة ويتفوق على الكتب المؤلفة أو المحققة حديثاً عن مصر العثمانية فى ذلك فهو يتحدث عن العلوم الإسلامية فى مصر العثمانية وعن الشعراء والأدباء وعن الحياة الاقتصادية والاجتماعية وما إلى ذلك وهى نقاط خلفت عن الباحثين المحدثين أو لم يهتموا بها .

(١) معلم جودت (اينانج آلب) ذيل على نصل « الأخية الفتيان التركية » فى

رحلة ابن بطوطة ، ص ٥ ، استانبول ١٣٥٠ هـ - ١٩٢٢ م .

ثانيا - السلبيات :

جرجى زيدان جامع معلومات ، وصاحب منهج حضارى
لكتابة التاريخ ، إلا انه أحيانا لا يدقق فى محاكمة الواقعة ، مثال
ذلك عندما يتحدث عن حسين باشا يقول إنه كان يطوف القاهرة
ويقتل رجلاً أو اثنين يومياً .

كما ان لدى جرجى زيدان استعداداً يبرز دائماً فى
تفسيره التاريخ المصرى على اساس قومى مثل قوله عن المماليك :
" ليس لأحد منهم عائلة أو أسرة يغار على وطنه من أجلها
إلا نادراً . مع أن نور المماليك فى الدفاع عن مصر فى مواقع
كثيرة ماثلة أمام العيان .

ويمزج زيدان فى الكتابة التاريخية القصص القديم
والاساطير بالتاريخ مثال ذلك : حديث زيدان عن قصة حب عثمان
مؤسس الدولة العثمانية لابنة الشيخ " ادبالى " !!
وهناك بعض الأخطاء التحوية فى المخطوطة ، وإن كانت
هذه لا تدخل فى نطاق ما نحن بصدده الآن .

وهناك أيضاً بعض التحريفات لبعض الأسماء العثمانية
أمثلة على ذلك : با يازيد - قنسو - كافا وغيرها وصحتها
بيازيد - قانصو - كتفه .

وتيسيراً للقارىء ، تم الاستغناء - فى الطبع - عن
ذكر رقم صفحة الأصل ، كما تم الاستغناء عن الصور التى

أوردتها المؤلف في مخطوطه ، لعدم وضوحها في المخطوط .

وغنى عن البيان هنا أنه استفاد بعض الشيء من كتاب «تاريخ مصر الحديث» عندما أخذ يخط كتابه الذي نقدمه اليوم ، ويمكن حصر استفادته في مخطوطه هذا ، من كتاب تاريخ مصر الحديث في مسألة امتيازات السلطان سليمان للمماليك ، وحادثه قتل والى مصر وتعليق رأسه على باب زويلة عام ٩٣١ هـ ، وتولية اسكندر باشا ٩٦٨ هـ ووفاته الأمير إبراهيم الدفتردار عام ٩٧٤ هـ ، وقائمة المماليك الثمانية عشر في عهد على بك ، وهذا لا ينقد في جرجى زيدان على اعتبار أن سمة التأليف لم تكن تمنع من هذا وما زالت ولم تمنع تفرد مخطوطه هذا في مضمون تاريخ مصر في العهد العثماني .

القاهرة / مدينة نصر

لهي ٢١ / ١١ / ١٩٩٣ .

الدكتور محمد حرب

رئيس المركز المصري للدراسات

العثمانية وبحوث العالم التركي

مقدمات تصهيدية

التاريخ الإسلامى بالنظر إلى سائر التواريخ

التاريخ العام

التاريخ العام ، عبارة عن الحوادث التى رافقت الإنسان فى أول وجوده إلى الآن . أو ذكر ما انتاب الأمم من التقدم أو التأخر والصعود أو الهبوط فى السياسة والاجتماع ، أو هو بيان تدرُّج البشر فى المدنية ، وإذلك فهو مقصور على الأمم التى كان لها شأن فى ترقية الهيئة الاجتماعية .

وقد عبّر بعضهم عن التاريخ بقوله : إنه الفلسفة مشروحة بالأمثال حتى تكون حوادث المتقدمين عبرة للمتأخرين .

والتاريخ العام يقتضى معرفة أخبار الناس من أول عهد الإنسان إلى الآن . وهذا غير ميسور لأن ما وصل إلينا من حوادث البشر إنما هو جزء صغير جدا فى تاريخهم . والإنسان لم يدون

تاريخه إلا بعد أن وفق لاختراع الكتابة . وهو لم يوفق إليها إلا بعد التدرج في الرقى أدهاراً ، ظهرت في أثنائها دول وأمم انتشبت بينها الحروب ، وعقدت المعاهدات ، وذهب العقلاء في أثنائها مذاهب في الفلسفة . فهذه كلها ذهبت أخبارها فلم يصلنا منها شيء ، حتى أسماء تلك الأمم ، فإنها ضاعت ، وإنما استدللنا على وجودها من ثمار أعمالها ، أو بما خلفته من الأدوات أو الأحافير أو الخرائب .

وعلماء التاريخ لا يعدون تلك المعرفة تاريخاً . ولذلك سموا المدة التي قضاها الإنسان قبل تدوين أخباره «الزمن قبل التاريخ» وهو أطول كثيراً في زمن التاريخ تقدم فيها الإنسان شوطاً بعيداً في سلم المدنية والارتقاء العقلي . وفيها تألفت الهيئة الاجتماعية ووضعت سنن الزواج والإرث . وانتظمت العائلة . وفيها شككت الحكومات ، وانشئت الأديان . وفيها حدثت أهم الاختراعات والاكتشافات التي بنى عليها البشر رقيهم في زمن التاريخ ؛ لأن في تلك الفترة المظلمة ، اخترعت الكتابة ، واستنبت الطبخ والعجن والخبز والفزل والتسيج والخياطة والبناء . واكتشفت النار والملح ، وما من أهم الاكتشافات .

من لنا بمن يخبرنا عن مخترع الكتابة الصورية ؛ لنشيد له

تذكارا ، أو مخترع الإبرة للنصب له تمثالا ، بل لو عرفنا مكتشف النار ، أى أول من ولد النار بالفرك ، لَحَقَّ له علينا الإكرام الجزيل. إن ذلك وأمثاله من أعمال الإنسان قبل زمن التاريخ لا يدخل فى علم التاريخ ولا إلى معرفته سبيل إلا بالتخمين .

أما زمن التاريخ فهو الذى عرفنا أممه وقبائله ودوله وبعض حوادثه ، إما من الكتب التى وصلت إلينا أو من النقوش التى قرأناها فى الآثار أو من أحوال أخرى . وهو لا يتجاوز فى مدته ستة آلاف سنة ، نصفها الأول ناقص ، وأكثره مبنى على الحدس والتخمين . والنصف الآخر محشو فى أوائله بالمبالغات أو الخرافات . ولكن أكثره ثابت ، لرجوعه إلى النصوص التاريخية بعد شيوع الكتابة .

ما معنى لفظ تاريخ ؟

وقبل التقدم إلى ذكر أقسام التاريخ : نتكلم عن أصل هذا اللفظ فى العربية ، وقد اختلفت الأقوال فيه : فذهب جماعة إلى أنه فارسي ، وقال آخرون : إنه يوناني . وتكلفوا فى تخريجه تكلفا نحن فى غنى عنه لأن اللفظ عربى ، وفى القاموس^(١) وأرخ الكتاب

(١) يقصد القاموس المحيط .

يأرخه أرخا ، وقته أى عرف وقته . ثم تفرع المعنى فصاروا يدلون بها عن علم التاريخ أى ذكر الوقائع والحوادث . ولعل سبب الشك فى كون هذا اللفظ عربيا أن العرب أخذوا التاريخ عن الفرس . وقيل لهم إن اسمه عند الفرس «ماه روز»^(٢) فعربوها «مؤرخ» ثم اشتقوا منها مصدراً «تاريخ» وهو تكلف لا حاجة بنا إليه ، فدفعاً لكل شك فى كون هذا اللفظ عربيا نأتى بأشباهه من أخوات اللغة العربية .

فهو فى العبرانية «يرخ» ومعناه : القمر . ومثلها «يرح» فى السريانية لنفس هذا المعنى ونحو ذلك فى الكلدانية والآشورية . وهى أيضا تدل عندهم على الشهر ؛ لأن حسابهم كان قمرى . وكذلك الشهر والقمر فى العربية بمعنى واحد . ولا عبرة فى إبدال الخاء ، حاء ، بين العربية وأخواتها ، فإنه عادى فيها . ومن بقايا دلالة «يرح» أو «أرخ» على القمر فى العربية ، قول العرب «راح» أى ذهب أو جاء فى العشى ، أى فى نور القمر . والمعنى راجع إلى

(٢) ماه روز : بمعنى حساب اليوم والشهر ، انظر عبد النعيم حسنين ، قاموس الفارسية، ص ١/٦١٢ ، دار الكتاب اللبنانى ، القاهرة ١٩٨٢ ، «ماه روز» بمعنى التاريخ . انظر حسن عميد ، فرهنگ فارسى عميد ، ص ٩٠٩ ، مؤسسة انتشارات امير كبير ، طهران ١٣٤٢ .

العشى بدون تقييد بالذهاب أو المجيء ، مثل قولهم أصبح وأمسى .
ثم غلبت فيها الدلالة على الذهاب فى العشى ثم صارت تدل على
مطلق الذهاب . وقد يكون اللفظ الواحد معناه القمر فى إحدى هذه
اللغات ، والشهر فى اللغة الأخرى ، فإن «سهر» فى السريانية
معناها قمر فى العربية وهو «الشهر» بإبدال السين شيئا . وقد بقى
فى معناها الاصل فى العربية «الساهور» وهو القمر أو غلافه .
والخلاصة أن لفظ التاريخ ، عربى الأصل والاشتقاق .

أقسام التاريخ العام

اختلف المؤرخون فى تقسيم زمن التاريخ وتبويبه . والأكثر
يرون قسّمته إلى ثلاثة أقسام : الأول . التاريخ القديم ويبدأ بأقدم
الزمان ، وينتهى عند سقوط روميه سنة ٤٧٦ للميلاد . والقسم
الثانى . القرون الوسطى أو المظلمة ، وهى تمتد من هذا التاريخ
إلى اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢ مسيحية . والثالث ، التاريخ
الحديث ، من اكتشاف أميركا ولا يزال .

ذلك هو تقسيم التاريخ العام عند كتاب الافرنج . وهو فى
اعتبارنا تقسيم ناقص ، مبنى على الأحوال التى توالى فى أوربا
وأميركا ، ولا يدخل فيها من تاريخ الشرق إلا الدول القديمة فى

مصر وبابل وفينيقية وغيرها من التمدن القديم . ولم يراعوا فيه الانقلابات السياسية العظيمة التي توالى في الشرق بعد ذهاب تلك الدول . وكان لها تأثير كبير في تاريخ العمران في سائر أنحاء العالم المتمدن .

أما أقسام التاريخ العام بالنظر إلى الشرق وأمه ودوله ، فإنه في نظرنا يقسم إلى قسمين كبيرين ، أو هما شطران : شرقي وغربي . نعتبر عنهما بتاريخ الشرق ، وتاريخ الغرب . ونقصد بالشرق آسيا على الإجمال ومعها وادي النيل وما يليه من البلاد التي تمدنت قديما في أفريقيا . ونعني بالغرب أوروبا وأميركا وما يلحقهما .

ولكل من هذين الشطرين ثلاثة أطوار أو أعصر تتشابه في التقسيم ولكنها تختلف في الزمن . لكل منها عصر قديم وعصر متوسط وعصر حديث . لكن الشرق متقدم فيها على الغرب وسابق منه في عوامل المدنية

فتاريخ الشرق القديم يمتد من أقدم الأزمنة إلى فتح الإسكندر المكدوني بلاد فارس سنة ٣٣٦ قبل الميلاد .

وتاريخة الأوسط أو قرونه الوسطى أو المظلمة تمتد من فتح الإسكندر إلى ظهور الإسلام سنة ٦٢٢ للميلاد أو السنة الأولى

للهجرة .

وتاريخه الحديث يبدأ بظهور الإسلام ولا يزال . ثم إن تاريخ الإسلام ينقسم إلى عصور سيأتي بيانها .

أما تاريخ الغرب القديم فيبدأ من أول تمدنه نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد في بلاد اليونان . وقد اقتبس أصول تمدنه من أمم الشرق القديمة في مصر وفينيقية وبابل وغيرها ، وينتهي بسقوط روميه سنة ٤٧٦ م . وسبب انقضائه ، هجوم البربر ، بنو شمال أوروبا «قبائل الجرمان» على المملكة الرومانية . وفي أثنائه دخل الشرق في أجياله الوسطى بسقوط دولة الفرس ، كما تقدم .

وتاريخ الغرب الأوسط هو عصر الظلمة أو القرون الوسطى في أوروبا . يبدأ بسقوط روميه ، وتسلط البربر إلى بزوغ نور التمدن الحديث بعد اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢ م . وقد أغفل فيه الغربيون علوم أسلافهم اليونان . ونهض الشرق في أثنائه من عصوره المظلمة بظهور الإسلام وقيام دولة العرب ، فأخذوا تلك العلوم وترجموها .

فتاريخ الإسلام هو تاريخ الشرق الحديث . وبه نهض الشرق من غفلته واستعاد رونقه ومجده . وامتد سلطان المسلمين

على أضعاف ممالك أسلافهم الشرقيين ، وخفقت أعلامهم على
ممالك الفراعنة والفينيقيين والآشوريين والبابليين والفرس والأرمن
والهند والترك والمغول والمغاربة وسائر بلاد المشرق ، وقسم من
أوربا ؛ في اسبانيا وفرنسا وإيطاليا ، مما لم يسبق له مثيل .

أقسام تاريخ الإسلام

يقسم تاريخ الإسلام إلى خمسة أعصر :

١ - عصر التكوين والنمو : من ظهور الإسلام إلى آخر
الدولة الأموية بالشام وهو عصر الفتوح في الدولتين ، أو العصر
العربي .

٢ - عصر البلوغ : من أول الدولة العباسية ١٢٢هـ إلى
تغلب الجند التركي سنة ٢٢٢ للهجرة ، وهو يشتمل على أبان
الدولة العباسية . وفيه نشأ الأدب ، ونقلت علوم القدماء إلى
العربية . وهو عصر الإسلام الذهبي . ويُعرف بالعصر الفارسي ؛
لأن الدولة فيه كانت بأيدي الوزراء الفرس .

٣ - عصر التفرع والتشعب : من تسلط الأتراك إلى
سقوط بغداد . وفيه تفرعت هذه الدولة إلى دول من أهم مختلفة ؛

في أنحاء مختلفة ، ونشأت دول جديدة كدولة الفاطميين بمصر
والأمويين بالأندلس والسلاجقة في الشام وغيرها ، ونشأت سائر
دول الأتراك والأكراد والفرس وغيرهم .

٤ - القرون الإسلامية الوسطى : من سقوط بغداد إلى
أوائل القرن التاسع عشر .

٥ - النهضة الأخيرة : من أوائل القرن الماضي ، ولا
تزال . وهي مقتبسة من تمدن الغرب الحديث .

ويقسم التاريخ على الإجمال أيضا إلى عام
وخاص . والعام يتضمن تاريخ البشر عموما . والخاص
يشمل التاريخ الخاص المتعلق بموضوع واحد : كتاريخ أمة ،
أو مملكة ، أو ولاية ، أو مدينة أو دولة أو عائلة أو شخص . والمتعلق
بشخص واحد يُسمى ترجمة ، أو سيرة ، أو حادثة ماثورة ؛
كتاريخ الإخلاص ، ومذبحة المماليك ، وحادثة عرابي ، وظهور
المتهمدي ، ونحو ذلك .

ويسمى التاريخ الخصوصي بأسماء تختلف باختلاف
موضوعه : كتاريخ الكنيسة والتاريخ السياسي والشرع
والقضائي والتجاري والأدبي والعلمي ونحو ذلك .

مزايا التاريخ الإسلامى

على سائر التواريخ

فتاريخ الإسلام من التواريخ الخاصة المتعلقة بالأمم أو الدول ؛ لأن المراد بها ذكر حوادث الأمة الإسلامية أو الدولة الإسلامية ، ومقابله تاريخ الرومان أو اليونان أو الفرس ونحوهم لكنه يمتاز عنها بأمور جديدة بالاعتبار أهمها :

١ - أن تاريخ الإسلام حلقة موصلة بين الشرق والغرب ؛ لأنه بامتداد أصحابه إلى أقصى الشرق وإلى أقصى الغرب تمكنوا من الوصل بينهما ، وهو أيضا حلقة موصلة بين التمدن الغربى القديم ، والتمدن الغربى الحديث ؛ لأنه حفظ ما توالى على عوامل التمدن الغربى القديم من التغيير أو التحوير فى العلوم الفلسفية والطب مما اشتغل به المسلمون فى أثناء تمدنهم ، ولا سبيل إلى معرفة ذلك إلا بتاريخ الإسلام .

٢ - يمتاز تاريخ الإسلام عن سائر تواريخ الأمم والدول ،

بما يدخل تحته من تواريخ العناصر المختلفة التي أنقذها الإسلام في أواسط آسيا وغيرها ، وكانت في حال البداوة أو الهمجية ، فساقها إلى المدنية ، أو العلم حتى نبغ منها العلماء والفلاسفة ورجال السياسة والإدارة . وأشهرهم الأتراك والمغول والبربر والزنج .

وهنا نقطة يحسن بنا الوقوف عندها لحظة ؛ لنذكر شيئاً عن كل من تلك الأمم :

الأتراك

كان الأتراك قبل الإسلام ، أهل بادية يقيمون في أواسط آسيا ؛ بين الهند والصين وسيبيريا . ولم يعرفوا عن أهل الغرب من اليونان أو الرومان إلا قليلاً . فكان الفرس يقتنونهم للرق والخدمة ، ويتهاونهم كما يتهاون المتاع . فلما جاء العرب وفتحوا بلادهم وجندوهم ؛ نهضوا في جملة الناهضين ، وتولوا الإمارات . ثم أنشأوا الدول العظمى في فارس والعراق والشام ومصر وآسيا الصغرى والقسطنطينية وأفغانستان وتركستان . وأشهرها الدولة الطولونية والايلىكية والإخشيدية والغزنوية والسلجوقية بفروعها ودول الأتابكة التي تخلفت عنها . ويزيد عدد الدول الشرعية

الإسلامية على ثلاثين دولة . واتسع سلطانهم حتى وطئت خيولهم
أواسط أوربا ، ونبع منهم القوادِرُ والساسة والفقهاء والكتاب
وشادوا القصور والمساجد والمعاهد . وأنشأوا المدارس
والتكيات .

وأكثر ما بقي من آثار الإسلام في مصر والشام والعراق
من بنائهم ؛ فهؤلاء لا سبيل إلى معرفة أحوالهم إلاً بتاريخ
الإسلام .

المغول

والمغول طوائف رُحُلٌ . كانوا يقيمون حوالى بحيرة
«بيقال»^(١) في جنوبى سيبيريا . ولم يظهروا للعالم إلاً بعد الإسلام .
وكانوا قبل ذلك قبائل يعيشون بالغزو والنهب والصيد والقنص .
فلما احتكوا بالمسلمين في تركستان ودأوا دولهم
وجيوشهم، عملوا على الاقتداء بهم ، حتى عمدوا إلى فتح مملكتهم
ففتحوها ببدائوتهم وخشونتهم ، وأمنعوا فيها قتلا ونهباً وإحراقاً
على يد جنكيز خان . لكنهم مالبتوا أن تحضروا ، لما شرقتهم

(١) مصحح نطقها : بَايْقَال ، ومصحح كتابتها على شكلين : بِيْقَال وبَايْقَال ، وهى
كلمة تركية تدل على اسم بحيرة في جنوب سيبيريا : على سبيلى قاموس
عثمانى من ١/١٧٢ استانبول ١٣٢٠ .

المسلمين في فارس والعراق . وأنشأوا دولاً عظمى حكمت الشرق
خمس قرون ونصف قرن ، أشهرها أربع دول كبرى هي دول
اقتاي وطلوي وجوجي وجغتاي .

وتفرعت منها دول أخرى امتدت سطوتها وخفقت أعلامها
على زنقاريا وبلاد المغول والقبچاق وتركستان . وفتحوا المملكة
الإسلامية ، وامتدوا في بلاد فارس والعراق والشام .

وتبع منهم الساسة والقواد . وبعد أن كانوا أهل أوثان ،
أسلموا وشادوا المساجد والمدارس والمعاهد . وعمروا المدن في
أقصى الشوق وأقاموا فيها الأبنية الباذخة ، والقصور الشامخة .
وغرسوا الحدائق والبساتين وهذه الدول لا سبيل إلى معرفة
أخبارها إلا بتاريخ الإسلام .

البربر

ويراد بهم بدو أفريقيا الشمالية . وهم قبائل رحل ، كانوا
قبل الإسلام من الهمجية والجهالة على جانب عظيم . وكانوا
أصحاب أوثان ، يعتصمون الجبال ويتقاضون إلى الكهان ،
يكرهون المدنية وأهلها . وقد قاسى اليونان والرومان من غزوه
ونهبهم عذاباً شديداً . ولم يكن لهم شغل غير ذلك . ولاقى العرب

أيام الفتح مشقة كبرى في إخضاعهم ، فلما خضعوا وأسلموا
تجندوا للخلفاء والأمراء ، واقتتحو البلاد ، ولا سيما في الغرب
فاكتسحوا الأندلس بقيادة طارق بن زياد ، وكانوا عوناً كبيراً في
قيام دولة الإدارة والدولة الفاطمية ، وأنشأوا دولة الملتزمين
والمرابطين والموحدين والمصامدة وآل زيري وغيرهم مما لا يحصى ،
وقد جندوا الجنود وبنوا المعاقل وأخذوا بأسباب المدنية ولا وسيلة
لمعرفة أخبارهم إلا بتاريخ الإسلام .

الزنج

كان الزنج ولا يزال ، السواد الأعظم منهم ، يُحملون إلى
الآفاق كما تحمل الأغنام - يباعون ببيع السلع ؛ فكانوا يرضخون
تحت ثير المتعدين ، وكانوا يعبدون الحجارة أو الشجر . وبعضهم
لا يفهم معنى الدين أو العبادة . وكان المعروف في مواطنهم عند
ظهور الإسلام شمالي أفريقيا وبعض غربيها وشرقيها .
فلما انساح العرب في الأرض للفتح أو المهاجرة ، ذهب
قبائل منهم إلى أواسط أفريقيا ، فضلاً عن شواطئها ، فاكتسب
الزنج منهم أخلاق الأمم المتعدنة ، وأسلموا . ثم انتظموا في
الجنديّة ، وتآلفت منهم فرقاً حاربت تحت رايات الخلفاء في بلاط
الخلفاء ، حتى صاروا من أهل الحل والعقد .

وتولى بعضهم الحكومة ، ثم تجندوا لأنفسهم . ونهضوا
كما تنهض الأمم الراقية ، فألفوا جيشاً حاربوا به الدولة العباسية
عدة سنين ، حتى ألقوا راحتها . وفتحوا المدن ، وكادوا يؤسسون
دولة إسلامية كبرى .

على أنهم أنشأوا دولاً صغرى فى أواسط إفريقيا وغربها .
ونبغ منهم الحكام والقواد ، وأشهرهم : كافور الإخشيدي صاحب
مصر . وظهر غير واحد من الشعراء ونظموا القصائد الحسنة .
ونبغ منهم جماعة من القراء والفقهاء . وتدخل أخبارهم فى تاريخ
الإسلام .

وقس على ذلك أخبار أمم الشمال : كالكروج والأرمن
والأكراد والخزر والصقالبة وغيرهم .

ناهيك بالعرب أنفسهم وتاريخهم قبل الإسلام وبعده . لولا
الإسلام لذهبت أخبارهم وأخبار الأمم الإسلامية الأخرى . وأكثر
ما يعرفه المتمدنون فى هذه الأمم ، أخذوا من تاريخ الإسلام .

٢ - أرخ المسلمون فترة من الدهر ، لم يعرف تاريخها ،
لولاهم . لأن حوادث ظهور الإسلام وما تلاه من أخبار الفتح وما
عقب ذلك من إنشاء التمدن ونشر لواء العلم ونقل الفلسفة وغيرها
من علوم القدماء ، وما اقتضاه ذلك من التغيير والتبديل ، قلما
عرف عنه الإفرنج شيئاً لولا تاريخ الإسلام .

٤ - إن مدة هذا التاريخ أطول من مدد سائر التواريخ ؛ لأن الإسلام يشمل أولاً شتى إسلامية ، إذا انقضت دولة قامت أخرى ، ونحن في القرن الرابع عشر من تاريخ الهجرة (١) . وقد توالى في الإسلام مئات من الدول من أمم مختلفة في آسيا وأفريقيا وأوروبا . ولا يزال من هذه الدول كثير حتى الآن في هذه القارات . منها الدول الكبرى كالدولة العثمانية والفارسية والدول الصغرى في الهند وجزيرة العرب وأفريقيا .

ولا نعرف أمة طال سلطانها في الأرض مثل هذه المدة . ولا يزال عمر الإسلام طويلاً ، بل هو في نهضة إصلاحية تساعد على طول بقاءه . فهو لذلك يحتوى على تاريخ أطول من سائر التواريخ .

٥ - يمتاز تاريخ الإسلام عن سواء أنه يشتمل على تاريخ السياسة والدين والعلم والشريعة . وهذا قلما يجتمع في التواريخ الأخرى .

وتاريخ الفقه الإسلامي لا يدانيه تاريخ فقه لأمة من أمم الأرض بما يدخل فيه من إعمال الفكر واستنباط العقل . وقس عليه تاريخ العلم ؛ لأن المسلمين أتوا في نهضتهم العلمية في العصر

(١) كتب المؤلف مخطوطه هذا عام ١٩١١ م = ١٣٢٩ / ١٣٣٠ هـ .

العباسى بما لم يأتهم غيرهم فى نهضة ، فقد اشتغلوا بعلوم اليونان والفرس والهنود والسريان وغيرهم ونقلوها إلى لسانهم وذكرها أخبارها وأحوالها فضلا عما فى اختلاف أجناس المؤرخين من جوامع الفوائد ، فإن بينهم العربى والفارسى والتركى والرومى والمصرى والسريانى والهندي وغيرهم . ولكل أمة مزية ، فاجتمعت هذه المزايا فى تاريخ الإسلام .

٦ - يشتمل تاريخ الإسلام على عبر تاريخه لا يتيسر اجتماع مثلها فى تاريخ أمة أخرى ؛ لكثرة العناصر والأجناس الداخلة فى الإسلام ، ولكل منها عادات وأخلاق . وكان فى كتاب المسلمين ميل إلى ذكر الحوادث والإشارة إلى العبرة والوفاء فيها . على أننا لا ننكر ما فى تواريخ الأمم الأخرى من المزايا التى قد تمتاز بها على تاريخ الإسلام .

تاريخ مصر بالنظر إلى سواء

إن تاريخ مصر من قبيل التواريخ الخاصة ؛ لأنه يختص بمصر دون سواها من البلاد ، وهو تاريخ طويل . لأن مصر من البلاد التى تمدنت قديما ، ولعلها أقدم الممالك المتعدنة التى وصل إلينا خبرها . ويقسم تاريخها إلى قسمين كبيرين : قديم وحديث .

فالتاريخ القديم : يشتمل على تاريخها من أول عهدها إلى
الفتح الإسلامي . ويدخل فيه تاريخ دول الفراعنة . وينتهي هذا
بفتح الإسكندر ، الإسكندرية سنة ٣٣٢ ق . م . ودولة البطالسة
تبدأ بفتح الإسكندر وتنتهى بالفتح الرومانى سنة ٢٠ ق . م .
والدولة الرومانية تبدأ بهذا الفتح وتنتهى بفتوح الإسلام سنة ٦٤٠ م .
وتاريخها الحديث يبدأ بفتوح الإسلام سنة ٦٤٠ م .
ولا يزال ، وهو تاريخها الإسلامى .

ويقسم تاريخها الحديث الإسلامى إلى ١٢ دولة كلها
إسلامية ، يتخللها الفتح ^(١) الفرنساوى على يد «بونابرت» ، ثلاث
سنوات . ونعدها دولة ثالث عشرة وهى :

- ١ - دولة الخلفاء الراشدين : من سنة ١٨ - ٤١ هـ أو من
٦٤٠ - ٦٦١ م .
- ٢ - الدولة الأموية : من ٤١ - ١٣٢ هـ أو من ٦٦١ - ٧٥٠ م .
- ٣ - الدولة العباسية : للمرة الأولى من ١٣٢ - ٢٥٧ هـ أو
من ٧٥٠ - ٨٧٠ م .

(١) الفتح : اصطلاح إسلامى بمعنى أخذ بلد أو منطقة سلماً أو عنوة . انظر عمر
نصوحى ، قاموس الشريعة الإسلامية والمصطلحات اللغوية ، ج ٣ ص ٢٢٦ ، دار
بيلمان ، استانبول ، بدون تاريخ .

- ٤ - الدولة الطولونية: من ٢٥٧ - ٢٩٢ هـ أو من ٧٨٠-٩٠٥ م.
- ٥ - الدولة العباسية : للمرة الثانية من ٢٩٢ - ٣٢٣ هـ أو ٩٠٥ - ٩٣٤ م.
- ٦ - الدولة الإخشيدية : من ٣٢٣ - ٣٥٨ هـ أو من ٩٣٤-٩٦٩ م.
- ٧ - الدولة الفاطمية : من ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ أو من ٩٦٩-١١٧١ م.
- ٨ - الدولة الأيوبية : من ٥٦٧ - ٦٤٨ هـ أو من ١١٧١-١٢٥٠ م.
- ٩ - دولة المماليك الأولى : من ٦٨٤ - ٧٨٤ هـ أو من ١٢٥٠-١٣٨٢ م.
- ١٠ - دولة المماليك الثانية : من ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ أو من ١٣٨٢-١٥١٧ م.
- ١١ - الدولة العثمانية : من ٩٢٣ - ١٢١٣ هـ أو من ١٥١٧-١٧٩٨ م.
- ١٢ - الحملة الفرنسية : من ١٢١٣ - ١٢١٦ هـ أو من ١٧٩٨-١٨٠١ م.
- ١٣ - الدولة المحمدية العلوية : من ١٢١٦ هـ أو ١٨٠١ م.
- ولا تزال .

موضوع هذا الكتاب

فموضوع هذا الكتاب يقتصر على الدولة الحادية عشرة من
دول الإسلامية التي دخلت مصر في حوزتها ؛ نعى الدولة
العثمانية بعد إخراج المدة التي كانت مصر فى أثناءها تحت
سيطرة الفرنسيين ، على أثر الصلة الفرنسية من سنة
١٧٩٨-١٨٠١ فىكون موضوع هذا الكتاب ، تاريخ مصر العثمانية
من الفتح العثمانى سنة ٩٢٢ هـ - ١٢١٣ هـ أو من
١٥١٧-١٧٩٨م وهو أظلم (١) أقسام التاريخ المصرى الحديث ، لأن
مصر كانت فى أثناءه مضطربة . وقد استبد بها المماليك وفسدت
حكومتها ، وقل من كتب فى تاريخها من المحققين . على أننا
سنبذل الجهد فى إيضاح ذلك التاريخ .

ولا بد لنا قبل التقدم إلى الكلام فيه من أن نقدم القول
بمقدمات تمهيدية لزيادة الإيضاح فنقول :

(١) قد يقصد المؤلف هنا بأظلم أقسام التاريخ ، قلة من كتب فى هذه الحقبة من
تاريخه .

ما كانت عليه مصر عند الفتح العثماني

ويقتضى بيان ذلك أن نأتي بفذلكة تاريخ السلاطين المماليك
الذين انتقلت مصر من أيديهم إلى العثمانيين على يد السلطان
سليم الفاتح (١) .

السلاطين المماليك

ويراد بالسلاطين المماليك : الدولة التي أنشأها مماليك
الدولة الأيوبية بعد انقضائها .

حكمت الدولة الأيوبية من سنة ٥٦٧ هـ - ٦٤٨ هـ ، وهي
كردية ؛ لأن مؤسسها السلطان صلاح الدين الأيوبي (٢) ، كردي .
وهو من أعظم رجال الإسلام تعقلاً وسياسةً وبسالةً وتدبيراً . أنشأ
دولته على أنقاض الدولة الفاطمية بمصر ، وبأيع فيها للخلفاء
العباسيين ، وحارب الصليبيين وردهم عن سوريا ، وأنقذ بيد
المقدس من أيديهم . ومآثره أشهر من أن تذكر . وارتفع شأن
الأكراد في أيام دولته ، وتولوا الإمارات والولايات في مصر والشام
وكرديستان واليمن وخراسان .

ولما مات اقتسم مملكته ، أخوته وأولاده وأولاد إخوته ،

(١) السلطان سليم الفاتح ، هو السلطان سليم الأول العثماني : ١٤٦٧-١٥٢٠ م .

(٢) السلطان صلاح الدين الأيوبي : ١١٢٩-١١٩٣ م .

ولذلك تم يطل حكمها ، فغلبهم على معظمها مماليتهم الأتراك .
كما غطيت الأتابكة ملوكهم السلاجقة قبلهم . فكان للمماليت في
مصر دولتان تعرفان بالسلاطين المماليت .

أصل السلاطين المماليت

بدل اسم المماليت على أصلهم فقد كانوا أرقاء مملوكين، ثم
صار الحكم إليهم . وهم من الأتراك . كانوا في الأصل جندا
منجورا أو ميقاعا . بدأ استخدام الأتراك في الجندي على هذه
الصورة في أيام المعتصم العباسي في أوائل القرن الثالث للهجرة .
فإنه استقدم منهم جماعة من تركستان ابتاعهم أو استرضاهم أو
استنجرهم لتعزيز حاشيته خوفا من تغلب أحد الحزبين اللذين
استفحل شتئهما يومئذ في أثناء الفتنة بين أخويه الأمين والمأمون .
إذ قام العرب مع الأمين ، والفرس مع المأمون . وكان الشأن الأكبر
في تول الدولة العباسية للجنود الخراساني (الفرس) وهم الذين
نقلوا الدولة الإسلامية من بني أمية إلى العباسيين . وكان العرب
قوياء لأنهم قوام الدولة ، ومنهم الخلفاء وهم مادة الإسلام وأصله .
كان الفرس من حزب البرامكة . وكان الرشيد ذا عصبية للعرب
أف الفرس ، لأنهم أنصار الشيعة العلوية فنكب البرامكة خوفا

ولما اختلف الامين والمؤمن وتنازما على الخلافة بعد الرشيد . كان العرب مع الامين ، والفرس مع المؤمن ، لأن أمه فارسية ، والامين أمه عربية هاشمية «زبيدة» . وكان الفوز للمؤمن وقتل الامين . فانحط شأن العرب . وصارت السيادة إلى الفارسيين أنصار المؤمن واستبدوا في الدولة .

وكانت الحضارة قد أضرت بالمسلمين وأذهبت منهم قوة التغلب والفتح . ففكر المعتصم أخو المؤمن في ذلك قبل أن تفضى الخلافة إليه . وكانت أمه تركية ، وفيه كثير من طبائع الأتراك مع الميل إليهم ، لأنهم أخواله . كما كان يميل المؤمن إلى الفرس لنفس هذا السبب .

وشاهد المعتصم من جرأة الفرس وتطاولهم بعد قتل أخيه الامين حتى أصبح يخافهم على نفسه . ولم تكن له ثقة العرب وقد ذهبت مصيبتهم وأخلدوا إلى الحضارة والترقب وانكسرت شوكتهم فرأى أن يتقوى بالأتراك وهم لا يزالون إلى ذلك العهد أهل بداءة وبطش مع الجرأة على الجور^(١) والصبر على شظف العيش فجعل يتخير منهم الأشداء يبتاعهم بالمال من مواليتهم في العراق ، أو يبعث في طلبهم من تركستان وغيرها . فاجتمع عنده عدة آلاف

(١) مكنا في الأصل .

منهم . وفيهم جمال و صحة ، فالبسهم أثواب الديباج والمناطق
المذهبة والحلية المذهبة ، ويميزهم بالزى عن سائر الجنود .

دولة المماليك الأولى

وصار تجنيد الأتراك من ذلك الحين قاعدة في الدول
الإسلامية . ومن جعلتها الدولة الأيوبية بمصر ، فإن الملك الصالح
ابن الكامل (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ) استكثر من اقتنائهم حتى جعل
منهم بطانته وأمراء دولته والمحيطين بدهليزه وصارت مناصب
الدولة إليهم ، وأمنع حصون البلاد في قبضتهم قد اتخذوها مستقرا
لهم حتى إذا ضاقت ذرعا من الإحاطة بهم ابتنوا - بأمر الملك
الصالح - قصورا عظيمة متقنة البناء منيعة الجانب من جزيرة
الروضة بضواحي القاهرة قرب المقياس . وقد زادها مركزها
لبيعي مناعة وجمالا ، لأن النيل يتفرع هناك إلى فرعين . وكان
في نقطة تفرعه ، بالبحر ، لعظم اتساعه . فسمى هؤلاء المماليك ،
بالمماليك البحرية . ومنها اسم تولتهم تمييزا لها عن دولة المماليك
الشرائية ، الآتي ذكرها .

وكانت سطوة المماليك البحرية تنتشر يوما فيوم إلى أن
طمعوا بخلق السلطان وتولى الملك مكانه . فلما تولى الملك المعظم

آخر سلاطين بنى أيوب ، وكان على ما كان عليه من الاستبداد ، أنفت نفوسهم من أعماله فسعوا فيه إلى أن قتلوه .

ولما قُتل الملك المعظم اختلعت الأحزاب فيمن يبايعون بعده وكل فئة منهم تحاول استبقاء الحكم في يدها وتعاضم الخصام فتداركت الأمر شجرة الدر وهي محظية كانت لها منزلة عند الملك المعظم وسائر رجال الدولة فرأت حزب الماليك أعز جانباً من الجميع . وكانت قبلاً قد تواطأت مع أيبك عز الدين وهو من أعظم الأمراء الماليك نفوذاً وبينهما علاقات ودية من أيام الملك الصالح فتمكنت بهذه الصداقة من مبايعة الجميع لها مما لم يسبق له مثيل في الإسلام لكنها لم تستطع استبقاء الحكم في قبضتها أكثر من سنة فخلعها الماليك وولوا أيبك عز الدين المذكور سنة ٦٤٨ وله منازعون ومناظرون . وزاد الأمر إشكالاً تعدى الصليبيين علم دمياط في تلك الأثناء .

وما زالت السيادة تنتقل من واحد إلى آخر منهم حتى أفضت إلى الظاهر بيبرس البندقدارى أعظم سلاطينهم (٦٥٨-٦٧٦ هـ) .

الملك الظاهر بيبرس

وكان الملك الظاهر ملكاً حازماً ، شديد البطش كثير الغزوات ، خفيف الركاب يحب السفر ، وكان مشهوراً بالفروسية

فى الحرب . وله إقدام وعزم على القتال ، وثبات عند اللقاء الجيوش
حتى لقبوه بأبى الفتوح . وكان شعاره الأسد . إشارة إلى
شجاعته.

ومن أعماله الماثورة أنه عمر الحرم النبوى ، وقبة الصخرة
فى بيت المقدس . وزاد فى أوقاف الخليل ، وعمر قناطر شبرامنت
بالجيزة وسور الإسكندرية ومنار رشيد . وردم فم بحر دمياط وعمر
طريقه ، وعمر الشنوائى ، وعمر قلعة دمشق وقلاعا عديدة فى
أنحاء سورية ، وعمر المدرسة بين القصرين فى القاهرة والجامع
الكبير بالحسينية وهو المعروف الآن بجامع الظاهر . وحفر خليج
الإسكندرية القديم وباشره بنفسه . وبنى هناك قرية سماها
الظاهرية . وحفر بحر أشمون طناح ، وجدد الجامع الأزهر
بالقاهرة وأعاد إليه الخطبة . وعمر بلد السعيدية من الشرقية
بمصر . وبنى القصر الأبلق فى دمشق ، وغير ذلك من الآثار
الباقية إلى اليوم .

واشتهر الملك الظاهر بحروبه مع الصليبيين ، فاستولى على
بلاد كثيرة من سوريا وفلسطين وحلب ، وفتح بلاد النوبة وبرقة .
وفى أيامه جاء العباسيون إلى مصر على أثر فرارهم من
بغداد بعد سقوطها بأيدي التتر وقتل الخليفة المستعصم سنة

٦٥٦ هـ ف جاء منهم إلى مصر الإمام أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله . فوصل مصر سنة ٦٥٩ هـ ، فاستقبله الملك الظاهر أحسن استقبال ، وبايعه ، وأثبت نسيبه في مجلس من القضاة والعلماء . وأراد أن يسترجع لهم بغداد ، فأرسل جندا لاستخراجها من سلطة التتر فلم يفلح ، في حديث يطول شرحه ، لكنه أفلح في جعل مصر مقر الخلفاء العباسيين ، وصاروا لا يثبت سلطان منهم على كرسي مصر إلا إذا بايعه الخليفة العباسي بماله من السيادة الدينية .

بقية دولة المماليك الأولى أو البحرية

مات الملك الظاهر سنة ٦٧٦ هـ . وخلفه على الملك ولده بركة خان ثم سلامش . ولم يكرها أهلاً للرئاسة ، فتغلب عليهما وحتى كان على سلامش ، اسمه سيف الدين قلاوون الألفي ، فخلع سلامش ، وتسلم زمام الأحكام ، فبويغ ولقب بالملك المنصور . وكانت مدة حكمه بضع عشرة سنة من ٦٧٨ - ٦٨٩ هـ . وكان حسن الشكل ، ربيع القامة ، قليل الكلام بالعربية . وكان شجاعاً بطلاً مقداماً في الحرب ، مفرماً بشراء المماليك حتى قيل

إنه تكامل عنده ١٢.٠٠٠ مملوك أكثرهم من الشراكسة ، وحارب الصليبيين وغيرهم . وخلف أثارا بناثية لا يزال بعضها قائما إلى اليوم ، منها المارستان المنصوري ، وجامع قلادون في شارع الفحاسين بمصر .

ويبلغ من عنايته بالممالك أنه غير ملابسهم ، والبسهم المخمل الأحمر والأخضر والسمور والفرو ، وكان استكثاره من الممالك الشراكسة ، سببا في خروج السلطة من نسله كما أصاب الملك الصالح باستكثاره من الممالك الأتراك . فتوالى على الملك بعده بعض أولاده وبعض ممالكه الأتراك . ولم يثبت الملك طويلا إلا لابنه الناصر بن قلادون من سنة ٧٠٩ - ٧٤١ هـ ، فخلف أثارا كثيرة ، وحارب حروبا جمة . ومن جملة أثاره مجراة الماء ، والسقايات السبع على حدود مصر القديمة في القاهرة . وتكاثر ممالك الملك الناصر المذكور في أواخر أيامه ، وانتقل الحكم بعده إلى أبنائه الواحد بعد الآخر ، وهم ثمانية ، من سنة ٧٤١ - ٧٦٢ هـ . ومنهم السلطان حسن صاحب الجامع المعروف باسمه في مصر . وانتقل بعدهم إلى جماعة من أهلهم تكما ٢٢ سنة أخرى ، حتى انتقل سنة ٧٨٤ هـ إلى دولة الممالك الشراكسة أو دولة الممالك الثانية .

دولة المماليك الثانية ، أو ، الشراكسة

والمماليك الشراكسة هم مماليك السلطان قلاوون المتقدم ذكره . وهم جنس من أهل آسيا يخالف الأتراك . أصلهم من جهات سيبيريا وتواحي بحيرة «بيقال» . وهاجروا في القرن السادس للميلاد إلى غربي بحر قزوين يحملون من بلادهم للاتجار بهم في أنحاء العالم ، فاقتنى منهم سلطان المماليك البحرية الأخير عدداً وافراً فضلا عن المماليك البحرية اقتداءً بأسلافه . وكانوا يستخدمونهم في مصالح الدولة فارتقوا فيها تبعاً لما خصتهم به الطبيعة من الجمال والذكاء حتى صارت إليهم حماية الحصون والقلاع فجعلوا سكناهم في الأبراج فلقبوا «بالبرجية» وما زالوا يزدادون عدداً وقوة ومنعة حتى تآقت نفوسهم إلى تسلق كرسي الملك يجعلونه إرثاً في نسلهم .

فتمكنوا من ذلك على يد مملوك منهم حازم اسمه برقوق ، وهو ابن مرثد شركسي اسمه أنس . تدرج في مصالح الدولة من أدناها إلى أعلاها يحزمه ودهائه حتى تمكن من تسلق كرسي الملك سنة ٧٨٢ هـ وما زال حاكماً نافذ الكلمة إلى سنة ٨٠١ هـ .

وفي أيامه حمل «تيمورلنك» القائد القترى على العا

الإسلامى حتى هدد حدود سوريا فحمل عليه برقوق فى صفد وأوقفه عند حده .

أول علائق العثمانيين بمصر

وفى أثناء ذلك أفضت سلطنة آل عثمان إلى السلطان بايازيد فى آسيا الصغرى . وقد طمع بمصر فجاء تيمورلنك لينازعه عليها وعلى مصر ، فبعث كل منها وفدا إلى القاهرة . فطلب وفد بايازيد إلى برقوق أن يعاهده على السلم ، وإلى الخليفة العباسى المقيم فى القاهرة أن يقر بايازيد رسميا على سلطنة الأناضول ، فاجابهم إلى ما طلبوه .

أما وفد تيمورلنك فأتخذوا خطة أخرى لأنهم استعملوا الخشونة والفظاظة فى أقوالهم ومطالبهم ، فطلبوا منه أن يسلم لهم قرا يوسف ، وأحمد بن أويس اللذين قد التجأ إليه . فطيب برقوق خاطرهم وأخذهم بالملاينة فازدادوا فجورا ، فأمر بقتلهم ، فشق ذلك على تيمورلنك ، فساق جيشه وقدم للانتقام فمر بالرها ، وقتل من فيها ، ثم جاء حلب فأنكى فيها ، ثم توقف عن مسيره لغرض فى نفسه يسهل عليه افتتاح مصر . فلم يغفل برقوق عن ذلك ، فأكثر من الجند والسلاح . وتأهب للدفاع أو الهجوم لكنه لم يكد يتم هذه التأهبات حتى أدركته الوفاة .

والسلطان برقوق أعظم سلاطين دولة المماليك الشراكسة أو الثانية وله آثار منها جامع لا يزال يعرف باسمه وكان له ولع خاص باقتناء الأسلحة ، ونظم الجند ، وعين رتبة ، وجعل مناصب الدولة إلى تسعة من كبار الموظفين أكبرهم أتابك العساكر ، فرأس نوبة الأمراء ، فأمير السلاح ، فأمير المجلس ، فأمير الياخور ، فالدوادار ، فرأس النوبة الثاني ، فحاجب الحجاب ، وهو أول من عقد مع العثمانيين صلحاً أو عهداً ، كما رأيت .

وتولى الملك بعده اثنان من أولاده ، الواحد بعد الآخر ، ثم تنازع السيادة مماليك آخرون ، يطول بنا ذكر مدد حكمهم ، أهمهم فيما نحن فيه : الملك الأشرف قايتباي من سنة ٨٧٢-٩٠١ هـ .

تولى الملك والمملكة المصرية في اضطراب . وفي أيامه اقتضت الأحوال أن تتدخل الدولة العثمانية بمصر ، وتعاينها . وذلك أن السلطان محمد الثاني حارب ملك الفرس «أوزون» وتغلب عليه (١) . وكان بين المصريين والفرس تحالف ، ثم ما لبث «قايت

(١) أوزون حسن أو حسن الطويل لم يكن ملك الفرس ، بل كان حاكماً تركمانياً فتح فارس عام ١١٦٧ م . انظر المنجد في الإعلام / ص ١/١٢ ، بيروت ، ط ١٩٨٠ ، ١٠ .

بك» ، أن سمع بعزم السلطان المذكور على فتح «سوريا» سنة ٨٨٥ هـ . ولكن لم يخرج من بر الأناضول حتى دأبته المنية في مدينة «طيفور جابر» . وتخلصم أبناء «بايازيد» (١) ، و «جم» أو «زيم» على الملك ، فشفغلا عن الفتح ، فاغتتم قايت باى تلك الفرصة وانسحب بجيشه إلى مصر .

وما زال الخصام يتعاضم بين ابنى محمد حتى كانت بينهم واقعة «يكى شهر» فانهزم جم حتى أتى مصر ، والتجأ إلى قايت بك ، فأكرم وفادته ، ثم علم أن ذلك الإكرام يهيج حاسة الانتقام في بايازيد «الثانى» فقال فى نفسه : «إذا كان لا بد من محاربة العثمانيين فلنكن مهاجمين أولى من أن نكون مدافعين» فجعل يناوىء الأتراك ويقطع السبل على قوافلهم الناقلة الحجاج إلى الحرمين حتى قبض على وفد هندى مرسل فى مهمة سياسية إلى بايازيد . واستولى على «أدنة» و «ترسوس» وكانتا فى حوزة العثمانيين .

أما بايازيد فكان واقفا بالمرصاد ينتحل حجة لمهاجمة المصريين فجاءت تلك الإجراءات طينة على عجيبة ، إلا أنه رأى أن أتيتهم من باب الحزم فأنفذ إليهم رسلاً فى طلب التعويض عما

(١) الأصل بايزيد .

سببوه من الخسائر والأضرار . فأرجع «قايت باي» الرسل
وبعث يهاجم الجيوش العثمانية ، فقاومت أشد المقاومة ،
وأرجعت جيشه إلى ملاطية ، فأنجدهم «قايت باي» بخمسة آلاف
رجل فعادوا إلى العثمانيين وهم في مضائق الجبال ،
فهمجوا عليهم بغتة ، وذبحوا منهم عدداً كبيراً ، وفر الباقون
وتحصنوا في «ترسوس» و «أدنة» ، فأنفذ جيشاً كبيراً تحت قيادة
صهره أحمد ، وهو ابن أمير البوسنة ، فلما وصل إلى معسكر
الأزبكي ، اقتتل الجيشان فهجم أحمد هجمة قوية ، لكن رجاله لم
يستطيعوا الثبات ، ففازت الجيوش المصرية ، وأسر أحمد بعد أن
جاهد جهاداً حسناً ، فعاد الأزبكي بأسيره إلى مصر ظافراً ،
فبنى جامعاً المشهور المعروف بجامع الأزبكية ، وكانت في أيامه
بركة يتجمع إليها الماء أيام الفيضان وهي التي هارت الآن حديقة
الأزبكية .

فلما بلغ بايازيد ما كان من انكسار جيوشه ، استشاط
غضباً ، وجند جنداً كبيراً جعله تحت قيادة «علي باشا» لمحاربة
المصريين . فسارت تلك الحملة من الأستانة فعبرت البوسفور في ٢
ربيع آخر سنة ٨٩٢ ، ونزلت قَرَمَان . فاتصل خبرها بقايت بك ،
فأوجس خيفة فعمد إلى المصالحة . فأنفذ إلى بايزيد صهره أحمد

واسطة لعقد شروط الصلح ، فرفض بايزيد ذلك رفضاً باتاً ، وسار حتى التقى بالمصريين في «أدنة» و«ترسوس» فحاربهم وفاز عليهم ، واسترجع المدينتين الواحدة بعد الأخرى ، بعد أن أهدر دماءً غزيرة ثم سار إلى أرمينيا وأخضعها ، وحاصر عاصمتها ، فافتتحها بعد أن دافعت دفاعاً قوياً ، وأسر حاكمها ، وأرسله بعد ذلك إلى مصر بدلاً من الأمير أحمد ، فبعث قايت باي الأتراكى ثانية لدفع العثمانيين ، فواقعهم في «ترسوس» ، فغلبوه أولاً ثم عاد إليهم وفاز بهم وأعادهم القهقري وعاد إلى القاهرة ظافراً ، فخلع عليه قايت باي ، ثم رأى أن يغتتم كونه ظافراً لمصالحة العثمانيين ، فبعث إلى بايزيد في ذلك لأجابه وطلب إليه أن يتنازل له عن «ترسوس» و«أدنة» وأنه إذا لم يفعل يدعو الناس إلى الجهاد ، فيجتمع تحت لوائه كل من يدعو لآل عثمان ، فيجىء مصر ويفتحها فتحاً مبيناً ، فخاف قايت بك وتنازل من المدينتين اكتفاءً بأهون الشرين وكان ذلك سنة ٨٩٦ هـ . فقايت بك أول من حارب العثمانيين ، وكان عادلاً محبوباً ، وما زال العقلاء الذين عاشروا سائر نولة المماليك يضربون المثل بأيامه ، ويطلبون الرجوع إلى مثلها .

حرب أخرى مع العثمانيين

قنسو (١) الفوري

خلف قايتباي على مصر خمسة سلاطين لم يطل حكمهم أكثر من خمس سنين لاضطراب الأحوال فجاء بعدهم السلطان قنسو الفوري حكم من سنة ٩٠٦ - ٩٢٢ هـ وكان مخلصاً في الحكم وهو صاحب الجامع المعروف باسمه في القاهرة.

ويهمنا هنا أن في أيامه حدث اختلاف آخر بين العثمانيين والمصريين ، وذلك أن كركود أخا السلطان سليم بإيازيد جاء مصر سنة ٩١٨ هـ ، فأراً من أخيه ، وكانا قد تخاضعا على الملك كما حصل بجم وبإيازيد قبلاً ، فرحب قنسو الفوري به ترحاباً عظيماً وجهزه بعشرين بارجة بحرية لافتتاح القسطنطينية ، فذهبت

(١) الصحيح «قانسو» ، وقد أثبت لطق الكلمة بارتولد في مادة قانسو من دائرة المعارف الإسلامية وكذلك بسيم دار قوت في ترجمته وأضافته مادة قانسو إلى اللغة التركية انظر الترجمة التركية لدائرة المعارف الإسلامية ج ٦ مادة قانسو .

العمارة غنيمة لمراكب «أورشليم» في البحر المتوسط ولم تكن النتيجة إلا إثارة غضب السلطان سليم على مصر فجهز إليها ، وأبتدأ بفتح الحدود السورية وأرسل إلى مصر رسائل التهديد ، فاتحد الغوري مع ملك الفرس اسماعيل شاه على قهر العثمانيين ، وكان الفرس في حرب معهم وسنعود إلى تفصيل ذلك إلا أن الجيوش العثمانية لم تبال بكثرة العدد فشلت الجيوش وأي تشتيت ، فعمد قنسو الغوري إلى مخابرة العثمانيين بأمر الصلح على أي وجه كان ، وبعث إلى السلطان سليم بذلك فسارت الرسل إلى السلطان سليم فخرؤا ساجدين وخاطبوه بأمر الصلح فقال لهم وقد استشاط غيظاً «لقد فات الأوان ، انهضوا وارجعوا إلى سلطانكم وقولوا له ، إن الرجل لا تعثر بحجر واحد مرتين ، وما إنى ذاهب إلى القاهرة فيستعد للدفاع إن كان له أهلاء ، فمادوا وأخبروا بما كان ، فجمع قنسو رجاله وزحف للملاقاة الجيوش العثمانية فالتقى بها في «مرج دابق» قرب حلب فانتشبت الحرب هناك وأظهر الغوري بسالة وثباتاً عظيمين حتى أوشكت رجاله أن تستظهر ، فمنعتها مدافع العثمانيين من ذلك ولم يكن للمصريين مثل ذلك السلاح فتشوش نظامهم ووقع الرعب في قلوبهم ، وانحاز قائدا جناحيهم إلى العثمانيين وكان الغوري قائدا

لقلب الجيش فاضطر إلى الفرار ، فحوّل شكيمه جواده ، فسقط عنه لشدة الازدحام وقتل تحت أرجل الخيل سنة ٩٢٢ هـ .

آخر السلاطين المماليك

فخلفه الملك «الأشرف طومان باي» ابن أخيه ، وفي أيامه فتح السلطان سليم مصر وصارت عثمانية ، ولم يتم طومان باي سنة في حكمه ، وقبل التقدم إلى تفصيل ذلك الفتح ، نأتى بفذلكة عن تاريخ الدولة العثمانية إلى سنة الفتح فنقول :

الدولة العثمانية

هي دولة تركية لكنها تختلف عن دولة المماليك التركية (الأولى) المتقدم ذكرها أن أصحابها لم يكونوا من المماليك بل هم قوم أحرار أهل سيادة ، جاءوا فاتحين - وقد نشأت في الإسلام عدة دول تركية منها أربع دول نشأت وانقرضت في أيام العباسيين قبل سقوط بغداد ، وكان منسوها في الغالب عمالاً للعباسيين في بعض الولايات ثم استقلوا وهي : الدولة الطولونية والايكية والإخشيدية والغزنوية ، وليس في الدول التركية دولة كان أصحابها أهل سيادة في بلادهم وجاءوا المملكة الإسلامية فاتحين إلا السلاجقة والعثمانيين .

أما دولة السلاجقة فمؤسسها أمير تركي كان في خدمة بعض خانات تركستان فعلم باختلال المملكة العباسية ، فطمع بها وعلم أنه لا يبلغ ذلك وهو على غير دين الإسلام ، فأسلم هو وقبيلته وسائر جنده ورجال عصبية دفعة واحدة (١) ، ونهض بجميع هؤلاء من تركستان وساروا غرباً فقطعوا نهر جيحون وتدرجوا في الفتح ونشر السيادة حتى اكتسحوا المملكة العباسية ، وامتد سلطانهم من أفغانستان إلى البحر الأبيض وكانت لهم بعد ذلك دولة عريضة تفرعت إلى خمسة فروع لا محل لذكرها هنا ، ولما شاخت دولتهم ، افضت المملكة إلى مماليكهم ، ويسمونهم الأتابكة ، واحد منهم «إتابك» فتفرعت المملكة السلجوقية بهم عشر ممالك ، وبقي من السلاجقة فرع عُرِف بالسلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، تفرع إلى ثمانى إمارات أخذها منهم العثمانيون ، وأقاموا دولتهم على أنقاضها كما سيجي .

والعثمانيون شأنهم في تأسيس دولتهم مثل شأن

(١) يقصد جرجي زيدان هنا ، سلجوق بن دقاق وهو مؤسس دولة السلاجقة . وكان إسلامه نتيجة التفاهة بالاثراك المسلمين في جند رابيس طمعا في دولة ، انظر إبراهيم قنص أولغر ، مادة السلاجقة ، دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة التركية ج ١٠ ، استانبول ١٩٦٧ .

السلجقة ، فإنهم جاؤا من تركستان وهم أهل دولة وأصلهم من التتر الذين يقطنون ما يجاور جبال التاي عند حدود الصين الشمالية ، ويغلب على الظن أنهم الإسكتيون المعروفون قديما بالشجاعة وشدة البأس ، ويقال إن جماعة منهم ينتسبون إلى جد يقال له «ترك» نزلوا غربا في القرن الأول للميلاد ، وأقاموا فيما هو الآن تركستان ، وهي مشهورة بجودة الإقليم وخصب المرى وجمال المكان وقوة الأبدان (١) .

وما استتب لهم المقام هناك حتى أختلوا بمسجون سلطتهم وهم لا يزالون في حال الجاهلية ، ولم يعتنقوا الإسلام إلا في أواسط القرن الرابع للهجرة وأشهرهم طائفتان ، إحداهما السلجقة المتقدم ذكرهم . وقتلنا إن منهم فرعاً ظل سائدا في آسيا الصغرى إلى أواخر القرن السابع للهجرة ، وسلطانه يومئذ علاء الدين كيقيباد الثاني ، تولى الملك سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦) م .

أما الأغوزية فما زالوا مقيمين في تركستان حتى ظهر

(١) لم يذكر المؤلف مصدره في أن للكراك جدا يسمى ترك . انظر معاني كلمة ترك ، جاجاتاي اولوچاي ، دائرة معارف التاريخ (بالتركية) مادة ترك ، دار بانك ، استانبول ١٩٦٩ .

جنكيزخان القائد المغولي وغزا قبائل تلك البلاد ، فأذعنوا له
إلا الأوغوزية فإنهم هاجروا بقيادة أمير يدعى سليمان يطلبون
مقاما ومرعى لماشيئتها ، وما زالو يسIRON غربا حتى حدث وهم
يعبرون الفرات أن أميرهم سقط بجواده في النهر ومات ، فدفنوه
هناك وهو جد السلطان عثمان مؤسس هذه الدولة فأصبحوا بعده
جماعات متفرقة ، فاتخذ ابنه أرطغرل قيادة جماعة منهم وسار بهم
يخترق آسيا الصغرى ، وهو في بعض السهول شاهد أرطغرل عن
بعد غباراً متصاعدا وحريا قائمة ، فتقدم على نية الانتصار
لأضعف الفئتين المتحاربتين ، ففعل وهو لا يدري لمن ينتصر ،
فقيض الله النصر له ، وتقهقرت الفئة الأخرى ثم علم أنه انتصر
للسلاجوقيين وهو المغوليين ، فشكر الله على ذلك .

فقال منزلة رفيعة لدى علاء الدين السلجوقي^(١) ، فأقطعته بقعة
كبيرة يقيم فيها برجاله على حدود فريجيا وبيثينا فكانت أرضا
خصيبة ذات مرعى حسن - وفي تلك البقعة نشأ ابنه عثمان .
وشب وترعرع ومازال أرطغرل تحت رعاية علاء الدين حتى
توفي فخلفه ابنه عثمان .^(٢)

(١) علاء الدين السلجوقي أرعلاء الدين كيلباد ١٢١٩ - ١٢٣٧ .

(٢) في المخطوطة صورة السلطان عثمان الثاني .

ثم توفي علاء الدين فاقْتَسَمَ أمراءه مملكته ، فاستقل عثمان بما لديه سنة ١٣٠٠ م وهو أول أمراء آل عثمان .

ومن التقاليد الماثورة بين العثمانيين ، أن عثمان هذا عشيق وهو شاب فتاة تُدعى «مال خاتون» وكان والدها شيخاً تقياً ورعاً طاعناً في السن اسمه أدبالي ، فلما شعر بمحبة عثمان لابنته ، خاف العاقبة وصار يحاول إبعادهما الواحد عن الآخر ، وبالف في حجاب ابنته لأنه لم يكن يطمع بمصاهرة ابن حاكمه (١) .

فجاء عثمان ذات ليلة ليبيت في منزل أدبالي وقضى معظم الليل هاجاً بحبيته (٢) حتى غلب عليه النعاس ، فرأى في الحلم كأن القمر خارج من صدر أدبالي ، ثم رآه يتسع بسرعة حتى غطى كل ما كان واقفاً تحت نظره من الأرض ، ثم أخذ فر النقلص حتى عاد إلى حججه الأول ، وارتد إلى صدر أدبالي كما

(١) هذه الفقرة روائية أدبية تختلط فيها الرواية بالتاريخ .

(٢) يذكر محمد فريد الواقعة كالآتي : (أنه رأى القمر سعد من صدر هذا الشيخ وبعد أن صار بديراً نزل في صدره - أي في صدر عثمان - ثم خرجت من صلبه شجرة نمت في الحال حتى شملت الأكران بظلها ، ونظر اكبر الجبال تحتها ، وخرج النيل والنجلة والفرات والعلوة من جذعها ورأى رزق هذه الشجرة كالسيوف يحولها الريح نحو مدينة القسطنطينية . تاريخ الدولة العلية العثمانية . محمد فريد ص ١١٦ ط ٢ ١٩٨٣ م .

كان ، ثم رأى شجرة عظيمة خارجة من صلب أدبالي ، وأخذ ظلها
يمتد حتى غطى البر والبحر وتراعى له أن أنهر دجلة والفرات
والطوتة والنيل خارجة من أصل تلك الشجرة . وجبال قوقاس (١)
وأطلس وطوروس وهيموس تستظل بأغصانها . ورأى أوراقها
تستطيل وتسترق حتى صارت كالسيوف ورؤوسها مصوية إلى
أشهر عواصم العالم ، خصوصاً القسطنطينية الواقعة في ملتقى
القارتين ومجمع البحرين . وخيل له أنها جوهرة بين زمرتين
وياقوتتين مصطنعة في فص خاتم وأنه أهم أن يجعل ذلك الخاتم
في أصبعه . فاستيقظ مبغوتاً ، فأخبر أدبالي في الصباح بما
كان ، فاستبشر بما سيكون من مستقبل ذلك الشاب ، وأنه سيمتلك
القسطنطينية .

وما انك خلفاء عثمان كلما اتسع سلطانهم يزدادون ثقة
بمال ذلك الحلم ، وقد حاول بعضهم فتح القسطنطينية ، فرجع ولم
ينل وط (٢) ، حتى ظهر محمد الفاتح (٣) السابع من سلاطين آل
عثمان ، وبينه وبين صاحب الحلم نحو ١٦٠ سنة ، ففتحها بعد أن
يئس المسلمون من فتحها .

(١) المؤلف يقصد القوقاز ويكتب على وجهين : «القوقاز» و«قلقاسيا» .

(٢) المؤلف يقصد هنا سلطان بيازيد الثاني : ١٤٤٧ - ١٥١٢ م .

(٣) في المخطوط صورة للسلطان محمد الفاتح .

وحارب العثمانيون أعظم ملوك أوروبا ، وطاردوهم إلى بلاد
المجر ، وحاصروا فيينا عاصمة النمسا ، وأخذوا الجزية من
الارشيبيوق فردينان ، واكتسحوا البحر الأبيض إلى شواطئ
آسيا ، ووجهوا مطامعهم من الجهة الأخرى نحو الشرق ففتحوا
العراق والشام ومصر على يد السلطان سليم الفاتح الذي نحن في
صدده .

الإنكشارية

وقد تمكن العثمانيون من هذه الفتوح العظيمة بواسطة
الإنكشارية وهم جند أنشاء العثمانيون على شكل خاص لم يسبق
له مثيل ؛ لخلوه من عصبية تبعثه على التمرد ، لأنه مؤلف من
الغلمان الذين كان العثمانيون يأسرونهم في الحرب وأكثرهم من
أصل مسيحي . فكان العثمانيون في أول دولتهم إذا فتحوا بلداً
دخل في حوزتهم من أهل المأسورين جماعة من غلمان النصارى
الذين قتل آبائهم وأصبحوا لا نصير لهم ، ولا مرجع لمالكهم ،
فارتأى قرة خليل وزير السلطان أورخان ثانى سلاطين آل عثمان
(سنة ٧٢٦ - ٧٦١ هـ) أن يربى أولئك الغلمان تربية إسلامية
ويدربهم على الفنون الحربية ، ويجعلهم جنداً دائماً لا يخشى منه
التمرد ، لأنه لا يعرف عصبية غير الدولة ، ولا عملاً غير الجندية ،

ولا ديناً غير الإسلام ، فجندهم وسار بهم إلى الحاج بكطاش شيخ
طريقة البكطاشية بأماسيا ، ليدعو لهم فدعا لهم وسماهم «يكي
جرى» أى الجند الجديد .

ولم يكن قره خليل هذا أول من فكر فى تجنيد غلمان
النصارى كما يظن أكثر مؤرخى الأتراك ، فإن الملك الظاهر بيبرس
صاحب مصر الذى تقدم ذكره ، فعل ذلك قبل تأسيس الدولة
العثمانية وهو متوجه إلى دمشق سنة ٦٦٥ هـ لملاقاة عساكره
العائدة من غزوة بلاد سبيس ، فنزل بهذا اسمه قارا بين دمشق
وحمص ، فأمر بنهب أهلها النصارى وقتل كبارهم لأنهم كانوا
يسرقون المسلمين ويبيعونهم سراً للصليبيين وأخذ صبيانهم ممالك
رباهم بين الأتراك فى الديار المصرية ، فنشأوا على الإسلام
وتجنّدوا فى الجيش التركى .

على أن قره خليل جعل للإنكشارية شروطاً لم يسبق لها
مثيل ، فقسّمهم إلى وجاقات واحداً وجاق ، والوجاق يقسم إلى
أورط إحداها أورطة ، ولكل أورطة عدد تعرف به ، وبعضها أسماء
خاصة ، ويختلف عدد الجند فى كل أورطة حسب العصر من ١٠٠
إلى ٥٠٠ ، ويختلف عدد الأورط فى الوجاقات بمقتضى ذلك ،
كبر ضباط الوجاق أو قائدها الأكبر يُسمى «أغاء» تحته سكان
بُنى ، تحته غيره فغيره على هذه الصورة .

الأغا : قائد الوجداق ويقابل اللواء فى هذه الأيام (١) .
سكبان باشى : ينوب عن الأغا فى الاستانة ويقابل .
القائمقام اليوم .

قول كخيا أو كخيا بك : نائب الأغا أو السكبان باشى .
سمسوتجى باشى : قائد أورطة نمرى ٧١ .
زغرجى باشى : قائد الأورطة نمرى ٦٤ .
محضر أغا : ينوب عن الإنكشارية عند الصدر الأعظم .
خصكى : ينوب عن الأغا فى القيادة على الحدود .
باشجاويش : قائد الأورطة الخامسة .
كخيابرى : ينوب عن الوجداق لدى الأغا .
الأغندى : الكساتب .

ولكل أورطة ضباط يقتسمون قيادتها وإدارة شئونها على
هذه الصورة :

- ١ - الجوريجى : رئيس الأورطة يشبه الكولونيل .
- ٢ - أوده باشى : نائب الجوريجى فى المناورات العسكرية .
- ٣ - وكيل الخرج : يتولى أمر الطعام والشراب .
- ٤ - بيراقسدار : يتولى الاعلام والبيارق .

(١) يقصد المؤلف العهد الذى عاشه .

٥ - باش اسكى : يتولى قيادته القراقولات .

٦ - اشجى : الطاهر (١) .

قوانين الإنكشارية

قد رأيت أن جند الإنكشارية تجند فى زمن السلطان أورخان ولكن الفضل الأكبر فى تنظيمه وترتيبه يرجع إلى السلطان مراد الأول (تولى سنة ٧٦١ هـ) وهذه خلاصة قوانينهم :

١ - الطاعة العمياء لقوادهم وضباطهم أو من ينوب عنهم.

٢ - تبادل الاتحاد بين الفرق كأنها فرقة واحدة وتكون مساكنها متقاربة .

٣ - التجافى عن كل مالا يليق بالجندى الباسل من الإسراف أو لانغماس ويكون مسؤولهم (٢) على البساطة فى كل شيء

٤ - الإخلاص فى الانتماء إلى الحاج بكطاش من حيث الطريقة مع القيام بفروض الإسلام .

٥ - لا يقبل فى سلك الإنكشارية إلا الذين يشبون من غلمان الأسر على التربية الخاصة بين غلمان الأعاجم .

(١) فى المخطوط محورة توزيع الشرباء على الإنكشارية .

(٢) مكثا فى الأصل . والمفترض أن الكلمة التى تستقيم مع المعنى هى : يكون م على البساطة ...

- ٦ - إن الحكم عليهم بالإعدام ينفذ بشكل خاص .
- ٧ - يكون الترقى فى المراتب حسب الأقدمية .
- ٨ - لا يجوز أن يوبخ الإنكشارية ولا يعاقبهم غير ضباطهم .
- ٩ - إذا عجز أحدهم عن العمل يحال على المعاش .
- ١٠ - لا يجوز لهم إرسال لحاهم .
- ١١ - لا يجوز لهم أن يتزوجوا .
- ١٢ - لا يجوز لهم الابتعاد عن ثكناتهم .
- ١٣ - لا يجوز لهم أن يتعاملوا عملا غير الجندية .
- ١٤ - يقضون أوقاتهم بالرياضة البدنية والتمارين على الحركات العسكرية .

فإذا تدبرت هذه القوانين فإن عليك تصور الأعمال العظيمة التى أتتها هذا الجند فى مصلحة الدولة العثمانية من الفتوح العظام .

وقد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ترفع الناس من الانتظام فى هذا الجند لأنه مجموع من لقطاع لا يعرف لأحد منهم أب ولا أم، ولكنك تفهم من البلد الخامس من قرانينهم أنهم كانوا يحظرون على غير اللقيط أو المملوك الانتظام فى جندهم . وكان السلاطين يشددون فى تعظيم هذا الأمر فى عيونهم .

رواتب الإنكشارية (العلوفة)

الأصل في ترتيب العلوفة أن تدفع يومياً ، لكنها لم تكن تدفع إلا مرة كل ثلاثة أشهر ، تخفيفاً للثقله ، فكانوا يؤدونها أربع مرات في السنة ، وتعرف كل مرة باسم مؤلف في ثلاثة أحرف مقتطعة من أسماء أوائل شهورها ، فالربيع الأول من السنة مؤلف من ثلاثة أشهر محرم وصفر وربيع ، فالأحرف الأولى من هذه الأشهر إذا جمعت من هذا الترتيب كانت «مصر» وعلى هذا النسق كانوا يسمون الربيع الثاني رجب ، وقد يقطعون من إسم الشهر غير حرف الأول مراعاة للفظ ، فالربيع الثالث (رجب ، شعبان ، رمضان) يسمونه رشن باقطاع النون من رمضان بدل الراء ، وقس على ذلك . وكانت لهم رسوم في تفريق العلوفة لا محل لها .

أما مقدار العلوفة فقد كان في أول إنشاء هذا الجند درهما واحداً عن كل إنكشاري في اليوم ثم ارتفعت إلى ثلاثة دراهم ، وفي ختام سنة ١٠٠٠ صارت العلوفة خمسة دراهم ، وكان للإنكشارية هدايا ينالونها في الأعياد ، وعند تولية بسلطين يسمى خشش الجلوس وكان هذا البخشش يعطى لسائر الجند ولكبار موظفين ، وله مقادير معينة .

ملابس الإنكشارية

وكان المعول عند العثمانيين في التفريق بين الرتب وتمييز أصحابها بعضهم عن بعض بأشكال القلانس (القاويق) ، أو الأقبية (القفظان) ، أو الأحزمة (الكرم) أو ألوانها فكان لكل طائفة من رجال الدولة قلنسوة شكلها خاص بهم وكذلك الأقبية والأحزمة وغيرها على اختلاف في ألوانها وأشكال أزرارها فضلاً عن الأعلام. واختلف المؤرخون في وصف هذه الألبسة ، واختلفوا في أسمائها وأشكالها باختلاف العصور ، وفي الرسوم المنشورة هنا مثال منها (١) .

السلطان سليم الفاتح

ولد سنة ٨٥٩ هـ وتولى ٩١٨ هـ وفتح مصر سنة ٩٢٣ هـ وتوفي سنة ٩٢٦ هـ .

هو السلطان التاسع من سلاطين آل [عثمان] (٢) وهو أول خليفة منهم لأن السلاطين قبله لم يكونوا خلفاء وهو أول من بويع بالخلافة كما سيجيء وأصبح السلاطين بعده خلفاء أيضاً أي أن كلاً منهم سلطان وخليفة أي له السلطان السياسية والدينية . وبما أنه هو فاتح مصر حق علينا أن نذكر ترجمته .

(١) انظر المصدر بملحق الكتاب .

(٢) سقطت كلمة «عثمان» من المؤلف فوضعتها بالشكل المذكور .

هو ابن السلطان بايزيد الثانى وقد تقدم فى ترجمة قنصو
الغورى أنه تخاصم مع أخيه كركود وفر هذا إلى مصر واحتفى
بسلطانها قنصو . وسبب هذا الخصام أنه كان لبيازيد الثانى
(سنة ٨٨٦ هـ - ٩١٨ هـ) ثمانية أولاد ذكور ، توفى منهم خمسة
ورقى ثلاثة وهم كركود وأحمد وسليم . وكان كركود يحب العلم
ومجالس العلماء ، فمقتته الإنكشارية لأنهم أهل حرب لا رزق لهم
إلا بها ، وكان أحمد محبوباً لدى أعيان الدولة والأمراء . أما سليم
فكان رجل حرب وبطش فأحبه الإنكشارية ونصروه .

ولحظ والدهم اختلافهم فى المشارب والمناقب فخاف
تنازعهم ففرق بينهم فعين كركود والياً على إحدى الولايات البعيدة ،
ولى أحمد على أماسيا وتسليماً على طرابزون وكان لسليم ولد
اسمه سليمان (صار بعد ذلك سليمان القانونى) فعينه جده بايزيد
والياً على وكافاء (١) من بلاد القرم ، فلم يرض سليم بمنصبه فى
طرابزون فتركه وسافر إلى كافا ، وبعث إليه أبيه يطلب إليه أن
يعينه على ولاية فى أوروبا . فلم يقبل السلطان بايزيد ، وأصر على
بقاؤه فى طرابزون ، فجاهر سليم بالعصيان على والده ، وزحف
بجيش جمعه من قبائل التتر إلى بلاد الروملى ، فبعث والده جيشاً

(١) وصحة كتابتها فى لغتها ككّه . المحقق .

لإرهابه ، فلم يتهيب ، فلم ير بايازيد بدأ من مراضاته حقناً للدماء ،
فعينه والياً على مدينتي سمندرية وودين في بلاد البلغار سنة
١٥١١ .

فلما علم كركود بنجاح أخيه أحب أن يقتدى به ، فانتقل
إلى ولاية صاروخان ، وتولاها بدون أمر أبيه ، ليكون قريباً من
القسطنطينية عند الحاجة ، وخرج سليم على أدرة وأعلن نفسه
سلطاناً عليها ، فجرد والده عليه جنداً لمحاربتة ، وجنداً لمحاربة
أخيه كركود في آسيا . ففر سليم إلى بلاد القرم ، وفر كركود
أيضاً ، فأخذ الإنكشارية يناصرون سليماً ، وألجأوا السلطان إلى
العفو عنه ، وإعادةه إلى ولايته في سمندرية ، فلاقاه الإنكشارية في
أثناء الطريق وحملوه إلى القسطنطينية ، وأدخلوه سراي السلطان
باحتفال وطلبوا إلى بايازيد أن يتنازل عن الملك لابنه هذا فأطاع
وترك القسطنطينية ليقضى باقي حياته في ديموتيقا ، فتوفي في
الطريق ، ويظن أن ابنه سليمان دس له السم خوفاً منه .

تولى السلطان سليم العرش العثماني سنة ٩١٨ هـ بقوة
الإنكشارية فوزع فيهم الجوائز ، وعين ابنه سليمان حاكماً على
القسطنطينية وخرج بجيوشه على أخويه وأولاده حتى يهدأ باله
ويستقر له الملك بلا منازع ، فاقتفى أثر أخيه أحمد إلى أنقرة ، فلم

يقدر عليه هناك ، فذهب إلى «بورصة» فقبض فيها على خمسة من أولاد إخوته ، وأمر بقتلهم . ثم شخص إلى «صاروخان» مقر أخيه «كركود» ففر «كركود» إلى الجبال . وما زال يطارده حتى قبض عليه وقتله وعاد إلى أحمد ، فحاربه ، فانهزم فطارده حتى قتل سنة ٩١٩ هـ .

فاطمأن بال سليم من جهته الداخلية ، إذ استقر له الملك بذهاب منازعيه ، ومال إلى المهادنة ، فعد إلى أدنة وكان في انتظاره هناك ، سفراء البندقية والمجر وموسكو ومصر ، فأبرم معهم عهداً على المهادنة لمدة طويلة ، لأن مطامعه كانت متجهة إلى بلاد الفرس ، لمحاربة الشيعة . وكان الفرس في عهد الدولة الصفوية ، وقد أسسها شاه إسماعيل سنة ٩٠٧ هـ ، وفتح شروان واستقر في تبريز ، فجعلها عاصمة مملكته . ثم فتح العراق وخراسان وما وراءها إلى هرات . فغلب على حكامها التيموريين التتر . فامتدت سلطته من نهر الأكسوس إلى خارج فارس ، أي من أفغانستان إلى الفرات ، فخافه العثمانيون ، وهاجت فتوحه مطامعهم وتنبهت الصفائن بين السنة والشيعة ، والعثمانيون حماة لسنة كما كان الصفويون حماة الشيعة .

وكان إسماعيل شاه ، لما تمرد سليم وأخوه أحمد ، على أبيهما ، أخذ يناصر أحمد في عصيانه على أبيه ، ثم على أخيه سليم . وكتب من الجهة الأخرى إلى مصر يطلب محالفتها على العثمانيين عند الحاجة . فبلغ ذلك إلى السلطان سليم ، وهو رجل حرب وبطش . فهاجت مطامعه ، ولم يعد يقنع بغير الفتح والتغلب على الدولتين جميعاً . وأمر بالقبض على من كان في شيعته في حدود مملكته ، وعددهم نحو ٤٠,٠٠٠ وقتلهم . وأعلن شاه إسماعيل بالحرب وخرج بجيوشه من أدرنة في ٢٢ محرم سنة ٩٢٠ (١٩ مارس ١٥١٤م) وعددهم ٤٠,٠٠٠ هاش و ٨٠,٠٠٠ راكب . وجرت بينه وبين الشاه إسماعيل في أثناء مسيره مكاتبات محشوة بالتهديد والوعيد . وجعل السلطان سليم وجهته مدينة تبريز عاصمة الشاه المذكور .

وكانت الجنود الفارسية في أثناء الطريق تتقهقر أمام العثمانيين خداعاً حتى يتبعوهم ، ثم يتقضون عليهم . حتى إذا وصلوا إلى أرباص تبريز ؛ جرت واقعة انتصرت فيها الجنود العثمانية بقيادة «سنان باشا» . وفر الشاه بمن بقي من جنده وخلف وراءه كثيرين من قواده وأهله في الأسر وكان من جملة الأسرى إحدى زوجاته ، فزوجه السلطان سليم من بعض كتابه .

إنتقاماً من الشاه ، وفتحت تبريز أبوابها ، فدخلها الفاتح العثماني ظافراً واستولى على خزائنها ونخائرها وأرسلها إلى القسطنطينية . وفي جملتها عرش مرصع بالماس والياقوت ومطرز بالؤلؤ هو الآن في جملة نخائر آل عثمان في سراي طوب قبر بالآستانة . وقد شاهدته ووضعته في مجلة الهلال السنة ١٨ .

وبعد ثمانية أيام اضطر لإخلاء تبريز لقلة المنونة اللازمة لجنده أخذ في مطاردة الشاه ، ففتح ديار بكر وغيرها ، وأراد الإيفال في بلاد الفرس ، فتوقف الإنكشارية عن ذلك ، وقد ملوا الحرب ، وتعبوا من الأسفار ، فعاد إلى أماسيا للاستراحة في أثناء الشتاء والاستعداد للحرب في أوائل الربيع .

فلما كان الربيع ، استأنف الحملة ، ففتح بعض البلاد ورجع إلى القسطنطينية ، وخلف بعض قواده ، لإتمام الفتح ، وحال وصوله إلى القسطنطينية : حاسب قواد الإنكشارية على توقفهم عن السير في حملته المشار إليها ، وقتل عددا كبيرا منهم ، وقتل قاضي العسكر جعفر جلبي ، لأنه كان من أكبر المسيبين لذلك التمرد . وخاف تمردهم ثانية ، فغير نظام تعيين الرئيس . وكانوا يعينونه من أكبر قوادهم ، فجعل لنفسه الحق في تعيين ذلك الرئيس .

وأما جنوده فإنها واصلت الحرب ، ففتحت مساردين
وأورفه والرقه والموصل ، فتم بذلك فتح ولاية دياريكر ، وخضعت
قبائل الأكراد له ، ولما تأتى له ذلك ، فكر فى فتح مصر انتقاما من
قنسو الغورى على تحالفه مع الشاه إسماعيل وجرت معركة مرج
دابق ، وقتل قنسو الغورى ، كما تقدم ، فحصل على مصر .

كيف كانت مصر لما جاءها السلطان سليم؟

حدثت مصر يومئذ في غاية الإضطراب والتضعف ، وقد
صعدت على رأسها واستفحرت أنفاسها من عهد الغوري ، لأن هذا
مصر - تلك مطبخ عبدة ، غير قلوب الناس عليه ، وهذه
شهادة مورخ معاصر له نفس ابن اياس صاحب كتاب بدائع
الزهر - فقد قال في مساوئ قتل الغوري ما نصه :
« به اقتسوا أحدث في أيام دولته من أنواع المظالم ما لم
يحدث في سائر الدول من قبله ومنها أن معاملته في الذهب
، فضة و هوس الخمد أنحصر المعاملات جميعها زغل ونحاس
شر لا يجرى بها بيع ولا معاملة في ملة من الملل ، ومنها ما قرره
و خمسة من كل شهر ، وهو مبلغ ٢٧٠٠ دينار ، وكانت السوق
بيع الخسائر ما يختاره من الأثمان ، ولا يقدر أحد أن يكلمهم .
فمن كتمهم أحد يقولون عينة مال السلطان فكانت سائر البضائع
في أيامه بحجة سمع ذلك وقرر على دار الضرب مالا له صورة

فى كل شهر فكانوا يضيّفون فى الذهب والفضة النحاس والرصاص جهاراً فكان الأشرفى الذهبى إذا صفى يظهر فيه ذهب يساوى إثنى عشر نصفاً ، وقد سلم السلطان دار الضرب إلى شخص يسمى جمال الدين ، فلعّب بأموال المسلمين وأتلف المعاملة وسبّك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منها دينار ولا درهم ، فلما شتق جمال الدين قرر فى دار الضرب المعلم «يعقوب اليهودى» فمشى فى طريقة جمال الدين ، وقد استباح أموال المسلمين ، فكان النصف القضة ينكشف فى ليلته ويصير فى جملة الفلوس الحمر ، فاستمر الغش فى معاملته فى مدد تولته إلى أن مات .

ومنها أنه كان يولى الكشاف ومشائخ العربان على بلاد المقطعين والأوقاف فيأخذ منهم المثل أمثالاً . فضعف أمر الجند يومئذ وتلاشى حال البلاد الشامية والحلبية . وكان يفرض عليهم الأموال الجزيلة فى كل سنة ، فيأخذونها من الرعية . وزيادة الظلم والعسف فكان كل واحد من الرعية أصحاب الاقطاع والأوقاف يتمنى الرحيل من بلاده إلى غيرها . من عظم الظلم الذى يصيبهم من النواب ، ولا سيما ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذى قرره عليهم لأجل المشاة عند خروج التجريدة فما حصل لأهل

البلاد الشامية بسبب ذلك خير ، وكان حسين نائب جده يأخذ العشر من تجار الهند ، المثل عشرة أمثال . فامتنتعت التجار من دخول بندر جده ، وترك أمره إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات بمصر ، وعز وجود الأصناف التي كانت تجلب من بلاد الإفرنج والارز والأنطاع وخرب البندر ، وكذلك بندر الإسكندرية، وبندر دمياط . فامتنتعت تجار الإفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم وكان كل أحد من أراذل الناس ، يتقرب إلى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم . فقرر على بيع الغلال قدر ما معلوما يؤخذ على كل أردب ، ثلاثة أنصاف من البائع ومن المشتري ، وكذلك على البطيخ والرمان حتى حرج على بيع الملح .

وجدد في أيامه عدة مكوس من هذا النمط . . ولم يفته من أعيان التجار أحد لم يصادره . وصادر أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وأخذ منه مالا له صورة ، ودخل في جملة ديون ، تى أورد ما قرره عليه .

وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال ، فمنهم : «القاضى بدر الدين بن مزهر» كاتب السر . ومنهم : «شمس الدين ابن عوض» ، و «معين الدين بن شمس الدين» ، و «علم الدين» كاتب

الخزانة ، وغير ذلك ، جماعة كثيرة من المباشرين والعمال ، ماتوا
فى سجنه بسبب المال والمصادرات .

ومن أفعاله الشنيعة ، ما فعل مع أولاد الناس من خروج
أقاربهم ، ووزقهم من غير سبب . وإعطاء ذلك إلى معاليكه
الجكبان . ومنها قطع جوامك الضعفاء والأيتام من الرجال والنساء
والصغار . وحصل لهم الضرر الشامل ، بسبب ذلك .

ومنها أنه أرسل فكَّ الرخام الذى بقاعة ناظر الخاص
يوسف ، التى تسمى نصف الدنيا ، ووضع ذلك الرخام فى قاعة
البيسرية التى فى القلعة .

ومنها أنه قطع معتاد الناس فى الديوان المقرر من قديم
الزمان ، وجدد أخذ الحمایات من المقطعين من قبل أن يزيد النيل
وتزدع الأراضى .

ثم تزايد حرصه على جمع الدنيا حتى صار يحاسب
السواقين ، الذين فى سواقى القلعة والخولة الذين فى سواقى
الميدان فى الجلة وروث الأبقار ، وما يتحصل كل يوم مما يبيعونه
وقرر عليهم مبلغا يؤدونه للذخيرة الشريفة .

وكانت أرباب الوظائف من المباشرين والعمال منه فى غاية
الضيق ، لا يغفل عنهم من المصادرات يوماً واحداً . وكان من حين

توفى الأمير خ^١ أير بك الخازندار بياشرض^٢ ببط الخزانة بنفسه ،
ما يدخل إليها ، وما يخرج منها ، وما يعرضون عليه من الأمور
فى ذلك جميعه ، من الوص^٣ ولات ، وما يصرف من الخزائن فى
كل يوم .

وكانت هذه الأموال العظيمة ، التى تدخل له ، يصرفها فى
عمائر ليس بها نفع للمسلمين ، ويرزقها الحيطان والسقوف
بالذهب ، وهذا عين الإسراف لبیت مال المسلمين .
وكان يهرب من المحاكمات ، كما يهرب الصغیر من الكتب ،
وما كانت له محاكمة تخرج على وجه مرض ، بل على أمور
مستقبحة ، وكان يتغافل عن أمر القتل ، ويدفعهم إلى الشرع ،
ويضيع حقوق الناس عليها .

وكان يكسل عن علامة المراسيم ، فلا يعلم على المراسيم
الا قليلا . فتعطل اشغال الناس بسبب ذلك ، حتى كانت تشتري
لعلامة العتيقة بأشرفى حتى تلصق على المرسوم ، لأجل قضاء
الحوائج ، ولو شرحنا مساوئه كلها ، لطال الشرح (١) ، انتهى .

(١) رجع المؤلف إلى ابن اياس ، انظر الطبعة المحققة : ابن اياس «بدائع الزهور»
فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٨٤م الطبعة الثالثة صفحات
٨٩-٩٢ ج ٥ .

سلطنة الأشرف طومان باي

تلك حال مصر في زمن «قنبر الغوري» ثم أقضى عرشها إلى الأشرف طومان باي سنة ٩٢٢ هـ . وكانت سيادة المماليك منتشرة يومئذ على مصر ، وسوريا إلى حدود العراق . وكانت الخلافة العباسية . قد أقضت إلى المتوكل على الله محمد بن المستنك بالله يعقوب . وكانت مناصب الدولة الكبرى ، التي تقدم ذكرها يشغلها الأمراء الآتية اسمائهم :

الأتايفكي سودو العجمي : أمير السلاح

الأمير أركماس بن طراياي : أمير المجلس

المقر الناصر بن محمد : أمير ياخور (١)

الأمير سولون النوادر : رأس النوبة

الأمير انسباي بن مصطفى : حاجب الحُجَّاب

فضلاً عن بضعة عشر أميراً من القواد ، وناهيك بالأمراء

القواب في البلاد الشامية والحلبية وهم عديدون .

وقد تقدم أن جند مصر معظمه من المماليك المبتاعين بالمال .

(١) الأصل فيها أمير اخور وهو أمير المزارع المتوكل بملك القواب . تاريخ

الجبرتي ج١ ص ١٠٦١ .

فهم إنما يعملون طمعاً بالكسب الشخصى ، وليس لأحد منهم عائلة أو أسرة ، يغار على وطنه من أجلها إلا نادراً (١) .

فلما قتل الغورى فى معركة «مرج دابق» التقف أكبر رجاله حول السلطان سليم ، وصاروا من أتباعه ، واختلوا يتقربون إليه بذكر مساوىء مولاهم وأمرانهم ويظهرون له معائبهم وقبائحهم ، ولم يذكروا شيئاً من إحسان الغورى إليهم . وبعضهم خانه فى حياته ، فإن نائب قلعة حلب سلم القلعة للعثمانيين من غير حرب .

أما سائر الجند والأمراء فهربوا إلى مصر ، وحال وصولهم طلبوا تعيين «طومان باى» سلطاناً محل عمه «الغورى» ، فامتنع لأنه كان لا يعجبه تصرفهم فى الرعايا على نحو ما تقدم عن أعمال الغورى ، ولم يكن «طومان باى» ممن يرضى بذلك ، فالتحا عليه أن يقبل ذلك المنصب ، فاصطحبهم إلى الشيخ أبى السعود ، وهو من أهل الكرامة ، فأحضر لهم مصحفاً ، وحلف الأمراء الذين حضروا بصحبة طومان باى ، بأنهم إذا سلطنوه ، لا يخونونه ، ولا يغدرون به ، ولا يخامرون عليه . وأنهم يرضون بقوله وفعله . فحلف للجميع على ذلك ثم أن الشيخ حلفهم أن لا يعودوا إلى

(١) مع أن من المعروف أن المماليك أبلوا بلاء حسناً فى الدفاع عن مصر والوفاء

التاريخية كثيرة ولم يقصروا على ذلك .

ما كانوا عليه من ظلم الرعايا ، وأن لا يشوشوا على أحد بغير طريق شرعى ، ولا يجددوا مظلمة ، وأن يبطلوا جميع ما أحدثه الغورى من المظالم ، ويبطلوا ما كانت على الدكاكين من المشاهدة والمجامعة . وأن يجرؤا الأمور كما كانت فى أيام الأشرف قايدباي ، فحلفوا له وانفض المجلس (١) .

فتولى «طومان باي» سلطنة مصر رغم إرادته وهو يرى ما كانت عليه من الفساد والخلل ، وما استولى على الرعايا من اليأس على أثر مظالم عمه الغورى التى ذكرناها . وكان من بين ما احتج عليهم به ، أن بيت المال ليس فيه درهم ولا دينار . قال : «فإذا تسلطنت من أين أنفق على الجند» وهو يخاف أن لا يطيعه الأمراء فى محاربة العثمانيين ، لكنهم ما زالوا عليه حتى بايعوه كما تقدم . ودفعوا له بخلمة السلطنة ، وهى يومئذ الجبة السوداء والعمامة السوداء والسيف البداوى (٢) . ثم قدموا له فرس النوبة بغير كنزوش ولا سرج ذهب ، ولا وجدوا آله فى الزبدخانات . لاقيمة (٣) ولا طيراً ، ولا الغواشى الذهب . ولكنهم أتموا الاحتفال بالبيعة تلك

(١) ينقل المؤلف هنا من ابن اياس ص ١٠٢ ، ١٠٤ ج ٥ .

(٢) يمكن قراءتها أيضاً على شكل «بهاى» .

(٣) يمكن قراءتها فى النص على شكل «قيه» لكنها فى الأصل قبه . انظر رد

طومان باي ، فى ابن اياس ج ٥ ص ١٠٥ .

كانت حال المصريين لما جاءهم السلطان سليم لفتح بلادهم .
ولكن «طومان باي» كان حازماً عاقلاً ، فلما حكم عليه أن
يكون سلطاناً لم ير بداً من الثبات والصبر وأخذ في رد المظالم
وإصلاح الأحوال ، ولكن بعد فوات الفرصة ، على أنه أخذ في
إعداد حملة أخرى لمحاربة العثمانيين .

فتح العثمانيين مصر سنة ٩٢٢ هـ

المعركة الفاصلة بين الجيشين

كان العثمانيون في سوريا قد توقفوا للاستراحة ، فظن
«طومان باي» أن الرمال المتراكمة بين سوريا ومصر ، تحول بين
العثمانيين وما يريدون . إلا أن الأمر لم يكن كما ظن ، لأنه لم يكد
تم إعداداته حتى أتاه كتاب السلطان سليم إلى القاهرة ، وهذا
نصه :

«من السلطان سليم خان بن السلطان بايزيرخان سلطان
البرين وخابان البحرين السلطان إلخ . إلى طومان باي
الشركسي: «الحمد لله . أما بعد . فقد تمت إرادتنا الشاهانية ،
بإد إسماعيل شاه الخارجي ، أما قنسو الكافر ، الذي حملته
تحه على مناوأة الحجاج ، فقد نال جزاءه منا . ولم يبق لدينا إلا
نتخلص منك فإنك جار «عدو» ولله سبحانه وتعالى يساعدنا على

معاقبك ، فإذا أردت اكتساب رحمتنا الشاهانية اخطب لنا ،
واضرب النقود باسمنا . وتعال إلى أعتابنا واقسم على طاعتنا
والإخلاص لنا وإلا ... » .

فلما قرأ طومان باي الكتاب ، وما في ذيله من التهديد
المستتر ، استشاط غيظا . وأصر على المقاومة . وكان عالماً بمجزءه ،
لكنه فضل الموت في ساحة الحرب على التسليم ، فزاد في حصون
دمياط وغيرها من الحدود السورية ، وجمع ما أمكنه جمعه من
الرجال ، وسار للقاء العثمانيين حتى أتى الصالحية فحسكر
هناك .

أما السلطان سليم ، فسار إلى مرج دابق وافتتح غزة
والعريش والقطيعة ، ثم علم مقر الجيوش المصرية في الصالحية ،
وما هم فيه من العزم على المدافعة بشدة بأس ، فعرج بجيشه
تاركاً الصالحية عن يمينه . وسار حتى أتى الخانكاه على بضعة
ساعات من القاهرة .

فلما بلغ «طومان باي» تقدم العثمانيين إلى هذا القدر ، عاد
بجيشه لمهاجمتهم من وراء . فالتقى الجيشان في سهل قرب
«بركة الحج» يوم الجمعة في ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢ هـ . واقتتلا
طويلا ، والمصريون يحاربون ببسالة شديدة . لكنهم لم يكونوا

يعرفون البارود ولا المدافع كما قدمنا ، ولا يعرفون استخدامها . فكانت القلعة للعثمانيين . ففر المصريون إلى القاهرة ، وعسكر العثمانيون في الروضة . فجمع إليه «طومان باي» عددا كبيرا من العربان ، بعد أن أرضاهم بالمال ، وهجم على معسكر السلطان هجمة اليأس فلم ينل منهم وطراً . فعاد إلى القاهرة على نية مواجهة الحصار ، فزاد في حصونها واستحكامها . وحصن القلعة تحصيناً عظيماً ، وأقام في كل شارع وفي كل بيت طابعية للدفاع ، وحمل السلاح كل من يستطيع حمله للدفاع عن الوطن ولكن رغم هذه الإعدادات ، وما أظهره «طومان» من البسالة والإقدام ، وما سعى فيه أمراؤه ، لم تنج القاهرة من أيدي العثمانيين ، فإنهم دخلوها عنوة وأمعنوا فيها قتلاً ونهباً وحرقاً .

لا غرو إذا غلبت المعاليك على أمرهم بعد ما علمت من اضطراب أحوالهم وتغير قلوبهم ، وخلو خزائنتهم من المال . فالعسكر كيف يحارب بلا مال ؟ فقد كانوا في الحرب يأتون إلى القلعة للاستيلاء على جامكيتهم فيجيبهم ولادة الأمر «ليس في هذا اليوم جامكية لأن البلاد خراب والعرب مشتتة في الطرقات» (١) .

(١) ينقل المؤلف هذه العبارة من ابن آياس ص ١٤٦ ج ٥ ؛ وأصلها في ابن آياس يا أغوات ما فيها اليوم جامكية، البلاد خراب والعرب مشتتة في الطرقات ، نفس المصدر والصفحة .

وكان لهم ستة أشهر لم يقبضوا ، رواتبهم من اللحم وتحوه ، ومن أسباب الكسرة ، أن جند المغاربة الذين كانوا في مصر ، توقفوا عن المحاربة ، وقالوا نحن لا نحارب المسلمين ، لا نحارب إلا الإفرنج .

ومع ذلك فإن «طومان باي» لم يأل جهدا في ترغيب الجند في الاتحاد والدفاع عن الوطن وشدد عزيمتهم وسبك مناصل ، وعمل بندق الرصاص ، وأكثر من الرماة .

ولكن الرعب كان سائدا على أهل القاهرة ، وعلى الجند وهؤلاء إنما خرجوا للحرب لأن السلطان كان يجاهد بنفسه ، حتى في بناء الاستحكامات ، وكان يحمل حجارة بيده لبناء خطوط النار أو حفر الخنادق .

على أن جماعة من رجاله ، انحازوا سرا إلى العثمانيين وأهمهم خايربك صاحب حلب الذي تقدم أنه قامر على الغور فكان عوناً للعثمانيين ، ودسياسة لهم عند المصريين (١) . وزد على ذلك أن المماليك كانوا في عصر الانحلال ، والعثمانيون في أوائل دولتهم ، وقد جاءوا بالمدافع والبارود (٢) ، «طومان باي» جاء

(١) يقصد المماليك .

(٢) كان لدى المماليك مدافع وبارود أيضا في ذلك الوقت لكن التعميم العلمي العسكري لدى العثمانيين كان أكثر. انظر : الدكتور محمد حرب . العثمانيون في التاريخ والحضارة ص ٤١٩ دمشق ١٩٨٩ م .

متأخرا ، وقد فسدت الأمور ، فلم يستطع اصلاح شيء ، رغم مي
الشديد إلى ذلك . وشدة إخلاصه في الدفاع عن الدولة والوطن
وشأنه في ذلك شأن «مروان بن محمد» آخر خلفاء بني أمية فإ
كان حازماً ، شجاعاً ، حسن النية . لكنه جاء متأخرا فلم يمد
سقوط دولة بني أمية ولا منع طومان باي سقوط دولة المماليك .
فلما انهزم المماليك ، وقد غلبوا على أمرهم ، وتعقبه
العثمانيون إلى القاهرة . أخذوا في نهبها . وقد تعود أهلها ذل
في زمن المماليك ، إذا اختلفوا بينهم ، فالعثمانيون أخذوا في نهد
بيوت الكبراء ، ودخلوا الطواحين ، وأخذوا ما فيها من البغال
والأكاديش ، وأخذوا جمال السقايين ، وصاروا ينهبون ما يلوز
هم من القماش إلى القروب وتوجهوا إلى شون القمح بمصر
وبولاق ، ونهبوا ما فيها من الغلال وقد قال بعض الشعرا
المعاصرين في ذلك :

نبيكى على مصر وسكانها قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهورة بعد ما كانت هي القاهرة
وفي سلخ سنة ٩٢٢ هـ ، دخل الخليفة المتوكل القاهرة ،
به وزراء السلطان سليم والجم الغفير من العساكر العثمانية (١).

(١) انظر هذا النص في ابن اياس ص ١٤٨ ج ٥ .

ويدخل معهم الأمراء خايربك ، وقاضى القضاة الشافعية وغيره
ممن كان فى أسر السلطان سليم فى حين مات السلطان الغورى .
دخل الخليفة المذكور من باب النصر وقدامة المشاعلية تنادى
الناس بالامان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، والأخذ والعطاء .
وأن العساكر العثمانية لا يشوشون على أحد من الرعية ، وأنه قد
أغلق باب الظلم وفتح باب العدل . وأن كل من عنده مملوك
شركسى . ولا يدل عليه ، ثم ظهر عنده يشنق ، وادعوا للملك
المظفر سليم شاه بالنصر . فضج الناس بالدعاء ، ولكن لم يلتفت
أحد من العثمانية لهذه المناداة . وأخذوا ينهبون بيوت أولاد الناس
بحجة أنهم يفتشون عن الممالك الشراكسة . فاستمر النهب فى
بيوت الأمراء ، وأهل البلدة ثلاثة أيام متوالية ، لا يتركون جمالاً ولا
بغلاً ولا قماشاً .

وفى يوم الجمعة ، خطب باسم السلطان سليم على منابر
القاهرة ، ومصر القديمة ، وهذا نص الخطبة :

«وانصر اللهم السلطان بن السلطان ، ملك البحرين
والبحرين ، وكاسر الجيوشين ، وسلطان العراقيين ، وخادم الحرمين
الشريفين الملك المظفر سليم شاه . اللهم انصروه . نصراً عزيزاً ،

وافتح له فتحاً مبيناً ، يا مالك الدنيا والآخرة ، يارب العالمين » (١) .
وبالغ العثمانيون في مطاردة الشراكسة ، حتى كانوا
يدورون في الحارات والأزقة والأسواق ، وكل من رأوه من أولاد
الناس لا يمسأ زناً أحمر وتخفيفه ، وهو لباس المعاليك ، قالوا له
أنت شركسى ، وقطعوا رأسه ، فلبس الناس العمام ، حتى أولاد
الأمراء والسلطين ، وأبطلوا لبس الزنط والتخافيف في مصر ،
على أن ذلك لم يمنع تعديهم ، فكانوا يتهمون الناس أنهم من
الشراكسة ، ثم يقولون لهم : افتدوا أنفسكم بالمال ، فيفعلون .

وفي يوم الاثنين ، ثالث المحرم سنة ٩٢٣ هـ دخل السلطان
سليم القاهرة ، وبين يديه الخليفة المتوكل ، والقضاة ، وشق المدينة
في موكب حافل ، وقدامه الجناث المسومة الكثيرة ، وحوله
العساكر المتزاحمة بين مشاة وفرسان ، حتى ضاقت بهم
شوارع ، وما زال سائروا في المدينة حتى دخل من باب زويلة ، ثم
من تحت الريع ، وتوجه من هناك إلى بولاق ، ونزل في
كر الذي نصبه تحت الرصيف ، فلما شق المدينة ، ارتفعت
أت بالدعاء في الناس قاطبة ، وقد وصفه أحد المعاصرين
شاهدوه في ذلك اليوم ، فقال : إنه يرى اللون ، حليق

انظر هذا النص في ابن اياس من ١٤٨ ج ٥ .

الذقن، والحر الأنف ، واسع العينين ، قصير القامة ، وعلى رأسه
عمامة صغيرة ، وفيه خفة وهرج ، كثير التفت إذا ركب (١) .

أما «طومان باي» ، فإنه ثبت في تلك الحروب ، ثبات
الأبطال ، لكنه اضطر أخيراً للفرار في ٨ محرم ، فذهب إلى
الصعيد ، والتقى مع بعض قبائل العرب هناك ، على الدفاع عن
الوطن ، ومصادرة ما يحمل إلى العثمانيين من الغلال ونحوها .
فالتف حوله جماعة كبيرة ممن خافه السلطان سليم ، ثم جرت
المخاطبة بشأن الصلح والأمان ولم يتم شيء .

وأتى «طومان باي» برجاله إلى الجيزة ، فخرج إليهم
السلطان سليم ، فحدثت معركة كالتى حدثت ببركة الحاج . وكان
الفوز أولاً «لطومان باي» ورجاله .

ثم تكاثر العثمانيون وأكثروا من رمي الرصاص فانكسر
المماليك وانهزم «طومان باي» فأمر السلطان سليم فتكأ فيمن
وقع في أيديه منهم . ذكر «بن أياس» أن العثمانيين ، قطعوا رؤوس
المماليك الشراكسة وجماعة من العربان الذين كانوا مع «طومان
باي» . فلما تكامل قطع الرؤوس ، أحضروا مراكب نصبوا فيها

(١) يبدو أن هذه الصفات نقلها جرجى زيدان عن ابن أياس الذى سجل سماها
دون رؤية صفات سليم ليست هكذا .

مدارى من خشب ، وعلقوا عليها تلك الرؤوس وحملتها النواتية على
اكتافهم ولاقتهم الطبول والزمور ، وزينوا القاهرة لذلك (١) .

وبعث السلطان سليم يتعقب «طومان باى» حتى تمكن منه
بالحية ، فأتوا به مفلولاً إلى ما بين يدى السلطان ، فنظر إليه ،
فإذا هو فى حالة الغضب ، وقد علا وجهه القنوط لما حل ببلاده من
الذل فتحركت عواطف السلطان سليم ، فأمر أن تحل قيوده ، وبأن
يؤذن له بالحضور فى مجتمعات كان يعقدها السلطان سليم
للمداولة فى أمر البلاد . فكان يسأله مسائل كثيرة ، تتعلق بأحوال
البلاد الاقتصادية والسياسية والإدارية فقلوا على ذلك عشرة أيام .
وفى اليوم العاشر ، رأى السلطان سليم أنه لم يعد فى حاجة إلى
مشورة «طومان باى» فأمر بشنقه فى ١٩ ربيع أول سنة ٩٢٣
فعلقوه تحت رواق باب زويلة بكلاّب من حديد ، كان باقيا هناك إلى
عهد غير بعيد (٢) .

ويقتل «طومان باى» انتهت دولة المماليك الشراكسة ، أو
البرجية . بعد أن تسلطوا نحو ١٣٩ سنة وأصبحت مصر آيالة

(١) انظر السبب فى قتل طومان باى فى شهاب الدين تكين ضاغ ، طومان باى ،
مادة كتبها لداثرة المعارف الإسلامية التركية ، الترجمة التركية الجزء ٢/١٢ من ٥٤ -
٥٧ .

(٢) نقل المؤلف هذا من ابن اياس فى من ١٧٢ ج ٥ .

عثمانية . والسلطان سليم أول من خطب على منابرهما من العثمانيين ، ولا تزال عثمانية إلى الآن (١) .

ولكن المراد في هذا الكتاب التكلم عن تاريخ سيادتها الفعلية عليها سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) إلى الحملة الفرنسية سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) وهي نحو ٢٩٠ سنة ، كانت الحكومة على ترتيب وضعه السلطان سليم سيأتى ذكره . فأصابها في أثناء ذلك تعديل اقتضته طبيعة ذلك الحكم ، بحيث يمكننا أن نقسم تلك المدة إلى أربعة أدوار على هذه الصورة :

عدد السنين

الدور الأول : من الفتح العثماني سنة ٩٢٣ هـ إلى سلطنة أحمد بن محمد ١١١٥ هـ ، وكانت الكفة الراجحة فيه للباشوات الذين كانت ترسلهم الدولة العثمانية من الأستانة لحكومة مصر ، ثم للجند وطول هذه المدة ١٩٢ سنة .

الدور الثاني : من سلطنة أحمد بن محمد إلى سلطنة عبد الحميد الأول سنة ١١٧٧ هـ ، وكانت الكفة الراجحة فيه للمعاليك .

الدور الثالث : وهو المدة التي استقل بها على بك الكبير

(١) سنة تأليف المخطوط سنة ١٩١١ أي قبل فرض الحماية البريطانية على مصر

عام ١٩١٤ .

بحكومة مصر ، حتى قُتل وعادت مصر إلى كنف الدولة سنة ١١٨٧ .

الدور الرابع : من رجوع مصر إلى حوزة الدولة العثمانية إلى الحملة الفرنسية سنة ١٢١٩ .

فلنذكر تاريخ كل دور من هذه الدورات فنبداً بالتاريخ السياسى ونلحقه بفذلكة من تاريخ العلم والأدب . وخلاصة تراجم العلماء فى كل دور ، وما خلفوه من الآثار الأدبية فنقول :

الدور الأول من تاريخ مصر العثمانية

من سنة ٩٢٢ - ١١١٥ هـ أو ١٥١٧ - ١٧٠٣ م

١ - سلطنة سليم الأول

من سنة ٩٢٢ - ٩٢٦ هـ أو ١٥١٧ - ١٥٢٠ م

أقام السلطان سليم بمصر بضعة أشهر ، وهو ينظم أحوالها لكن معه كان منصرفاً إلى حمل ما فيها من التحف إلى الأستانة .

ذكروا أنه أمر بفق الرخام الذى كان فى القلعة والعواميد السماقية التى كانت فى الديوان الكبير ، لأنه أراد أن ينشئ مدرسة فى الأستانة ، مثل مدرسة الغورى (١) .

(١) هذا قول ابن إياس .

قال ابن اياس «وصار يحيى بن فكار يركب ويأخذ معه جماعة من المرخمين فيهجمون على قاعات الناس ، ويأخذون ما فيها من الرخام السماقى والزئذورى الملون ، فأخربوا عدة قاعات من أوقاف المسلمين ، وبيوت الأمراء . حتى القاعات التى فى بولاق، وقاعات الشهابى أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص التى على بركة الرطلى وغير ذلك من قاعات المباشرين والتجار ، وأبناء الناس والمدارس التى فيها الكتب النفيسة فنقلوها عندهم ، ووضعوا أيديهم عليها» (١) .

غير ما نهبوه من الأمراء وتحفهم ، وبالجمله فقد خرج السلطان سليم من مصر فى شعبان من تلك السنة ، ومعه أحمال من التحف والهدايا . وقد نال أمراً لم يجسر عليه أحد قبله من السلاطين الأتراك ولا غيرهم . نعى نيل الخلافة الدينية ، فضلاً عن السلطة السياسية .

الخلافة والسلطة فى الإسلام

لما كانت الخلافة أهم ما اكتسبه العثمانيون فى مصر ، رأينا أن نأتى على تاريخ هذا المنصب فى التمدن الإسلامى ،

(١) ابن اياس ج ٥ ص ١٧٩ .

ونسبته إلى السلطة ، يتبين للقارئ أن السلطان سليماً أقدم على أمر لم يقم عليه سواه من السلاطين فنقول :

لا بد للناظر في أحكام التاريخ على العموم ، وتاريخ الإسلام على الخصوص من أن يرى السلطة المطلقة لا تتأيد بمثل الدين ، فإن الصبغة الدينية تحميها من طمع الطامعين بأن تجعل للوكها مزية على سائر الناس .

وإذا أريد فصل الدين عن السياسة فلا بد من تقييد الحكومة بالشورى . وهي أفضل الحكومات وأطولها عمراً ، وإلا فإنها تتحل سريعا . ويكفى لانهلالها أن يتولى شؤونها ملك قليل التدبير ناقص الاختيار ، فيفتصب ملكه بعض وزرائه أو قواده .

وإذا تدبرت تاريخ الدول الإسلامية ، رأيت للسلطة الدينية تأثيرا كبيرا في طول بقائها واتساع نطاقها - اعتبر ذلك في الدول التي نشأت في أثناء التمدن الإسلامي من الفرس ، والترك ، والكرد ، والشركس ، كالبويهيين والسلاجقة والأيوبيين ، وغيرهم من الدول الفخمة . فإن بين ملوكها جماعة من دهاة الرجال وقهارمة (١) السياسة . ولم تطل أعمارها رغم استقوائها بالخلافة العباسية .

(١) قهارمة هنا جمع قهرمان ، وهي كلمة تركية تعنى : بطل شجاع انظر البداري اللاعنات ص ١٤٣ .

وانظر إلى الدول العربية التي جمعت بين الخلافة والسلطة
كالعباسيين والفاطميين والأمويين في الأندلس مع ما طرأ عليها من
أسباب السقوط ، فقد صبرت وطال جهادها .

وإذا نظرت إلى الدول الأعجمية رأيت أطولها عمراً
وأوسعها ملكاً الدولة التي جمعت بين السلطتين . وهي الدولة
العثمانية ، وبنو أمية في الشام . لو لم يتخذوا لقب الخلافة
ويقبضوا على أزمة الرئاسة الدينية ما استطاعوا إلى الحكم
سبيلاً . فإنهم إنما حكموا الناس وأيدوا سلطتهم بما في الخلافة
من الصبغة الدينية ، ووفقوا إلى أعوان علموا أن العامة لا تحكم
بمثل الدين فجعلوا همهم تعظيم الخلافة حتى جعلوها فوق النبوة ،
وسموا الخليفة خليفة الله . وقالوا : «خليفة الرجل في أهله أفضل
من رسوله في حاجته» . والعلماء ينكرون ذلك ، ولا يصدقونه .
وأما العامة فكانوا يساقون به إلى الطاعة بالإرهاب رغم ما كان
يعتور صحة خلافة بني أمية من شكوك .

فلما أفضت الخلافة إلى بني العباس ، وهم من عائلة لنبي ،
ومن أولى الناس بخلافته . كان المسلمون أطوع لهم مع لبني أمية ،
واعتقدوا أن خلافتهم تبقى أبد الدهر حتى يأتي السيد المسيح ،
وغرس في أذهان الناس بتوالي الأجيال أن الخليفة العباسي إذا

قتل اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر وجف
النبات .

وكان الخلفاء لا يأنفون من ذلك التفخيم مع تعقله وانتشار
العلم في عصره . فقد ذكروا أنه كان يحتمل أن يمدح بما يمدح به
الأنبياء ، ولا ينكر ذلك ولا يرده حتى قال فيه بعض الشعراء :
«فكأنه بعد الرسول رسول» . فكيف يكون حال الخلفاء في عصر
الانحطاط . إذ يقوم الهم مقام الحقيقة ، ويكثر المتزلقون
والمتملقون ، ويكتفى أولو الأمر بالكلام دون الأعمال وتمسك أهلها
بالعرص ، وتركوا الجوهر . فلا غرو إذا سمو الخليفة في أيام
المتوكل : ظل الله الممدود بينه وبين خلقه . أو قالوا قول ابن هاني
للمعز الفاطمي :

ما شئت ولا ما شئت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار .

فهذا السبب كان الأمراء الذين يستقلون عن الدولة
العباسية بالإدارة والسياسة لضعف الخليفة عن حربهم ، لا
يستطيعون الاستقلال عنه بالدين ، إذ لا يستغنون عن بيعته لتثبيت
سلطانهم . فإذا أراد أحدهم الاستقلال بولاية أو فتح بلد أو إنشاء

إمارة لنفسه ، بعث إلى الخليفة في بغداد يبأيه ، ويطلب منه أن يعطيه تقليداً أو عهداً بولاية ذلك البلد ، أو أن يلقبه ويخلع عليه . وإذا أبى الخليفة أن يجيبه غضب ، وبعد ذلك تحقيراً له ، وقد يجرّد عليه الجند ليكرهه على تنبئته .

فالإمارات أو المعاليك التي استقلت عن الدولة العباسية في فارس وخراسان وتركستان ، وما بين النهرين والشام ومصر وبلاد المغرب وغيرها قبل قيام الدولة الفاطمية كانوا أصحابها يخطبون لخليفة بغداد ويبعثون إليه بمال معين في العام مع أنهم في أمن من سطوته ، وإنما يريدون أن يرضى العامة عن سلطانهم .

وكذلك كان شأن الأجناس الأتراك وأمرانهم فقد كانوا مع استبدادهم بخلفاء بغداد قتلاً وخطراً لا يجسرون على استبقاء منصب الخلافة خالياً يوماً واحداً لاعتقادهم أنه بدون الخليفة لا تصطالح العامة ، حتى الملوك أو السلاطين الذين تسلطوا على بغداد وقبضوا على كل شيء فيها ، وأصبح الخليفة آلة في أيديهم مثل آل بويه ، وآل سلجوق ، فقد كانوا يحاربون الخليفة ويجسرون عليه الجيوش ، حتى

إذا ظفروا به ، وغلّبوه ، بايعوه ، وأكرموا ورفعوا مقامه
وتبركوا به .

فعضد الدولة البويهى ملك بغداد واستبد بها وهو شيعى
على غير مذهب الخليفة ، وكان يغالى فى التشييع ويعتقد أن
العباسيين غصبوا الخلافة من مستحقها . فلم يكن ثمة باعث
دينى يدعو إلى طاعة خليفة بغداد . ومع ذلك فإنه بايعه ، وعظم
شأنه ، وأعاد من أمر الخلافة ما قد نُسى ، وأمر بعمارة دار
الخلافة ، والإكثار من الآلات ، وعمارة ما يتعلق بالخليفة ويطانته ،
وأكرمه غاية الإكرام .

وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يعرفون حاجة الأمراء
المسلمين إلى رضاهم . فإذا ساء لهم أحد منهم ، هددوه بالخروج
من بغداد . فيضطر إلى استرضائهم ؛ لأن خروجهم يفضب العامة ،
يجرئهم على خلع الطاعة لتقديسهم شخص الخليفة وتنزيهه عن
الخطأ .

ولذلك فلم يكن من سبيل إلى نزع سلطته أو الاعتراض
عليها إلا من وجه دينى . فكان الذين يقومون على الخلفاء ،
يجعلون سلاحهم الدين ، فيلبسون الصوف ، ويدعون إلى المعروف
أو يعلقون فى أعناقهم المصاحف أو نحو ذلك مما يحرك عواطف

العامّة وإذا أراد أحد الخلفاء أن يصلح ما بينه وبين العامّة أصلحه بالتقوى . فلما ضمن «الفضل بن سهل» الخلافة للمأمون أوصاه بإظهار الورع والدين ليستميل القواد .

ولما رأى «أبو مسلم الخرساني» أهل اليمن في مكة قال : «أى جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان ، غزير الدمعة» يريد تحريك عواطفهم الدينية بالوعظ والبكاء . فلم يكن للمعاليك الإسلامية بدء من خليفة تبايعه ليثبت ملكها .

وقد يستاء بعض الأمراء المستقلين من خليفة بغداد فيكظم ولا يخلع ببيعته ، إلا إذا رأى خليفة آخر يبايعه . فلما قامت الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر ، خلعت كثير من البلاد بيعة خليفة بغداد ، وبايعت للفاطمين في القاهرة . ولما تغلب صلاح الدين الأيوبي على مصر ، وذهبت الدولة الفاطمية منها ، فأول شيء فعله أنه خطب بجامع القاهرة للخليفة العباسي في بغداد . وطلب المنشور منه والخلع عليه .

وكانت الخلافة العباسية بغاية الانحطاط والضعف وهو في غنى من بيعتها . ولكنه علم أنه إذا لم يبايع الخليفة فلا يرضى الناس .

وكذلك فعل السلاطين المماليك ، الذين ملكوا مصر بعد الدولة الأيوبية ، فإنهم بايعوا للعباسيين ، وكانت الخلع تأتيهم من بغداد إلى القاهرة بتثبيت سلطتهم ، فلما سطا التتر على بغداد وفتحوها سنة ٦٥٦ هـ ، وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله ، توقف شأن الخلافة ، فاضطربت أحوال مصر ، وبذل سلاطينها جهودهم في إيجاد خليفة يبايعونه ولو أعوز خليفة ولم يجنوه ربما اختلفوا واحداً ليحكموا العامة به ، على أنهم ما زالوا يبحثون عن بقية الخلفاء العباسيين الذين كانوا في بغداد حتى ظفروا بالهاريين منهم فاستقدموهم إلى القاهرة ، واحتفلوا بهم احتفالاً عظيماً ، وفرضوا لهم الرواتب كما تقدم ، وبالفوا في احترامهم وإكرامهم مع علمهم أن أولئك الخلفاء لا يفنون عنهم شيئاً .

ولكنهم خافوا اختلال دولتهم بدونهم ، وظل ملوك الهند وغيرهم من ملوك الإسلام بالاطراف البعيدة ، يبايعون للخليفة لعباسي في القاهرة ، ويطلبون التقليد (١) منه أو المنشور لإثبات سلطتهم على يد السلاطين المماليك ، فما الذي بعث لأولئك الملوك

(١) التقليد معناه : تقليد الولاية الأعمال . انظر القاموس المحيط ج ٢ سنة ١٩٨٧

بيروت ص ٢٩٩ / ١ .

على طلب التقليد ، من خليفة طريد محريد لا ينفع ولا يشفع لولا ما يتوقعونه من أثر ذلك في أذهان العامة .

ولا ننكر أن بعضهم كان يطلب بيعة الخليفة تديناً ولكن الأكثرين كانوا يطلبونها لاستصلاح العامة بها .

الخلافة في غير قریش

مما يستحق النظر والاعتبار فيما نحن فيه ، أن ملوك المسلمين غير العرب على اختلاف مواطنهم وأجناسهم ولغاتهم ودولهم من الفرس ، والأتراك ، والأكراد ، والبربر ، والشركس وغيرهم ، مع ما بلغوا إليه من سعة الملك ومن السلطان ومع حاجاتهم إلى السيادة الدينية لتستقيم دولتهم ، وتجتمع الرعية على طاعتهم ، ولم يخطر لأحد منهم أن يطلب الخلافة لنفسه ، قبل انتقال الإسلام إلى طوره الثاني بعد تضعضعه بفتح المغول . ولا ادعاهما أحداً من العرب غير قریش ، وأول سلطان غير عربي بويي بالخلافة ، السلطان سليم الذي نحن في صددده ولا تزال الخلافة في دولته إلى الآن (١) .

على أن الذين قويّت شوكتهم في عهد ذلك التمدن من الأمراء المسلمين أو القواد غير العرب ، كانوا إذا طمعوا بالسيادة (١) ألف جرجي زيدان مصنفه هذا عام ١٩١١ م .

الدينية أو الخلافة ، انتحلوا لأنفسهم نسباً في قرشي (١) كما فعل «أبو مسلم الخرساني» لما رأى من نفسه القوة على إنشاء الدولة . وربما طمع بالخلافة ، وانتحل لنفسه نسباً في بني العباس فقال : انه ابن سليط بن عبد الله بن عباس .

وأما الملوك أو السلاطين الأعاجم ، فلما ضخمت دولتهم في أواخر العصر العباسي ، ورأوا انحطاط الخلافة وتقهقرها تمنوا الاستغناء عنها ، ولكنهم لم يروا سبيلاً إلى ذلك ، إلا أن يستبدلوا بخلافة أخرى . على أن بعضهم طمع بالنفوذ الديني عن طريق الانتساب إلى الخليفة بالمصاهرة .

وأول من فعل ذلك ، عضد الدولة «بن بويه» المتوفى سنة ٣٧٢ هـ . فإنه حمل الطائع بالله الخليفة العباسي في أيامه أن

(١) حدد الفقهاء شروط الخلافة وتصيب الإمام بأربعة شروط هي : العدل والكفاية لعلم وسلامة الحواس واختلفوا على شرط خامس وهو النسب القرشي . إلا أن ابن خلدون يقرر أن الهدف والمقصود من هذا الشرط ليس النسب القرشي في حد ذاته ، بل أن ابن خلدون يرشدنا إلى فائدة هذا الشرط والمقصود منه إنما هو العصبية فيقول «... إذ الفائدة في النسب إنما هي العصبية ... وطريقنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية هي وجود العصبية فاشتراطنا في القائم بأمر المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية غالبية على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية» مقدمة ابن خلدون : المطبعة البهية ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

يتزوج بابنته ، وغرضه من ذلك ، أن تلد له ابنة ولداً ذكراً فيجعله
ولى عهده . فتكون الخلافة فى ولد لهم فيه نسب ولم يوفق إلى
مراده .

ولما أفضت السلطة إلى السلاجقة ، تقدموا فى هذا الطريق
خطوة أخرى ، فعبدوا إلى التقرب بالمصاهرة أيضا . ولكن على
أن يتزوج السلطان « طغرل بك السلجوقى » ابنة الخليفة ، وهو يومئذ
القائم بأمر الله فخطبها إليه . ووسط قاضى الرى فى ذلك ،
فانزعج الخليفة لهذا الطلب أيما انزعاج . إذ لم يسبق أن يتزوج
بنات الخلفاء إلا اكفاهم بالنسب ، وكانت يد السلطان قوية
والخليفة لا شىء فى يده ، فأخذ الخليفة فى استعطافه ليعفيه من
الإجابة على طلبه ، فأبى السلطان إلا أن يجاب .

وحدثت أمور يطول شرحها خيف منها على الدولة فاضطر
الخليفة إلى القبول . فعقد له عليها سنة ٤٥٤ هـ . وهذا ما لم يجر
مثله قبله ، لأن آل بويه لم يطمعوا بذلك ولا تجاسروا على طلبه مع
مخالفتهم للخليفة فى المذهب ، إذ يكفى الخليفة تنازلاً أن يتزوج
بنات الملوك ، لا أن يزوجهم بناته . ولم ينل هذا الشرف أحد قبل
طغرل بك . ومع ذلك فإنه لما دخل إلى عروسه فى السنة التالية ، قبل

الأرض بين يديها وهي جالسة على سرير ملبس بالذهب . فلم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له وظل أياماً يحضر على هذا الصورة وينصرف ، على أنه لم يوفق لإتمام ما أرادته لأنه توفي في تلك السنة .

أما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم تتلها دولة إسلامية قبل العثمانيين ، وذلك أن الخليفة العباسي كان عند الفتح العثماني لمصر ، الإمام محمد المتوكل على الله الثالث ، وقد تقدم ذكره مراراً ، وهو الخليفة الثامن عشر من الدولة العباسية بمصر . فلما تم فتح مصر للسلطان سليم ، على أن الأمر لا يستتب له ، إلا إذا أضاف السلطة الدينية إلى السلطة الزمنية ، فاغتتم فوزه وطلب إلى المتوكل على الله ، أن يبايعه فبايعه بالخلافة الإسلامية وسلمه الآثار النبوية ، وهي : العلم والسيف والبردة . وسلم إليه أيضاً مفاتيح الحرمين ، فصار خليفة وسلطاناً . وتوارث ذلك السلاطين بعده ، ولا يزالون على ذلك إلى الآن .

أما الخليفة العباسي ، فإنه نُقل إلى الأستانة وخُصص له راتب لنفقاته . وقبل وفاة السلطان سليم عاد المتوكل إلى مصر وعاش فيها منفرداً إلى أن توفي في سنة ٩٤٥ هـ وهو آخر الخلفاء العباسيين وقد تولتهم الدينية ، نيفا وثمانية قرون

نظام الحكومة المصرية

في الدولة العثمانية

قد رأيت من إجراءات العثمانيين بمصر عند الفتح أنهم لم ينظروا إليها نظرهم إلى بلد سيقومون فيه وإنما أرادوا إخضاعه وإذلاله واستغلاله (١) . فلما رجع السلطان سليم إلى عاصمته القسطنطينية ، فكر في أمر مصر فارتأى أن يضع لها نظاماً يأمن معه تمردها عليه ، لبعدها عن مركز الخلافة ، وصعوبة المواصلات في ذلك العصر .

وكان قد ولى عليها والياً برتبة باشا يرجع إليه الحل والعقد وأول من نال هذا المنصب أمر أهله من كبار رجال قنسو الغوري بإسمه خايريك «أو خيريك» قد تقدم ذكره ، وحارب معه في حلب ثم خانه وسلم البلد إلى العثمانيين . فلما فتح الله على هؤلاء مصر ، ولاء السلطان سليم ولايتها ، وسماه باشا .

على أنه تذكر أن هذا الرجل خان سلطاناً من قبل فخاف أن يفعل ذلك معه ، إذا بعد عنه ، ويستقل بمصر فاعمل فكرته فيما يكفيه منونة هذا الخطر ، فاهتدى إلى طريقة تضمن له ذلك

(١) هذه نظرة المؤلف إلى مفهوم الحكم العثماني .

وهي ، أن يجعل في مصر ثلاث إدارات أو قوات ، كل منها تراقب أعمال الآخرين فلا يخشى اتحادها وتمرداها .

فالقوة الأولى : «الباشاء» وأهم واجباته إبلاغ الأوامر السلطانية لرجال الحكومة وللشعب ، ومراقبة تنفيذها .

والقوة الثانية : «الوجاقات» فإنه أقام في القاهرة ، وفي المراكز الرئيسية في القطر ستة آلاف فارس ، وستة آلاف ماش بالبنادق ، جعلها ستة وجاقات (فرق) تحت قيادة وأوامر خير الدين أحد قواد العثمانيين العظماء وأمره أن يقيم في القلعة ولا يخرج منها لأي سبب كان .

وواجبات هذه الوجاقات حفظ النظام في القطر المصري الدفاع عنه ، وجباية الخراج ، وقد رتبها على الوجه التالي :

١ - وجاق المتفرقة : وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطاني .

٢ - وجاق الجاويشية : وهو مؤلف في الأصل من صف ضابطان (١) جيش السلطان سليم ، فعهد إليهم جباية الخراج .

٣ - وجاق الهجانة .

(١) ضابطان هنا جمع كلمة ضابط وتعني ضباط ، وهي صيغة جمع تركية على لغة الفارسية .

٤ - وجاق التفججية ، وهم ناقلو البنادق .

٥ - وجاق الإنكشارية ، وقد تقدم تاريخهم ووصفهم .

٦ - وجاق العزب .

وكان كل من هذه الوجاقات مؤلفاً من أفراد يقال لهم وجاقلية وأحدهم وجاقل . على كل وجاق ضابط يلقب بلكي يصحبه الكخيا والباشى اختيار ، والدفتردار ، والخزنة دار ، والريزنامجى . ومن اجتماع هؤلاء الضباط فى سائر الوجاقات يتألف مجلس شورى الباشا فلا يقضى أمراً إلا بمصادقتهم .

أما هم فلمهم أن يوقفوه عن الإجراء أو يستأثفوا إلى ديوان الأستانة عند الاقتضاء . ولهم أيضاً أن يطلبوا عزله حالما يشتبهون بمقاصده (١) .

أما القوة الثالثة : فهى الأمراء المماليك ، وهم بقايا الدولتين السالفتين ، والفائدة منهم حفظ الموازنة بين الباشا والوجاقاء

(١) تألفت الحماية العثمانية فى مصر من سبعة أوجاقات ، بعد أن أضيف إليها اوجاق المتفرقة الذى لم يتكون إلا بعد حرالى ثلاثين عاماً من إصدار قانون نامة ريفية الارجاقات الستة هى : الإنكشارية - الفريان - التفنكجان - الكوكليان - الجراكسة - الجاوشية إضافة للمتفرقة .. انظر إلى الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى د . ليلى عبد اللطيف .

لأنهم فى الأصل أعداء لكلا الفريقين . ومن غرضهم الانتصار
للفريق الأضعف ليمنعوا القوى من الاستبداد .

وقد كان القطر المصرى منقسماً إلى ١٢ سنجقية (مديرية)
يحكم كل منها حاكم يقال له : سنجق أو بك يعينه الديوان وهو
مجلس شورى الباشا من أمراء المماليك .

فلا غرو أن تقاطع المصالح على هذه الصورة واختلاطها
مع تعدد الأمور ، ما يقود إلى القلاقل والمتاعب . أما الدولة
العثمانية فقد جبت راحة من هذا التعب لأنها كانت على ثقة من
استبقاء الديار المصرية فى حوزتها .

ولم تطل حياة السلطان «سليم» بعد فتح مصر ، فتوفى
سنة ٩٢٦ هـ (١٥٢٠ م) ، وخلفه ابنه السلطان «سليمان القانونى»
لشهير .

٢ - سلطنة «سليمان القانونى»

من سنة ٩٢٦ - ٩٧٢ هـ أو من ١٥٢٠ - ١٥٦٦ م

لهذا السلطان شأن خاص دون سائر سلاطين آل عثمان ،
أن المملكة العثمانية بلغت فى أيامه أرقى ما وصلت إليه من النفوذ
، سياسى وسعة الفتح .

فقد فتح «بلغراد» و «رودس» ، وحاصر «فيينا» حتى كاد يفتحها . وكانت له علاقات عظيمة مع ملك «فرنسا» .

وفي أيامه ، دخل العثمانيون «تبريز» غير مرة وقد طالت سلطة هذا السلطان أكثر من سائر السلاطين العثمانيين وبلغت الدولة العثمانية في أيامه ، أوج مجدها (١) .

وقد عرف «بالقانونى» لأنه سن قانونا لا يزال أساساً للقوانين العثمانية إلى الآن (٢) . واهتم على الخصوص بشئون مصر . وكان أبوه قبيل وفاته قد رسم الخطة التى يجب أن تسير عليها مصر فى حكومتها وإدارتها ، ولكنه توفى قبل أن يبرزها إلى حيز الفعل . فلما توفى السلطان ، جعل اهتمامه إتمام مشروع أبيه (٣) .

(١) عرف السلطان سليمان بالقانونى ، لازدياد حركة الفتوح الإسلامية فى عهد ريكاتالى ازدياد حركة التقنين .

(٢) الصحيح ان إدارة مصر قد رسمت بمقتضى قانون نامة مصر . وتم العمل به . إلا ان ثورة أحمد باشا الخائن فى مصر ، جعلت الدولة العثمانية تعيد النظر فى قانون نامة مصر ، وتعده وتراجع به إلى قانون قايتباى لاتخاذ أساساً للتعديل المحقق .

(٣) فى المخطوط صورة للسلطان سليمان القانونى ش (٦) انظر آخر الكتاب .

نظام الحكومة المصرية أيضا

وكان من رأى السلطان «سليم» أن ينشئ ديواناً تحت رئاسة الباشا ، حفظاً للموازنة . أما السلطان «سليمان» فاتمّ الموازنة بإنشاء ديوانين ، عرفا «بالديوان الكبير» و «الديوان الصغير» أو «الديوان» فقط . وأناط رئاستهما بالباشا وعليه أن يجلس عند انعقاد الجلسة وراء ستار المنبر وعلى الكخيا ، والدفتردار استتذانه قبل المفاوضة ومتى أقر الديوان على أمر ، أبلغاه ذلك القرار وليس له إلا المصادقة والأمر بالتنفيذ . وجعل إقامة هذا الباشا فى القلعة تحت ملاحظة الأغا الذى هو قومندانها ، ويجدد تعيين الباشا كل سنة .

أما واجبات الديوان الكبير فهى المفاوضة والإقرار على ما يلق بالأشغال العمومية التى لا تتعلق إدارتها بالباب العالى
سسه .

أما أعضاء هذا الديوان ، فهم أغوات الوجاقات الستة دفترداريوها ، وروزنامجيوها ، ونواب من جميع فرق الجيوش ، ير الحج ، وقاضى وأعيان المشايخ ، والأشراف ، والمفتون
ة والأئمة الأربعة والعلماء .

أما المخاطبات التى ترد إلى هذا الديوان فتُعَنُون باسم

إن الكبير» ، لكنها تسلم إلى الباشا ، وله وحده الحق أن يعقد جلساته ، ولم تكن كثيرة .

أما جلسات الديوان الأصغر ، فكانت تتمتع يومياً في « » ، وأعضاء هذا الديوان ، هم كخيا الباشا ، ورفقدهاره نامجيه ، ونائب من كل الوجاقات والأغا وكبار ضباط وجاقية .

ومن واجبات هذا الديوان ، النظر في الحوادث اليومية ومن مباحثاته البحث في الإدارات الثانوية .

وانشأ السلطان «سليمان» فضلاً عن الستة الوجاقات ، انشأها أبوه ، وجاقاً سابعاً دعاه وجاق الشراكسة وهم بقية المماليك . ومن هذه الوجاقات السبعة تتألف حكومة مصر اميتها .

أما نفقاتها ، فمن مخصصات يتولى ضبطها وتقريره لدى من كل وجاق . وجعل لكل وجاق مجلساً مؤلفاً من ضباط الوجاق ، وبعض صف ضابطاته لمحاسبة الأفندي ، والنفا ، الدعاوى بخصوصية ، وعرض الترقيات للباشا للمصادقة عليها ، قوامهم في القاهرة ، ولكل منهم لباس خاص برتبته وعليه لزماته . ومجموع عدد رجال الوجاقات معاً عشرون ألفاً وقد يزيد

أو ينقص حسب الاقتضاء ، وكان لوجاق الإنكشارية إمتيازات على سائر الوجاقات ، وقائده (الأغا) مفضل على سائر القواد وله نفوذ عليهم .

وجعل السلطان «سليمان» للبكوات المعاليك الذين أقامهم السلطان «سليم» إمتيازات خصوصية ، وحقاً بالارتقاء إلى رتبة الباشوية وأضاف إليهم ١٢ بيكاً (١) آخرين لمهمات فوق العادة ، وهاك أسماء الموظفين الذين ينتخبون من البكوات وهم : الكخيا أو نائب الباشا والقبابطين الثلاثة ، وهم قومندان ثغور السويس ودمياط ، والإسكندرية ، ويسمى واحد منهم قبطان بك ، وبدفتردار ، وأمير الحج ، وأمير الخزانة ، وحكمداريو أو مديريو المديریات الخمس ، الآتى ذكرها : جرجا ، والبحيرة ، والمنوفية ، والغربية ، شرقية ، ولم يكن لغير الكخيا والدفتردار ، وأمير الحج ، الحق دخول الديوان ، فالدفتردار كان عليه ضبط الحسابات ، وحفظ دفاتر والسجلات ، ولا ينفذ إلا ببيع عقار إلا بعد توقيعه عليه إشارة إلى تسجيله في دفاتره ، وأمير الحج يحمل الهدايا الصدقات التى كان يرسلها السلطان سنوياً إلى مكة أو المدينة ،
ليه حماية قافلة الحج ذهاباً وإياباً .

بيكا أو بيك هى بك بمعنى الأمير ، الملقب .

وأما أمير الخزانة ، فيحمل القسم المختص بالقسطنطينية من حاصلات مصر برأً وعليه حمايته ، وينتخب من البكوات أيضاً «شيخ البلد» وسنعود إليه ويكون له شأن عظيم ،

وكانت مديريات القليوبية ، والمنصورة ، والجيزة ، والفيوم في عهدة كُشاف لا فرق بينهم وبين البكوات في النفوذ ، ولا يعمل بإقرار أحدهم إلا بعد مصادقة الشوربجية وغيرهم من الوجاقين الذين يتألف منهم ديوان خاص في كل مديرية ، ثم أن تعيين كخيا الباشا وقباطين السويس ودمياط والإسكندرية متعلق رأساً بجلالة السلطان ، فيرسلونهم من الأستانة ويستدعونهم إليها في آخر كل سنة .

أما البكوات الآخرون ، فيعينهم الديوان ، ويوليهم الباشا ، ويثبتهم الباب العالي ، ومراكزهم ثابتة إلا أن واجباتهم تتغير ، إلا الدفتردار ، وقد ينتخب البكوات من وجاق المتفرقة ومتى انتخبوا لا يعودون تابعين لذلك الوجاق .

وكان هم الباب العالي الانتباه إلى السويس ودمياط والإسكندرية على الخصوص ، لأنها الأبواب التي يدخل منها إلى مصر . فكان يرسل حمايتها رأساً من الأستانة تحت قيادة القباطين ، ويجدها كل سنة . وهؤلاء القباطين لم يكونوا يحسبون

من جند مصر إلا باعتبار إقامتهم فيها وبما ينالونه من الإمدادات المالية لتفقاتهم .

أما ما خلا ذلك ، فكانوا يحسبون أجنب في اعتبار الباشا وديوان مصر ، ولم يكونوا تحت أوامر حكومة البلاد في شيء ، فأوامرهم كانت ترد إليهم من ديوان الأستانة رأساً .

حاصلات البلاد

هذا من قبيل الإدارة ، أما من قبيل حاصلات البلاد ، فإن السلطان «سليمان» أنه المالك الحر لأرض مصر ، فكانت له ملكاً ، وكان يفرضها إقطاعات على مزارعين أن يدعوهم الملتزمين ، على أنه لم يكن أن يمنع إقطاعها أو يوقفه . فلم يكن بالحقيقة فرق بين هذه الإقطاعات والملك الحقيقي والفلاحون الذين كانوا يحرثون لأرض كانوا يتمتعون بنصيبهم منها ويورثونها لأعقابهم ، ولكنهم مجبورين على العمل فيها بدون حق التصرف بها ، وعليهم خراج ٧ مناص من دفعه للملتزمين متى توفي فلاح بلا وريث ، تعطى نسه للملتزم ، وهو يتعهد بحراثتها من يشاء ، وإذا مات الملتزم وريث تعود الأرض إلى السلطان ، وكان على كل من الملتزمين

والفلاحين خراج يدفعونه إما نقداً أو عيناً ، فإذا تأخر الملزم ،
تؤخذ الأرض منه .

ونظراً لاتساع أرض مصر لم يكن حصر أملاك كل من
الملتزمين . فلم يكن ممكناً تعيين مقدار خراجها ، فأرسل السلطان
«سليمان» مساحين مسحوا الأرضين المصريين . فقسموا المديرية
إلى أقسام دعواها بالقراريط ومسحوا كلاً منها على حدة ، وحدّثوه .

ولاية مصر في زمن السلطان «سليمان»

قلنا إن السلطان «سليم» ولي حكومة مصر «خيريك» الذي
كان «الفوري» و «طومان باي» في تسليم حلب . فتوفي «خيريك»
سنة ٩٢٨ هـ ، ودفن في جامعته المعروف باسمه في شارع «درب
الوزير» وبعد وفاته ، نهجت الألسنة بذمة لعظم استبداده .

وولي السلطان «سليمان مكانه» مصطفى باشا وبعد تسعة
أشهر و ٢٥ يوماً أبطل «بأحمد باشا» ، وكان عدواً للصدر الأعظم
«إبراهيم باشا» قدس الصدر سنة ٩٣٠ هـ إلى أمراء المماليك في
القاهرة أن يقتلوه ، فعلم بالدسياسة ، فقبض على الكتب الواردة
بذلك قبل أن تصل إلى أصحابها ، ثم استدعاهم وأعلنهم أنها

أوامر جلالة السلطان بقتلهم ، ولم يطلعهم عليها ، فأبوا الإذعان ،
إلا أن إياهم لم يمنع قتلهم .

ولما تأكد «أحمد باشا» أنه صار في مأمن من المقاومين ،
صرح باستقلاله ، وأمر أن يُخطب له ، وأن تضرب النقود باسمه ،
وهو أول من طمع باستقلال من ولاية مصر في عهد الدولة
العثمانية، ولكنه بالغ بالعسف ، فاغتلس ممتلكات البعض وحبس
البعض ، فثارت الأفكار عليه حتى أصبحت حياته في خطر .

وبينما هو ذات يوم في الحمام ، فاجأه أميران من أمراءه
كان قد أمر بسجنهما وهم ، «جهم الحمزاوي» و «محمد بك»
فكسرا باب السجن وخرجا رافعين العلم الشاهاني ، يستنصران
الناس حتى أتيا الحمام ، فعلم الباشا بذلك ، ففر من السطح ،
لتجأ إلى أحد مشايخ عربان الشرقية وإسمه «ابن بقر» ، فتعقبه
دائه حتى أدركوه وقطعوا رأسه على باب زويلة ثم نقل إلى
الأسطانة سنة ٩٣١ هـ .

فأرسل السلطان عوضا عنه «قاسم باشا» ، وفي نيته
تقصير مدة هؤلاء الولاة لئلا يثور في خواطرهم حب الاستقلال .
بعد تسعة أشهر و١٤ يوماً استبدله بإبراهيم باشا وكان نشيطا ،

محباً للإصلاح والنظام إلا أن قصر مدته لم تمكنه من إتمام ما كان شارعاً فيه ، فعُزل وأُقيم بدلاً منه «سليمان باشا» سنة ٩٣٣ ، وكان السلطان راضياً عن سُمِّيهِ هذا ، فأبقى في الولاية تسع سنوات و ١١ شهراً .

وفي سنة ٩٤١ هـ ، استقدمه إلى الأستانة ، ليسلمه قيادة حملة أعدها لمحاربة الفرس والهند ، وقد أقام في أثناء حكمه بنايات كثيرة من جعلتها جامع سنارية في القلعة ، وناب عنه في غيابه «خسرو باشا» نحو سنة وعشرة أشهر فعاد «سليمان باشا» إلى مصر ، وبقي عليها بعد ذلك نحو سنة وخمسة أشهر .

وفي سنة ٩٤٥ هـ ، عهدت باشوية مصر إلى «داود باشا» فبقي عليها ١١ سنة و ٨ أشهر . وكان رجلاً مستقيماً ، كرم الخلق ، محباً للعلماء ، أخذاً يناصرهم ، كلفاً بالمطالعة ، وعاد نوع خاص ، مطالعة الكتب العربية ، فجمع منها عدداً وافراً واستنسخ كل ما ظفر به من الكتب غير المطبوعة ، فجمع مكتبة جميلة جداً .

وكان الأهليون في مدة حكمه في بحبوحة السعادة والأمن . وتوفي في القاهرة سنة ٩٥٦ هـ ، فتولى مكانه «علي باشا» وهذا

رُمِّمَ وبُنِيَ عدة بنايات عمومية في «القاهرة» وفي «قوة» و «رشيد»
واقْتَدَى به غيره من بكوات «مصر» ، فجعلوا يشيدون الجوامع ،
منها الجامع الذي ايتناه «عيسى بك» في «ديروط» ، وكان على
باشا محبوراً ، مكرماً عند المصريين بمنزلة الأب ، لكنه على ذلك
لم يحكم إلا أربع سنوات وستة أشهر .

ففي سنة ٩٦١ هـ ، تولى باشوية «مصر» «محمد باشا»
وكان الناس يبغضونه ، فلم يحكم إلا ثلاث سنوات ، ولما زاد
التشكى منه ، عزل واستقدم إلى الأستانة للمحاكمة فحكم عليه
بالقتل سنة ٩٦٢ هـ .

وبعد «محمد باشا» تولى «إسكندر باشا» فحكم ثلاث
سنوات وثلاثة أشهر ونصف .

وفي سنة ٩٦٨ هـ ، تولى «علي باشا» الخادم ، وبعد ١٧
راً خلفه «مصطفى باشا» (الثاني) في سنة ٩٦٩ هـ .

ثم في سنة ٩٧١ هـ ، تولى «علي باشا» الصوفي سنتين
وثلاثة أشهر . وكان «علي الصوفي» قبلاً حاكماً في «بغداد» ،
مشهوراً فيها باعوجاج الأحكام والخيانة .

فلما تولى «مصر» ، كثرت فيها السرقات والتعديات ، حتى

غصت القاهرة باللصوص ، واخترقت طائفة منهم المدينة حتى
الجامع الأبيض ، فاضطرت الحكومة أن تقيم سورا من قنطرة
الحاجب إلى هذا الجامع منعاً لمثل ذلك .

وفى شوال سنة ٩٧٢ هـ ، أبداً وعلى باشا الصوفى ،
«بمحمود باشا» ، وهو آخر من تولى مصر فى أيام السلطان
«سليمان» فجاء الأستانة بموكب عظيم ، فأهدى إليه فى أثناء
مروره من الإسكندرية إلى القاهرة ، هدايا عظيمة . فلما وصل
القاهرة ، لاقاه الأمير «محمد بن عمر» متولى الصعيد على قارب
فيه جميع أنواع الهدايا وخمسون ألف دينار . فأخذ الباشا
الهدايا منه بخنقه حال خروجه من مجلسه ، وأمر أيضاً بخلق
القاضى «يوسف العبادى» ، لأنه لم يأت للملاقات ، ولم يهده شيئاً .
واستمر على هذه المظالم حتى قتل معظم أعيان القاهرة . فكان لا
يمر إلا ومعه الشويباشى «رئيس الجالدين» فإذا مر بأحد ، وأراد
قتله ، أشار بيده إلى الشويباشى ^(١) ، فيعمد حالاً إلى ذلك التعس
ويقتله بأسرع من لمح البصر .

وفى ٣ رجب سنة ٩٧٤ هـ ، توفى الأمير «إبراهيم»

(١) صيغة الكلمة شويباشى . ومعناها هو منبع . شحنة من فيه الكفاية لضبط البلد

من جهة السلطان . وكيل المزرعة . الترابى ٢٢٩ / ٢ .

الدفتردار ، وكان أميراً للحج ، فاستولى «محمود باشا» على ما ترك من المال ، والماليك ، والجواري وحمله ذلك مئة ألف دينار ضمها إلى المال الذي يرسل إلى الأستانة سنوياً ، ويعين منها هدايا ثمينة للسلطان ووزرائه ، استجلاباً لخواطرهم ، لكنه لم ينتفع من ذلك قبل أن قتل (١) في يوم الأربعاء غاية جمادى الأولى سنة ٩٧٥ هـ وهو مار في موكبه الاعتيادي بين البساتين ، ولم تقف الحكومة على القاتل ، فاتهمت اثنين من الفلاحين وقتلتهم ظلماً لأنهما وجدا بقرب مكان القتل .

وكان السلطان «سليمان» قد توفي قبل ذلك بسنة (٩٧٤) وسنة ٧٤ سنة ، ومدة حكمه ٤٨ سنة فتولى بعده ابنه «سليم شاه» الثاني . وهذه صورة نقوده مؤرخة ٩٢٦ هـ (٢) .

٣ - سلطنة «سليم بن سليمان»

في سنة ٩٧٤ - ٩٨٢ هـ أو في ١٥٦٦ - ١٥٧٤ م هو «سليم الثاني» ولد سنة ٩٢٠ . فلما تولى الملك كان في السابعة والأربعين من عمره . وكانت أمه روسية (صقلبية) . ولم يكن أهلاً للاحتفاظ بما خلفه أبوه من الفتوح ولا القيام بما أسسه

(١) هكذا في الأصل .

(٢) ص ٧ في آخر الكتاب .

من المشاريع ، ولكن وزيره «محمد باشا صقللى» كان حكيماً ،
محذراً فى السياسة والحرب ، فمنع الدولة من الفشل - ذلك شأن
الدولة الاستبدادية - إنما تقدم بشخص ملكها وتكون كما تكون ،
فإذا كان حازماً ، عاقلاً سعدت وأفلحت ، فإذا خلفه ملك ضعيف ،
ضعفت وتقهقرت .

وفى أيامه ، عقد الصلح بين «الدولة العلية» و «النمسا» ١٧
فبراير سنة ١٥٦٨ م . ومن شروطه حفظ النمسا أملاكها فى
المجر ، وأن تدفع جزية سنوية ، وتعترف بتبعية «السلوخ»
و «البغدان»^(١) و «ترانسلفانية» للدولة العثمانية .

وفى أيامه أيضاً فتحت «قبرس» ، وكانت تابعة «للبنديقية» ،
ففتحها «بيالى باشا» سنة ١٥٧١ م وجرت فى أيامه واقعة ليبانت
البحرية ، غلب فيها العثمانيون ، وكانت خسائرهم فاحشة .

أما من جهة مصر ، فإن السلطان «سليمان» المذكور حالما
بلغه موت «محمود باشا» أمر بنقل «سنان باشا» من باشوية حلب
إلى باشوية مصر ، وبعد وصوله إليها بتسعة أشهر ، أمره بالزحف
على اليمن فبحر مصر فى ٤ شوال سنة ٩٧٦ هـ ومعه «حمزة بك»
و «مامائ بك» وغيرهما من أمراء مصر ، واستخلف على مصر
(١) من الأتلاق والبغدان فى رومانيا حالياً . المحقق .

«إسكندر باشا الشركسي» ومكث «سنان باشا» في تلك الحملة سنتين و ٤ أشهر ، فتح اليمن وعاد ظافراً إلى مصر ، فرأى الأحوال هادئة ، والنظام مستتباً بديار «إسكندر باشا» المذكور ، لأنه كان حكيماً ، محباً للرعية ، فرفع الضرائب عن الفقراء والعاجزين ، والقسم الأعظم من طلبة العلم . وكان شديد التعلق بالعلم وذويه .

فلما عاد «سنان باشا» إلى مصر (أول صفر سنة ٩٧٩ هـ) عادت أحكامها إلى يده ، فاهتم بتأييد النظام ، حفظ رونق البلاد ، فأعاد حفر ترعة الإسكندرية ، ورمم وبنى فيها جامعاً وشارعاً وعدة حمامات ، وبنى في «بولاق» «بمعصر» شارعاً كالات ، وجامعاً لا يزال معروفاً باسمه . وما زال على مصر إلى ٤ الحجة سنة ٩٨٠ هـ ، فخلقه «حسين باشا» وكان على جانب من اللطف والدعة وحب العلم الأدب ، ولا يعاب إلا لكثرة حكمه ، الأمر الذي أدى إلى تكاثر اللصوص في ولايته ، ولم يحكم إلا سنة وتسعة أشهر .

وفي أيامه ، توفي السلطان «سليم الثاني» في ٢٨ شعبان سنة ٩٨٢ هـ بعد أن حكم ثمانين سنين وخمسة أشهر و ١٩ يوماً (١)
(١) في المخطوط صورة نقود السلطان سليم الثاني انظر ش (٨) بآخر الكتاب .

٤ - سلطنة مراد بن سليم،

من سنة ٩٨٢ - ١٠٠٣ هـ أو من ١٥٧٤ - ١٥٩٤ م

هو «مراد الثالث» ولد سنة ٩٥٢ هـ . فلما تولى الملك لم يكن سنه يتجاوز الحادية والثلاثين من عمره . وكان عاقلاً ورعاً ، وكانت الخمر قد شاع شربها في المملكة العثمانية ، وأفرط الجنود فيها ، وخصوصاً الإنكشارية ، فأمر بإبطال شربها ، فثاروا وأجبروه أن يبيع لهم الشرب بما لا يسكرهم . وكان لهذا السلطان خمسة إخوة . فلما تولى الملك ، أمر بقتلهم ليأمن منازلهم إياه على الملك .

قتل الإخوة في الدولة العثمانية

وقتل الأخوة لهذا الغرض كان متبعاً في الدولة العثمانية إلى ذلك الحين ، وأول من فعل ذلك منهم رابع سلاطينهم «بايازيد بن السلطان مراد» ، (تولى الملك سنة ١٣١٩ م) كان بكر إخوته وله أخ أصغر منه معروف بالشجاعة ، والتجدة وعلى الهمة ، فخاف منه على سلطته ، فأجمع الأمراء على قتله ، خوف الفتنة ، وانقسام المملكة ، ويقال إنهم فعلوا ذلك بغتوى شرعية أفتى بها علماء ذلك العهد بناءً على الآية «والفتنة أشد من القتل» . وأصبح قتل الإخوة قاعدة يرجع إليها العثمانيون عند الحاجة . فكان

السلطان حالما تفضى إليه السلطنة بعد موت أبيه ، يعمد إلى قتل إخوته ولو كان بعضهم رضيعا كما فعل السلطان «محمد الفاتح» وكان له أخ رضيع اسمه «أحمد» فلما مات أبوهما وأفضت السلطة إلى «محمد» فأول شيء باشره نقل جثة أبيه لتدفن في بورصة ، ثم أمر بقتل أخيه .

ولما صارت السلطنة إلى السلطان «سليم الفاتح» عين ابنه «سليمان» حاكما على القسطنطينية ، وحمل بجيوشه إلى آسيا لمحاربة إخوته ، حتى يتفرغ لأعماله بعد قتلهم ، ولا يبقى من ينازعه .

وكان من جملة أعماله في هذا السبيل ، أنه عثر على خمسة من أولاد إخوته في بورصة ، فأمر بقتلهم ثم طارد أخاه «كركوذ^(١)» حتى قتله كما تقدم . وكذلك فعل السلطان «مراد» بقتل خمسة إخوة حالما تولى الملك كما رأيت .

وأقطع من ذلك كله ما فعله السلطان «محمد الثالث» الآتي ذكره . فقد آلت السلطة إليه سنة ١٥٩٥ م وله تسعة عشر أخاً غير الأخوات ، فأمر بخنقهم قبل دفن أبيه ، فخنقوهم ودفنوهم من تجاه جامع أيا صوفيا في الأستانة .

(١) صفة الاسم قردود .

وكان هذه المبالغة في الفتك أفضت إلى رد الفعل بإبطال هذه العادة الوحشية . فلما انتقلت السلطنة بعد «محمد» المذكور إلى ابنه «أحمد الأول» سنة ١٦٠٣ ، ولم يكن سنه يتجاوز الرابعة عشرة ، ولكنه كان عاقلاً ، وله أخ صغير اسمه «مصطفى» فلم يقتله ، بل اكتفى بالحجر عليه في أثناء سلطنته ، فأصبح السلاطين بعده يعولون في الاحتفاظ بسلامة سلطتهم على الحجر بدلا من القتل ، والفضل في ذلك يرجع إلى السلطان «أحمد» المذكور .

وله بدعة أخرى أدخلها في توارث الملك ، لم تكن من قبل ، وذلك أوصى بالملك بعده لأخيه «مصطفى» المشار إليه بدلا من أن يوصى به لأحد أولاده . كما كان أسلافه يفعلون . فبعد أن كان الملك ينتقل إلى الأبناء بالتسلسل في الأعقاب ، صار ينتقل إلى الإخوة أيضا ، الأرشد فالأرشد ، إلا ما قد يعترض ذلك من نفوذ الإنكشارية ، أو دسائس الوزراء ، أو غير ذلك ، فالعرش العثماني ما زال ميراثه محصورا في الأبناء من السلطان عثمان الأول إلى أحمد الأول ، ثم صار ينتقل إلى الإخوة أيضا ولا يزال ، فلنرجع إلى ترجمة السلطان «مراد» .

وفى أيام السلطان «مراد» دخلت بولونيا (١) فى حماية الدولة العثمانية ، وجرت حرب مع دولة الفرس ، ودخل العثمانيون «تبريز» ، وهى المرة الرابعة لدخولهم فيها .

وفى أيامه ، توفى الصدر الأعظم «محمد باشا صقُّلى» وكان قد حافظ على سيادة الدولة ، وتمكن بسياسته من إبرام الصلح مع نول أوربا ، وإنشاء عمارة بحرية بعد واقعة ليبانت ، فكوفىء على خدماته بالقتل ، بسبب دسائس حاشية السلطان فكان موته ضربة على الدولة ، وتكاثر تبديل الصدور بعده .

أحوال مصر فى أيامه

أما مصر ، فولى عليها بدلاً من «حسين باشا» «مسيح باشا» وكان خزنداراً عند السلطان «سليم الثانى» ، فحكم فى مصر خمس سنوات وخمسة أشهر ونصف ، ووجه اهتمامه خصوصاً إلى إبطال السرقات والتعديات ، فكان يقبض على اللصوص ويقتلهم بدون شفقة حتى بلغ عدد من قتل من اللصوص عشرة آلاف ، فارتاحت البلاد من شرورهم ، ثم عكف على إصلاح شئون الرعية ، وكان نزيهاً لا يقبل الرشوة ولا الهدية .

ومن آثاره مسجد عظيم فى ضواحي القرافة لا يزال يعرف

(١) مى بولندا .

باسمه ، وقد بناء على اسم الشيخ «نور الدين القرافي» وجعله له
وانسله ملكاً حراً ، وخصص دخلاً معيناً للنفقة عليه . وأمر «مسيح
باشا» أن تستهل الأوامر والكتابات الرسمية والأحكام بهذه العبارة
«الحمد لله ، والصلاة والسلام على نبينا وآله وصحبه ، إن المؤمنين
إخوة ، فاحفظوا السلام بين إخوانكم واتقوا الله» .

وفي سنة ٩٨٨ هـ ، ولي مصر «حسن باشا» الخادم
خزندار السلطان «مراد الثالث» فلم يكن همه إلا جمع الأموال
بأية وسيلة كانت ، وإعادة ما كان حظه سابقه من الرشوة
والهدايا . فبقى على ولاية مصر سنتين وعشرة أشهر . ولما عزل
عنها سار من القاهرة خفية ، وطلع من باب المقابر ، لئلا ينتقم
منه أهلها .

وفي سنة ٩٩١ هـ ، خلفه «إبراهيم باشا» فأخذ يستطلع
ويتحرى ما أتاه سابقه من الاختلاس ، فجعل في جامع السلطان
«فرج بن برقوق» موظفاً خصوصياً لاستماع تشكيات المتظلمين
على الوالى السابق من ١٠ رجب من تلك السنة إلى غاية رمضان .
فأطلع على مظالم لا تحصى ، من جملة ١٠٠٤ أردب قمح من
الشون العمومية ، باعها «حسن باشا» واستولى على قيمتها ،
فرفع إبراهيم باشا تقريراً مدققاً بشأن ذلك إلى السلطان ، فأمر
بقتله شنقاً .

ثم طاف «إبراهيم باشا» بنفسه يتفقد أحوال المديرية
ويتحقق حالتها وزار أيضاً «آبار» و«مرود» في الصحراء .

وتولى مكانه «سنان باشا الثاني» وكان دفترداراً . وبعد
سنة أشهر وعشرين يوماً ، برح مصر هارباً ، وسبب ذلك أنه ساء
التصرف ، فاشتكاها الناس إلى الأستانة ، فجاء «أويس باشا» إلى
مصر ليتحرى تلك التشكيات ، فحالما علم «سنان» بمجيئه ، فر
هارباً .

فتولى «أويس» حكومة مصر سنة ٩٩٤ هـ ، وكان صارماً
في الأحكام ، وكان في أول أمره قاضياً ، ثم صار دفترداراً في
الروملى ، ثم نقل إلى باشوية مصر . وبقي عليها خمس سنوات
مئة أشهر وعشرة أيام ، وأراد أن يدرّب الجنود ، فعصوه ،
جموا عليه في الديوان في ٢٨ شوال سنة ٩٩٧ هـ ، ونهبوا
بته ، وفي جملة ما نهبوا منه ساعة كبيرة ، تعرف منها الأيام . ثم
ذبحوا الأمير «عثمان» قائد وفاق الجاوشية ، وأخربوا بيت قاضى
العسكر ، وقتلوا قاضيين من قضاة مصر . ثم عمدوا إلى
الحوانيت ، فنهبوها ، كل ذلك والأمراء لا يستطيعون منعهم ،
والاضطراب يزداد ، والثائرون يتمردون ، وقد حاول الدفتردار
إيقافهم عند حدهم ، فذهب سعيه باطلاً .

ثم ظن «أويس باشا» أنه إذا جاءهم بالحسنى ربما يلبثون ،
فبعث إلى القضاة أن لا يخالفوا لهم أمراً ، فلم يزد لهم ذلك إلا
عناداً وفجوراً حتى قبضوا على أولاد الباشا رهن (١) لما يريدون ،
فأضطر الباشا إلى الازدعان لما أرادوه وأعطاهم ما طلبوه ،
واستقال من تلك الولاية بعد أن مل من خيبة مساعيه الحميدة
فيها .

فتولى مكانه «حافظ أحمد باشا» سنة ٩٩٩ هـ وكان حاكماً
فى قبرص ، وعلى جانب عظيم من حب العلم وطالبيه حاذقاً ،
مديراً فى أمور الأحكام . وكان رفيقاً بالأمهين ، ففرق الحسنات
على الحجاج الفقراء ، وبنى فى بولاق وكالتين وعدة بيوت ،
وخصص ربع دخلها لعمل الخير . وبقي حاكماً أربع سنوات
وفى سنة ١٠٠٣ ، توفى السلطان «مراد» (٢) .

٥ - سلطنة «محمد بن مراد»

من سنة ١٠٠٣ - ١٠١٢ أو من ١٥٩٤ - ١٦٠٢ م
ولد هذا السلطان سنة ٩٧٤ هـ ، فتولى الملك وهو فى
الرابعة والأربعين من عمره . وكان له ١٩ أخاً أمر بختقهم كما

(١) الصحيح : رهناً .

(٢) فى المخطوط صورة نقود السلطان مراد بن سليم انظر ش (٩) بآخر الكتاب .

تقدم . ومما يذكر له أن السلاطين تقدموه (مراد وسليم الثانى) كانوا قد تقاعدا عن قيادة الجند فى ساحة الوغى ، فرأى ذلك قد أضر بسطوة الدولة ، فعاد هو إلى تولى تلك القيادة بنفسه ، وكان لذلك تأثير كبير فى سياسة الجنود وثباتهم ، ففتح قلعة «أولو» الحصينة ، وكان السلطان «سليمان» قد عجز عن فتحها (١) .

أعماله فى مصر

أما مصر ، فولى عليها «قورط باشا» ، فلم يبق فيها إلا سنة وثمانية أيام ، وكان الناس يحبونه للطفه ودعته وتنشيطه لعالمى الأدب ، ومساعدته للفقراء ولكل من يلتجئ إليه .

وفى شوال سنة ١٠٠٤ هـ ، خلفه السيد «محمد باشا» وبقى على الحكومة سنتين ، اتبع فى اثناهما خطة أسلافه فى تنشيط العلم والأدب ، فأعاد بناء الجامع الأزهر ، وجعل فيه وظائف يومية من العدى المطبوع ، تُفَرَّقُ فى الطلبة الفقراء ، ورمم المشهد الحسينى ، ومع كل ما كان يتوخاه فى السعى فى حفظ النظام مع الأهلين ، لم يمكنه إنقاذهم من ثورة عسكرية ، انتشبت فى غرة رجب سنة ١٠٠٦ هـ فى سائر أنحاء القطر المصرى .

ثم أجمع العصاة فى القاهرة ، وكان السيد «محمد باشا» : ذاك فى منزله فى بركة الجيزة ، فعاد إلى القاهرة تحفّا به

(١) فى المخطوط صورة نقود السلطان مراد بن سليم .

السناجق وزمرة من الخفراء ، فلم يبال العصاة بذلك ، بل أطلقوا عليه النار ، ولم يتخلص من أيديهم إلا بعد شق الأنفس فصار إلى أحد منازلهم ، فتبعوه وحاصروه هناك ليلاً ونهاراً ، وألحوا عليه أن يسلمهم بعضاً إلى ضباطه ، وفي جملةتهم «دالى»^(١) محمد أحد كبار الأمراء ، والأمير الجليل «الشويباشي»^(٢) والأمير «خضر» كاشف المنصورة ، فطلب إليهم أن يعهلوهم ثلاثة أيام .

فلما جاء رسوله ، قالوا له «سيحكم الله بيننا وبين ملاك» . وتفرقوا في المدينة ، فظفروا بقاضي العسكر «عبد الرؤف» فأجبروه على القيام بمطالبهم . أما الباشا فاعتزم اشتغالهم بذلك الشأن ، وفر إلى منزله ودخل القلعة وأقفل أبوابها ورامه ، والت إلى «حسين باشا السكراني» قائد عموم الجيش و«بيرى بك» أهـ الحج ، فحاولا تسكين الثورة ، فذهب سعيهما عبثاً علماً ، العصاة قتلوا «محمد بك» و«الدالى محمد» وعلقوا رأسيهما على باب زويلة ، ونهبوا بيتهما ، وأتخلوا في الناس قتلاً ونهباً ^(٣) .

(١) أصلها دلى : ومعناها : مجنون ، معتوه ، مجنوب ، امروج ، أرمن ، الدراى ١/٢٥٥ .

(٢) الأصل : شويباشى .

(٣) في المخطوط صورة وإلى مصر في موكبه بالقرن العاشر للهجرة انظر ش(١٠) بتاريخ الكتاب .

وفي ١٧ ذي الحجة سنة ١٠٠٦ هـ ، أبدل السيد «محمد باشا» «بخضر باشا» فحكم ثلاث سنوات و١٢ يوماً ، وقد أغضب الأهلين منذ وصوله القاهرة ، لأنه أمر بقطع الأعطيات والجرايات التي كانت توزع على العلماء والفقراء من الحنطة ، ولم يقتصر على الإيقاع بهؤلاء الضعفاء ، بل تجاوزهم إلى الضابطة فأحرمهم زادهم ، فتنجسوا في ٢٠ رمضان سنة ١٠٠٩ هـ ، وساروا إلى قاضي العسكر ، ثم اتحدوا والقاضي في مقدمتهم ، وتوجهوا إلى الديوان يريدون الانتقام ، فقتلوا «كخيا باشا» وأمرأه آخرين ، فخاف الباشا فسلم لهم بما كانوا يطلبونه ، وأعاد الأعطيات كما شاعوا وخمدت الثورة وعادت الحياة إلى مجاريها ، إلا أن الباشا لم يلبث هنيهة حتى جاءه الأمر بالإقالة ، فاستقال . وولى مكانه الوزير «علي باشا السلحدار» وكان محباً للحرب ولذلك كان يكرم الجند على الخصوص ، ولكنه كان سفاكاً للدماء ، فتظلم الناس من قسوته ، ولم يكن يخرج في موكبه إلى المدينة أو ضواحيها إلا ويعيت على الأقل عشرة أشخاص تحت خوافر جواده ، فكان الناس يرتعدون خوفاً من ذكر اسمه . ورافق ذلك جوع عظيم ، فكثر الوفيات وعم الخراب ، فازداد الرعب حتى أمر الباشا أن تدفن الموتى سراً .

أما هو ، فترك القاهرة فراراً من تلك الغائلة واستخلف عليها «بيرى بك» وبعد يسير تولى هذا لانتخب السناجق الأمير «عثمان بك» ليقوم مقامه ، وبقي هذا حتى عين الباب العالي من يخلف «على باشا» وكان ذلك التغيير بسبب وفاة السلطان «محمد الثالث» في ١٦ رجب سنة ١٠١٢ هـ (١) .

٦ - سلطنة أحمد بن محمد،

من سنة ١٠١٢ - ١٠٢٦ هـ أو من ١٦٠٣ - ١٦١٧ م ولد هذا السلطان في سنة ٩٩٨ هـ ، فتولى الملك وهو في الرابعة عشرة من عمره عندما نفى ، وقد خالف من تقدمه من السلاطين بقتل إختوهم كما تقدم .

وتولى على مصر «إبراهيم باشا» فحكم فيها مدة قصيرة ، انتهت بخطب جسيم ، وذلك أنه منذ وصوله إليها ، عزم على أبطال طلبات الجند ، ولما أراد إنفاذ ما نواه ، زادت الجنود تمرداً .

وفي ربيع آخر سنة ١٠١٣ هـ ، علموا أن الباشا خرج من القاهرة في زمرة من رجاله ، وركب النيل إلى بولاق قاصداً شبرا قرب جسر أبي المنجا ، فاجتمعوا في ضواحي القرافة ، وتعاقدوا بالأيمان المخلطة على قتله .

(١) في المخطوط صورة السلطان محمد بن مراد انظر ش ١١ بالخر الكتاب .

وفي الصباح التالي ، جاؤا وعسكروا في بولاق ينتظرون
عوده ، ثم قاموا من هناك يريدون مهاجمة في قلعة الدولاب .
وكانوا قد علموا بالتجائه إليها ، فلما علم هو ومن معه من
السناجقة بقدم تلك العصابة تشاوروا فيما بينهم ، فنصح له
السناجق أن يسافر بجرأ قبل أن يصل إليه ضميم ، فلم يصغ لهم
وتشدد .

ثم جاءت الجنود الثائرة وأحاطوا بالقلعة وبعثوا من بينهم
١٥ رجلاً ليأتوا برأس الباشا . فدخل هؤلاء القلعة والسيوف
مشرعة في أيديهم حتى جاؤا مجلسه ، فانتهرهم قائلاً : «ماذا
تريدون ؟ ، ألم تستولوا على مرتباتكم والأنعام الذي يعطى
اعتيادياً عند تولية الحكام عليكم ؟ فماذا تطلبون ؟ » فأجابوه : « لا
نطلب شيئاً إلا رأسك » قالوا هذا وصفه أحدهم على وجهه ،
وأدركه الياقون بالطعن مراراً ، ثم عمد أحدهم إلى رأسه ، فقطعه ،
فانتهرهم «محمد بن خسرو^(١)» وويخهم على ما جاؤا به من
القحة فلم يجيبوه إلا بما أجابوا ذاك ، وأخذوا رأسى الاثنين ،
عادوا بهما إلى رفاقهم حول القلعة . ثم حملوهما ، وداروا بهما
(خسرو : بضم الخاء وسكون السين وفتح الراء وسكون الواو ، وهي كلمة فارسية
الأصل واستخدمها الأتراك ، وهي اسم علم ، ولها معان . المحقق .

شوارع المدينة إلى أن علقوها على باب زويلة (معرض الرؤوس ١) وكان قد تعود مثل هذا الأكايل (١) .

وفي ذلك اليوم ، أقاموا عليهم «عثمان بك» فلم يقبل ، فوالوا قاضى العسكر «مصطفى أفندى» فلما علم ديوان الأستانة بقتل «إبراهيم باشا» ، أرسل عوضاً عنه الوزير «محمد باشا الكورجى» الملقب «بالخادم» ، وحال وصوله القلعة ، وردت الأوامر الصارمة من الباب العالى إلى جميع السناجق أن يستطلعوا أصل الثورة وأسبابها ، يقبضوا على زعمائها ، فاجتمع السناجق والقسم الأعظم من الجيش فى قراميدان (٢) .

وكان الباشا فى القلعة ، فبعث يستقدم السناجق (٣) إليه ، ليبلغهم هذه الأوامر رسمياً ، فرفضوا المثل بين يديه ، فتوسط الأمراء ، ووعدوا السناجق إنهم إذا سلموا القاتلين نجوا ونالوا العفو العام ، فقبلوا وسلموا القاتلين إلى الباشا ، فأمر بقطع أعناقهم بين يديه ، وأطلق السناجق ، فخاف الثائرون ، وضعف عزمهم ، ولا سيما لما رأوا من «محمد باشا» التيقظ لحفظ النظام

(١) هكذا فى الأصل .

(٢) فى المخطوط مسودة لجامع السلطان أحمد بالأستانة ش (١٢) آخر الكتاب .

(٣) الصحيح : السناجق .

ومعاقبة المعتدين ، وقد قتل منهم نحواً من مائتى رجل فى مدة حكمه القصيرة التى لم تتجاوز سبعة أشهر وتسعة أيام .

فتولى بعده الوزير «حسن باشا» وهو أقل صرامة من سلفه ، فكان يعامل الجند بالحسنى ، وكان ابنه فيهم برتبة بكريكى ، وكانت الأحوال هادئة جداً فى أثناء حكمه .

ثم تولى بعده الوزير «محمد باشا» فى ٧ صفر سنة ١٠١٦ هـ ، وبقي على حكومة مصر أربع سنوات وأربعة أشهر و١٢ يوماً ، وكان حكيماً حازماً ، أخذ منذ وصوله القاهرة فى المحافظة على السلام ، فنجى الأهلين مما كان يكدّر راحتهم ، فاكتسب ثقتهم ومحبتهم ، إلا أنه لم ينج من الحساد ونوى الأغراض .

وفى أواخر شوال من السنة التالية ، ثارت عليه الجيوش ، واجتمعوا فى برج السيد «أحمد البدوى» تحالفوا أن لا يوافقوه على إلغاء الضرائب غير العادلة التى كانت مضمروية على القطر إلى ذلك العهد . ثم اختاروا من بينهم رئيساً ولوه عليهم سلطاناً ، وتقاسموا مصر إلى أقسام ، تولى كل واحد منهم إثارة الشعب والنهب فى قسم منها . فانتشرت تعدياتهم فى جميع الدلتا . فلما علم «محمد باشا» بذلك جمع السناجق «الجاوشية

المتفرقة (١)» ، وسار بهم تحت قيادته لردع العصاة فى ٩ ذى الحجة سنة ١٠١٧ هـ ، وأخذ معه ستة مدافع ، وانضم إليه كثير من مشائخ العرب . وفى الليلة التالية ، عسكر الجميع فى بركة الحج .

وفى الصباح ، هاجموا العصاة فى الخانقاه . فضيقوا عليهم بالنيران ، فاضطر أولئك إلى التسليم ، فأخذ الباشا عهوداً أولها أن يسلموا إليه سلطانهم وكيار رؤسائهم ، ووعدهم بالتأمين على حياتهم ، فقبلوا وسلموا الرقساء وعددهم نحو ٧٧ ، فأمر بقتلهم حالاً . ثم جرد الباقين من سلاحهم ، فتفرقوا ، فتعقبهم رجال الباشا ، وقتلوا من خلفوا به منهم .

فلما رأى قاضى العسكر «محمد أفندى» الملقب «بيختى زاده» ما كان يحصل من أمثال هذه المذابح يومياً ، تصح للباشا أن ينفى كل من يقبض عليه منهم إلى اليمن ، ففعل ، وكانت النتيجة حسنة ، وبطلت التعديات .

(١) المتفرقة هنا لقب ولا تعنى ما تعنيه فى العربية . وهى من كلمة فرق العربية . والكلمة تعنى المنفصلين ، وهم حرس كانوا يستخدمون فى مهام «خاصة» أو مختلفة . وكان الكتاب الأجانب يشيرون إليهم على أنهم «حرس الشرف» ... انظر هاملتون جيب وهارولد برون ، المجتمع الإسلامى والغرب ، ترجمة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ص ١٢٧ - ١٢٨ من الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧١ .

ولما ارتاح «محمد باشا» من تلك الثورات ، أخذ في إصلاح الإدارة المالية ، فتفحص بنفسه النفقات التي كانت تدفع من الخزينة ، واقتصد منها كل ما لم يكن ضرورياً . ثم نظر إلى الضرائب ، فأبطل طريقة المالك الشراكسة فيها ، واتبع القوانين التي صدرت سنة ٩٢٢ هـ في زمن السلطان «سليمان القانوني» . ثم نظم المكوس وعدلها ، ولم يكن يكلف نفساً إلا وسعها ، فإذا رأى أرضاً لا تقوى على القيام بما فرض عليها من المكوس ، تنازل لها عنه وساعدها في إحياء مواتها .

ولما برح مصر ، نال من المكافآت والإنعامات ما لم ينله أحد من أسلافه في مصر .

وتولى بعده «محمد باشا» الملقب «بالصوفي» وكان يحب العلماء ورجال الفضيلة . وكان ورعاً ، حليماً ، عفيفاً ، لم يقبل رشوة ، ولم يأت ظلماً . إلا أنه كان ملوماً لزيادة ضعفه بما يتعلق بصحبويه يوسف الذي كثيراً ما تعدى حده .

وفي سنة ١٠٢٢ هـ ، أرسل الصدد الأعظم عشرة آلاف جندي إلى اليمن ، لإخماد ما كان ثائراً من الشعب هناك .

وأرسلت الفرقة المذكورة عن طريق مصر ومعها أمر سام إلى
الباشا بدفع النقود اللازمة لها ، وتشجيع الحملة إلى اليمن .

فلما وصلت الجيوش إلى مصر ، وعلموا بما ورد من
الأوامر بشأنهم ، ادعوا انهم جاؤا ليقيموا في مصر ، ولم يذعنوا
لأوامر الباشا بالسفر ، فاتخذوا لهم منازل في مخازن باب النصر ،
وطردوا بعض أصحابها منها ، فاجتهد الباشا أن يحطهم على
التسليم بالأوامر الواردة إليه بشأنهم ، فذهب سعيه باطلا .
وأقاموا المتاريس في أبواب الحارة ، وأقفلوا باب النصر ، ونصبوا
المدافع في برجيه . فاضطر الباشا إلى محاصرتهم بكل ما لديه
من الوجاقات والمدافع . فتمكن الأمير «عابدين بك» من الدخول
إلى حصنهم من باب في المدرسة المدعوة بالجنبلاطية ، فخاف
العصاة وسلموا ، ففرق فيهم الباشا ثمانين كيساً وسافروا .

وبعد يسير أقيل «محمد باشا» الصوفي فاعتزل في قبة
العدلية ، ولم يبرحها إلا بعد أن علم بوصول خلفه «أحمد باشا»
دفتردار مصر سابقاً إلى الإسكندرية ، ثم جاء القاهرة ودخلها
بموكب حافل وبينما هو بموكبه في المدينة ، رماه بعض الناس
بحجر من سطح بعض البيوت ، فكسر الهلال الذي كان فوق

عمامة ، ولم يؤذ ، فأمسك الفاعل ، فاعترف بذنبه ، فقتل في ذلك المكان (١) .

وفي محرم سنة ١٠٢٥ ، ورد إلى الباشا المذكور أمر من الأستانة أن يرسل ألفاً من جنود مصر لتنضم إلى الجيش العثماني الذاهب لمحاربة الفرس . فأرسلهم تحت قيادة «صالح بك» أمير الحج ، فساروا على أتم نظام ، ومروا بالمديريات ، ولم يشعر الأهالي بمرورهم لما كان لهذا الباشا من النفوذ ، وما أقامهم في مصر من النظام مع إعطائه الجيوش حقهم من المرتبات . ولم يكن يتيسر قبل ذلك مرور مائة رجل بمقاطعة واحدة ، لما لم ينهبوها . فالتقت هذه الفرقة بالجيش العثماني في الخانقا ، نضمت إليه ، ولما ودع الباشا عساكره ، فرق فيهم المال ، صاب الواحد ٢٠ ديناراً على الأقل .

وكانت مدة حكم «أحمد باشا» سنتين وعشرة أشهر وأثنى عشر يوماً ، ولم يقتل في أثنائها أكثر من عشرة أشخاص ارتكبوا أموراً ، استوجبوا من أجلها القتل ولم يكن يحكم على أحد إلا بعد البحث الدقيق واستماع تقارير الدعوى من الطرفين .

(١) في المخطوط توجد صورة لسبيل السلطان أحمد بالأستانة ش (١٢) يأخر الكتاب.

٧ - سلطنة «مصطفى بن محمد»

من سنة ١٠٢٦ - ١٠٣٢ هـ أو من ١٦١٧ - ١٦٢٣ م

تولى هذا السلطان كرسى السلطنة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، قضى معظمها فى دار الحريم ، ولم يمارس شيئاً من أمور المملكة ، فاستضعفه رجال الدولة ، فتآمروا على خلعه ، فخلعوه ، وولوا مكانه «عثمان الثانى بن السلطان أحمد» ثم تغير الإنكشارية على السلطان ، فخلعوا «عثمان» وأعادوا «مصطفى» وكان ذلك أول عهدهم فى التولية والعزل ، ثم صار ذلك عادة جرى عليها مع سائر السلاطين ، إذ صار الأمر لهم فى التولية والعزل .

أما مصر فى أثناء ذلك ، فاستبدل واليها «أحمد باشا «بمصطفى لطفى» ، ولم يبق على مصر بعد خلع السلطان الذى ولاه إلا بضعة أشهر ، لأنه سهل التفوذ لذويه فى الأحكام فندشأت ثورة عسكرية فى ٧ شوال سنة ١٠٢٧ هـ ، فقتل الثائرون عددا كبيرا من الأمراء الأغوات وغيرهم من الكبراء ، واضطرب الباقون إلى الفرار ، ولم يسكن الاضطراب إلا بعزل «مصطفى باشا» بأمر السلطان «عثمان» .

فتولى مكانه الوزير «جعفر باشا» وهذا لم تطل حكومته أكثر من خمسة أشهر ونصف ، وكان محبا للعلم والعلماء ، يجمع إليه رجال الأدب ، ويكرم مثواهم ، ولم يهتم كل تلك المدة إلا بما فيه منفعة البلاد وراحة العباد .

وظهر في أيامه وباء انتشر في مصر ، وفثك بأهلها فثكاً ، وأيضاً من غاية ربيع الأول سنة ١٢٠٨ إلى غاية جمادى الثانية من السنة المذكورة . وقد لوحظ أن معظم الذين ماتوا بهذا الوباء شبان بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين من أعمارهم ، وبلغ عدد من توفى بسببه ٣٦٥,٠٠٠ نفس .

وتولى بعد «جعفر باشا» «مصطفى باشا» ، فقبض على «مصطفى بك» الملقب «بالبكجي» زعيم الثورة التي نشأت في أيام «مصطفى باشا لطفى» . وحكم عليه بالإعدام . فسر الثاني بذلك لأن «مصطفى» المذكور كان أصل متاعبهم . على أن سرورهم لم يلبث أن ظهر حتى أبدل بالكدر ، لأن «مصطفى باشا» حاكمهم الجديد ، اضطهد تجارهم وضيق عليهم مسالك رزقهم ، فرفعوا تظلماتهم إلى السلطان ، فنظر في دعواهم ، وأنصفهم . فعزل ذلك الباشا ، وولى «حسين باشا» . فبادر هذا إلى إبطال جميع الضرائب غير العادلة التي كان قد ضربها سلفه .

وفي أيامه ، ارتفع النيل ارتفاعاً فوق العادة فطاف على الأرض ، وأغرقها حتى ينس الناس من البقاء لنهاية ذلك الطوفان ، وأصابهم ضيق شديد أعقبه طاعون فتاك .

ثم عزل «حسين باشا» واستقدم إلى الأستانة ، وقبل وصوله إليه خلع السلطان «عثمان الثاني» وأعيد «مصطفى الأول» سنة ١٠٣١ ، الذي كان قبله .

أما الباشا المعزول ، فوصل إلى الأستانة في أسعد الأوقات له ، لأن أعراض السلطان السابق عنه ، كان داعياً لرغبة السلطان الجديد في تقريبه منه ، فاتفقت الأحزاب هناك على توليته الصدارة العظمى .

وكان «عثمان الثاني» قبل وفاته ، قد بعث إلى مصر «محمد باشا» بدلاً من «حسين باشا» ، لكنه لم يصل مصر إلا بعد أن أنبىء أهلها بما كان يأتيه في الروملى يوم كان والياً عليها ، فنفروا منه وخافوا من تصرفه . وأحسن حظهم لم يبق بينهم إلا شهرين ونصف شهر .

فلما تولى «حسين باشا» الصدارة ، عزله بأمر السلطان

«مصطفى الأول» ، وولى «إبراهيم باشا» وبقى هذا على مصر سنة. وقد تمكن بحسن سياسته وتديره من اكتساب رضى الأهلين وثقتهم إلا أنه حصل فى أيامه ضيق عيش ، وغلّت أسعار المأكولات جداً .

ولما عزل «إبراهيم باشا» ، سار إلى الإسكندرية بحراً خلافاً للعادة الجارية فى من سبقوه على حكومة مصر ، فإنهم كانوا إذا عزلوا من مناصبهم ، سافروا براً .

وتولى مكانه «مصطفى باشا» واستلم زمام الأحكام من ٢٢ رمضان سنة ١٠٣٢ هـ ، فأثناء كتابة الديوان يشتكون تصرف سلفه ، وقالوا إنه مدين للخزينة بمبلغ وافر ، فأرسل فى أثره بعض الجاوشية . فالتقوا به ، فهددهم بالقتل إذا لم يعوبوا عنه ، فخافوا وعادوا إلى القاهرة . فأرسل الأمير «صالح بك» فأدركه وقد نزل البحر فى الإسكندرية ، فأوعز إليه أن يقف ، فأجاب إنه متوجه إلى الأستانة ، فإذا كان عليه شيء يدفعه هناك إلى السلطان نفسه ، قال ذلك ونشر الشراع ، فمخرت السفينة به ، فأطلقوا عليه من طابية منارة الإسكندرية بعض الطلقات المدفعية فلم يبال بها .

٨ - سلطنة مراد بن أحمد

من سنة ١٠٣٢ - ١٠٤٩ هـ أو من ١٦٣٣ - ١٦٤٠ م

ولد هذا السلطان سنة ١٠١٨ هـ ، فتولى الملك وعمره دون الحادية عشرة سنة ، ولأه الإنكشارية ليكون طوع إرادتهم ، فاستأثروا بالدولة وعاثوا فيها فساداً ، فانتهز الشاة «عباس» ملك الفرس اختلال أحوالهم لترسيخ أملكه ، فتمكن من فتح بغداد ، وازدادت الأحوال اضطراباً ، وثار الإنكشارية حتى قتلوا الصدر الأعظم «حافظ باشا» .

مضت عشر سنوات والدولة في تهقر وضعف ، حتى شب السلطان وقبض على مهام الحكومة ، فحمل على بلاد فارس بنفسه على جيشه ، واسترجع بغداد وفتح الديوان . وبلغه أن أخويه «بايزيد» و «سليمان» يدسان عليه ، فأمر بقتلهما ، ثم استرد الفرس أريوان (١) .

أما مصر ، فبعد تولية «مصطفى باشا» بثلاثة أشهر أي من ١٥ ذى الحجة ، ورد إلى القاهرة ، أمر بعزله ، وتولية «علي باشا» مكانه . فاجتمعت الأجناد وساروا إلى القانمقام «عيسى بك» يطلبون الإعطاءات التي تفرق عند تولية كل وال جديد ،
(١) أريوان : عاصمة أرمينيا .

فانتهرهم «عيسى بك» قائلاً : «أفى كل ثلاثة أشهر تجددون هذا الطلبات ؟» ، فأجابوه : «وما المانع ؟» ، ألم يغير مولانا السلطان كل ثلاثة أشهر والياً علينا ؟ ألا يضر ذلك بمصلحة البلاد ؟ ، وإذا أراد أن يولى كل يوم والياً ، فنحن أيضاً كل يوم نطلب الإعطاءات التى لنا .» ، فحاول القائمقام إقناعهم ، فلم ينجح ولم يزد هم ذلك إلا عناداً وتهديداً ، وصرخوا جميعهم بصوت واحد : «نحن لا نرضى حاكماً غير «مصطفى باشا» ، ويرجع هذا إلى حيث أتى .» ثم قرأوا الفاتحة ، وأقسموا أن يحافظوا على ما قالوه ، وأن لا يحدث أحد منهم بذلك ، وبناءً عليه أعيد «مصطفى باشا» إلى منصبه .

فلما رأى الحزب العسكرى معه ، كتب إلى السلطان يطلب تثبيتته ، وأرفق الكتاب برسائل عديدة من علماء القاهرة ومشائخها قضائيتها ، وجميعهم يطلبون تثبيتته . ثم بلغهم وصول «على باشا» لى الإسكندرية فبعثوا إليه وفداً يبلغونه أن الجند والأهلين متفقين على رفضه ، فجمع الوفد إليهم ودفع إليهم كتباً كلها مدح وإطناج للأمراء والجيوش ، فعاد الوفد وقرأ تلك الكتب على الجند ، فلم يكن جوابهم إلا إعادة الوفد ليعيدوا مطالبهم الأولى .

فلما رأى إصرارهم ، استشاط غضبا ، وأمر بالقبض على ذلك الوفد ، وقيدوا إلى قلعة الإسكندرية مغلولين ، وزجوا في سجنها . فتآمروا مع جند الإسكندرية وكانوا من حزبهم ، فحلقوا وثاقهم وهجموا جميعا على «على باشا» وقوضوا خيمته وأجبروه على الخروج من الإسكندرية حالا ، فأنزلوه في قارب مخصوص ، وأخرجوه من الميناء ، وكانت الريح ضده ، فأعادته ثانية ، فإطلق عليه الأمير «مصطفى» من قلعة المنارة عدة طلقات ثقبت سفينة ثوبا لم تغرقها ، لكنها أخرجتها من الميناء ولقب الأمير «مصطفى» من ذلك الحين «بالطبحى» (١) .

وفي يوم ٢٠ ربيع آخر سنة ١٠٣٣ هـ ، جاء القاهرة كتاب يحمله الحمام الزاجل - وهو يوريد تلك الأيام - فحواء قرب وصول مندوب عثمانى ومعه الأوامر السلطانية .

وبعد أيام وصل ذلك المندوب ودخل القاهرة وجمع السناجق والأمراء وكبار الموظفين في الديوان ، وألبس «مصطفى باشا» «الخلعة المرسلة إليه من السلطان» ، ثم تلا عليهم الفرمان بتثبيتته على مصر .

(١) نسخة كتابتها بلطحي وهي من التركية بلغة جي وتعنى : ناقل الناس أو

صاحبه. الدرارى ١/١٠٦ .

وفى السنة التالية ، زاد النيل زيادة فوق العادة ، فبلغ ٢٤ ذراعاً ، فخاف الناس أن لا ينحسر الماء عن أراضيهم فى زمن يمكنهم فيه زراعتها ، ولكنه أخذ فى الهبوط بسرعة ، فأنكشفت الأرض وزاد خصبها .

الويساء وبيرام باشا

ولم تكد مصر تنجو من الجوع حتى داهمها ما هو أصعب مراساً منه - يعنى الوياء ، فإنه ظهر بها بأوائل ربيع أول سنة ١٠٣٥ هـ ، وأخذ ينتشر فى جميع أنحاء بسرعة .

وفى شعبان من تلك السنة ، أخذ بالتناقص ولم ينقص إلا نى أوائل رمضان ، قال بعضهم : إن الذين ماتوا بسبب هذا الوياء ٢٠٠,٠٠٠ نفس ، فتذرع الباشا بهذه الضربات لاختلاس أموال الناس ، فجعل نفسه وريثاً لكل من مات بالوياء من الأغنياء . فاستولى على تركاتهم ، فتظلم الورثاء إلى الأستانة . ولا يخفى أن الباشا لم يتول مصر إلا رغم إرادة الباب العالى ، فاغتتم هذه الفرصة وعزله ، وولى «بيرام باشا» ، فجاء مصر وحاكم ومصطفى باشا وحكم عليه بدفع الأموال التى اختلسها ، فباع كل ماله من المتاع والمقتنيات ، ودفع ما عليه .

ولما عاد إلى الأستانة (١٠٢٧ هـ) حكم عليه بالإعدام .
ولا يخفى أن محاولة الجيوش والأمراء عزل وتولية الباشوات ،
بمجرد إرادتهم ؛ مخالف للنظام ومغاير لما وضعه السلطان «سليم
الفاتح» لكل فئة من فئات مصر الحاكمة من الحدود . فكانت
موافقة الباب العالي خرقاً للحدود السابقة وعليه فقد حصل بعض
التعديل في القواعد الأساسية التي سنّها السلطان «سليم»
منذ قرن .

وكان «بيرام باشا» محباً للعلم والعلماء ، لكنه كان أكثر
حُباً لجمع المال ، وإقامة المشاريع المفيدة ، وتنشيط التجارة على
أنواعها ، وأكثر من الضرائب حتى على الصابون ، وكان حازماً ،
لم يترك للجند فرصة للتمرد ، فهدأت مصر في أيامه .

«محمد باشا» و «موسى باشا»

ثم استُدعى «بيرام» إلى الأستانة ، وعيّن وزيراً فر
ديوانها . وهذه هي المرة الثالثة لتعيينه في ذلك المنصب . فتولى
بعده الوزير «محمد باشا» ، فساس الأمور بحكمة ودراية . وكان
محباً للعزلة ، فلم يخرج بموكبه في أثناء حكمه التي هي نحو
السنتين ، إلا ست مرات .

واتصل به ما أصاب اليمن من الشغب الناتج عن سوء
 السياسة مع القبائل البدوية ، فعرض على السلطان إخضاعها ،
 وتعهد بإرسال فرقة من رجاله بقيادة «قنسويك» أمير الحج لهذه
 الغاية . فأنجاه السلطان إلى ما طلب ، وولى «قنسويك» على اليمن
 مع رتبة باشا وجعله بكربكي (أمير الأمراء) على الجيش . فأنشأ
 «قنسو» جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل ، وقبض مبلغاً كبيراً ليدفع
 منه نفقات الحملة . وبعد أن قبضه ، توقف عن السفر وترك جيشه
 بمصر يسلبون وينهبون ويقتلون الأهلين ويتعرضون للمسافرين .
 ولحسن الحظ ، كان بين تلك الجيوش ألف رجل من
 الروملى (١) جاءوا للاشتراك في تلك الحملة تحت قيادة الأمير
 «جعفر أخاء» ، فاضمدوا تلك الثورة وألزموا «قنسويك» أن يسير
 بهم إلى اليمن في محرم سنة ١٠٣٩ هـ . فسار وحارب وفاز .
 وبعد سبعة أشهر من سفر تلك الحملة (في ١٩ شعبان) ،
 طاف على مكة سيل من الماء ، أغرق القسم الأعظم من أراضيها
 حتى الكعبة ، فهدم السلطان معظم بنائها ، ولم يبق من جدرانها
 إلا الأيمن .

(١) الروملى : أصلها روم أيلى وتعنى لغويا منطقة الروم . واصطلاحاً : منطقة
 البلقان . المحقق .

فاتصل ذلك بوالى مصر ، فأوصله للسلطان «مراد الرابع» ،
فأنفذ السلطان إلى «محمد باشا» يعهد إليه ترميمها ففعل .
فبلغت جميع النفقات نحو ستة ألف غرش (الغرش يومئذ يساوى
أربعة فرنكات تقريباً) .

وفى سنة ١٠٤٠ هـ ، كان ارتفاع النيل قليلاً ، فجاء شهر
توت ولم يبلغ ١٦ ذراعاً ، ومع ذلك ، فتح الخليج ، وسيقت المياه
قليلة إلى الأرضين ، ولكن البلاد أمنت من الجوع بتدبير «محمد
باشا» .

وفى هذه السنة ، استدعى «محمد باشا» إلى الأستانة ،
وقلده السلطان منصب الوزارة مكافأة لحسن سياسته وبرايته .
وتولى مكانه فى مصر «موسى باشا» وكان للأهلين فى يادىء
الرأى ثقة به ، وكانوا يحبونه ويحفظون قدره ، فخرجوا لملاقاته فى
شبرا ، لكنه لم يكد يمكن قدمه ، حتى استسلم لهواه . فأخذ فى
الاختلاس والاستبداد بأنفس العباد ، فأمر بقتل أكبر رجال مصر
بغير وجه حق ، وجعل يراقب سير أغنيائها ويترصدهم خطواتهم ،
لعله يجد سبيلاً للاستيلاء على ثرواتهم .

وفى شعبان من تلك السنة ، بعث السلطان يطلب إليه

أن يعدّ حملة من جنده لمحاربة الفرس فجمعها تحت قيادة « قيطاس بك » وضرب على البلاد ضرائب فاحشة باسم إعانة حربية .

ولما وصلت تلك المبالغ إليه ، زعم أن مصر لا يمكنها تجريد مثل هذه الحملة لأن مالياتها لا تسمح لها بدفع النفقات اللازمة . فتصيح له « قيطاس » أن يتبع الاستقامة ، وهي أفضل له ، فذهبت أقواله عبثاً . ثم أوجس « موسى باشا » خيفة من « قيطاس بك » لأنه اطلع على فظائعه ، فاستدعاه إلى القلعة في عيد الأضحى في ذى الحجة ، وأمر أربعين من رجاله أن يقتلوه ، ففعلوا .

فلما رأى الأميران « كنعان بك » و « على بك » ذلك دفع وف في قلبيهما ، وأسرعوا إلى الجيوش ، فأعلماهم بما كان من « قيطاس بك » مع « موسى باشا » ، فاجتمعت العساكر حالاً في رميلة .

وأما السناجق والأمراء والقضاة وكبار الموظفين ، فاجتمعوا في جامع السلطان « حسن » ، وتفاوضوا في الأمر ، فأقرروا على عزل « موسى باشا » وتولية من يقوم مقامه مؤقتاً ريثما يأتي أمر الباب العالي بشأنه ، فخلعوه وأقاموا « حسن بك » مكانه .

فكتب «موسى باشا» إلى السلطان يعلمه بخبر تلك الثورة . وكان رؤساؤها قد رفعوا إلى ديوان الأستانة كتابين ، الواحد بالتركية ، وقع عليه السناجق والأغوان وكبار ضباط العسكرية والآخر بالعربية من القضاة والمشائخ يطلبون بصوت وإحد خلع موسى باشا ، فأجابهم السلطان إلى طلبهم ، فولى عليهم خليل باشا .

« خليل باشا »

وفي ربيع أول سنة ١٠٤١ هـ ، وصل «خليل باشا» إلى مصر ، استلم أزمته ، وبلغه أن جماعة من اللصوص ثاروا تحت رئاسة أحد الشرفاء المدعو «نامى» ، ونهبوا مكة ، فجمع جند القاهرة وأرسلهم بقيادة الأمير «قاسم بك» لإخماد تلك الثورة فساروا وحاربوا اللصوص وقتلوا زعماءهم .

وفي صفر سنة ١٠٤٢ هـ ، عاد «قاسم بك» بجيشه إلى القاهرة ظافراً . وأقبلت غلة مصر تلك السنة ، وزاد خصبها ، وتضاعف ريعها ، ووزلت أسعار الحنطة من ثمانية غروش للكرديب إلى غرشين .

وفي سنة ١٠٤٢ هـ استقال «خليل باشا» من ولاية مصر ، فخرج منها ، والناس يثنون عليه ثناءً جميلاً ، لأنه كان

عادلاً ، حليماً . فلم يكن يصدد أحكامه إلا بعد التروي بما يقول
الخصمان .

ومما يحكى عنه إنه جىء إليه يوماً بثلاثة لصوص ، قبض
عليهم متلبسين بالجناية ، فأمر أن يحاكموا ، فقال أحد رجال
الديوان : « إن هذه الحادثة لا تحتاج إلى محاكمة لثبوت الجناية ،
فيجب إصدار الحكم بالإعدام . » فلم يكن جواب الباشا إلا الأمر
بهدم بيت ذلك الناصح ، فاستغرب الرجل ذلك ، وسأل عن السبب
الموجب له ، فأجابه الباشا قائلاً : كيف يحق لك الاعتراض على
إذا أمرت بهدم بيتك المبنى من حطام الدنيا ، ولا يحق لذلك البانى
العظيم معارضتنا إذا هدمنا بنايته بغير وجه شرعى . ثم أبطل
الأمر بالهدم وأطلق اللصوص ، قال « ابن أبى السرور » راوى هذه
الحكاية ، إن اللصوص قتلوا بعد تلك الحادثة احتراماً للباشا .

وبعد استقاله « خليل باشا » من مصر «س عيّن على
الروملى ، وتولى مصر الوزير « أحمد باشا » الملقب « بالكورجى »
وكان قبلاً أمير ياخور .

وفى صفر سنة ١٠٤٣ هـ ، وردت له الأوامر الشاهانية ،
أن يبعث ألفين من عساكر مصر إلى سوريا ، مدداً للحملة

العثمانية على دروز لبنان مع خمسة آلاف قنطار من البقسماط وأربعة آلاف قنطار من البارود . ثم جاءت أوامر أخرى بطلب ألفي رجل آخرين وثلاثة آلاف قنطار من البارود لمحاربة الفرس . فرأى « أحمد باشا » أن مصر لا تقوم بهذه الطلبات ، فاعتذر إلى السلطان ، فبعث إليه ١٢ ألف قنطار من النحاس ليسكبها نقوداً على أن يبعث عوضاً عنها إلى الأستانة ثلاثمائة ألف زر محبوب (١) .

أصل النقود في المصرية

للقود في مصر تاريخ لا بأس من ذكره . كانت المعاملة بمصر عند الفتح الإسلامي بالدرهم ، وهو وزن درهم من الفضة والدينار ، وهو مثقال من الذهب . وكان الدينار يبدل بعشر دراهم .

تكاثرت الفضة فصار الدينار يساوي ١٢ درهماً في أيام بني أمية و ١٥ درهماً من أوائل بني العباس ، ثم زادت قيمته إلى ٢٠ درهماً أو ٢٥ أو ٣٠ باختلاف الأحوال .

فلما كانت الحروب الصليبية ، واختلط الإفرنج بالمسلمين ، دخل البلاد الإسلامية كثير من النقود الإفرنجية ، وحدثت نقود (١) زر محبوب ، هو الدينار كما سيذكر المؤلف ذلك فيما بعد .

ذهبية جديدة كالبندقي والمجر والبنتو وزر محبوب (وهو الدينار)
والجنيه العثماني والإفرنجي والمصري وغيرها ، وكلها من الذهب .
أما النقود الفضية ، فأبدلت دراهمها بالأنصاف وهي
البارات (١) . وكانت المبيعات الصغرى تقدر بإنصاف والكبرى
بالبندقي أو الزر محبوب أو غيرها من النقود الذهبية ، وسنعود
إلى وصف نقود مصر في آخر العصر العثماني .

«فأحمد باشاء أخذ في سكب النحاس ، وأعد لذلك عمالاً
ومعامل . ثم رأى بعد حين أن جميع هذه الإجراءات ذاهبة عبثاً
لأن الفعلة ملأوا العمل ، ومات أكثرهم من الحر والجهد ، فجمع إليه
نوى شواره من الأمراء ، والقضاة ، واستشارهم ، وكان من رأيه
أن يدفع مطالب السلطان من ماله الخاص ، ثم يجعل النحاس
سبائك صغيرة تباع في بلاد السودان بين تكردر وبلاد الزنج ،
فارتأى القضاة رأياً آخر ، وهو أن يجبر الأهالي على استسلام
هذا النحاس ودفع المبالغ المطلوبة ، وأن يفرق النحاس عليهم
بمقادير متناسبة لما يدفعونه فوافق الجميع على ذلك وأخذوا في
تنفيذه في ١٦ الحجة سنة ١٠٤٣ ، وتمموه في آخر شعبان من
السنة التالية .

(١) البارات جمع بارة وهي بالياء المثثة ، نوع من السكة .

فكان ذلك ثقلًا كبيراً على كامل المصريين إذ لم ينج من هذه الضريبة غنى ولا فقير ، فقلَّت النقود ، وغلَّت الحبوب وسائر المأكولات غلاءً فاحشاً ، وزاد في الطنبور نغمة أن النيل في السنة التالية لم يكن وفاءه حسناً ، لكن الناس استنبتوا الأرض غلة متوسطة .

مظالم وتعديات

وبعد يسير دُعى أحمد باشا إلى الأستانة فسار ولم يدفع الأموال التي جمعت لخزينته ، فرفع المصريون شكواهم بشأن ذلك . فلما وصل الأستانة ، حكم عليه بالإعدام ، وتولى مكانه الوزير «حسين باشا» فجاء مصر في عصابة من الدروز النقطهم من كل ناد ، وكانوا من قاطعي السبل ، فساموا المصريين أنواع العذاب نهياً وقتلاً ، فاضطربت الأحوال ، وأقلقت الحوانيت ، ووقفت حركة الأعمال ، وهذا أصل استهجان المصريين لكلمة درزي على ما يظن .

وأبطل «حسين باشا» حقوق الوراثة ، فإن مات أحد الناس ، استولى هو على تركته ، وأحرم منها ورثته الأيتام والأرامل أو التكالى ، وإذا أراد أحد الانتقام من عمو ، يكفيه أن يشى به إلى «حسين باشا» بأنه غنى أو ابن غنى ، فيزجه الباشا في

السجن ولا يخرج منه إلا بالبذل الكثير . ولم يكن يمر
ويطوف فيه «حسين باشا» المدينة في موكبه ، ولا تغيب
قبل أن يقتل رجلاً أو رجلين أو أكثر .

وقد حُسِب عدد الذين ذهبوا فريسة عتو هذا الغاش
مدة حكمه وهي سنة و ١١ شهرا ، فبلغوا نحو من ألف ،
نفس غير الذين كان يقتلهم بيده . وكان له هيبة في قلوب ر
فأراد يوماً أن لا يشركوه بالقتل والنهب ، فحظر عليهم ذلك
يعربوا يجسرون على المخالفة ولم يسمع بشيء من تعديات
ذلك الحين .

ثم أقيل وخلفه الوزير «محمد باشا بن أحمد باشا
بنه السلطان «سليم الثاني» .

وفي شوال من سنة ١٠٤٧ هـ ، وردت إليه الأوامر
يرسل ألفاً وخمسمائة مقاتل ، نجدة للحملة العثمانية إلى ب
فأرسل تلك الفرقة بقيادة أمير الحج «قنسو بك» في محر
١٠٤٨ هـ ، فسارت ولم ترجع إلى مصر إلا بعد الاستيلاء ع
المدينة في صفر سنة ١٠٤٩ هـ .

واتبع الباشا خطوات سلفه بالاختلاس والنهب ،

ثروة عظيمة من تركات الأمراء والعلماء ، فقام عليه الورثة ، وبعد الجهد ، تمكنوا من تحصيل نصف الأموال . وازداد ظلماً وعتواً ، حتى منع الصدقات التي كانت تدفع للأرامل والأيتام ، وأخذها لنفسه ، فكثرت التظلمات وتعددت العائلات المعسرة .

وفي الخميس ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ ، توفي السلطان «مراد»^(١) .

٩ - سلطنة إبراهيم بن أحمد،

من سنة ١٠٤٩ - ١٠٥٨ هـ أو ١٦٤٠ - ١٦٤٨ م

ولد السلطان «إبراهيم سنة ١٠٢٤ ، فلما تولى الملك كان في الخامسة والعشرين من عمره .

وفي أيامه ، فتحت جزيرة كريد ، وصارت تابعة للعلم العثمانية . وفيها أيضاً زاد تمرد الإنكشارية فعل من تمردهم وعزم على الفتك بهم في ليلة زفاف إحدى بناته على ابن الصدر الأعظم ، فاطلعوا على الدسيعة ، وأجبروا المفتي أن يفتي بخلعه ، فخلعوه وولوا ابنه «محمد الرابع» وعمره سبع سنوات ، فلم يرض جند السياه^(٢) بذلك ، فأرادوا إرجاع «إبراهيم» فخاف رؤساء

(١) في المخطوط صورة نقود السلطان مراد الرابع بن أحمد ش (١٤) بأخر الكتاب.

(٢) السياه : سياه مسكر . جيش . جند ١/٢٩٠ الدراي اللامعات .

العصابة الفشل ، فقتلوا «إبراهيم» كما قتلوا «عثمان الثانى» قبله .
وكان المصريون لما علموا بانتقال السلطنة إلى «إبراهيم»
المذكور ، ظنوا ذلك التغيير يغير حالهم ، وينجيهم مما هم فيه
وأول ما اجراه السلطان المذكور أنه استبدل «محمد باشا» وأحرمه
من العطية التى تعطى لحاكم مصر عند استقالته ، ولكنه أمر بعد
ذلك بإبقائه ، فعاد إلى أعماله ، وازداد ظلماً وصلفاً ، ففتك بالناس
فتكاً ذريعاً .

ثم استبدل «محمد باشا» «بمصطفى باشا» الملقب
«بالبيستانجى» وكان أبى النفس على نوع ما ، إلا أن كاتبه «أحمد
أفندى» كان عابثاً غشوماً ، وكانت أزمة الأمور فى يده ، فاستبد
بها ، فكره المصريون الحياة من أجله .

واتفق فى أيامه تقصير النيل ، فازدادت الأثقال بغلام
الحبوب . ولم يكن الباشا يتعرض للأحكام مطلقاً ، فكثر
السرققات حتى لم ينجح من أحياء القاهرة من النهب ، واضطر
الناس إلى مهاجرة بيوتهم .

وكان رئيس الضابطة إذا جرى إليه ببعض اللصوص ،
لا تغيب عليهم الشمس فى السجن ، ومثل ذلك كان يفعل الكشاف

(حكام الأقاليم) ، فتواترت التشنكيات إلى الباشا، فاضطر إلى عزل رئيس الضابطة وتولية «كنعان بك» مكانه ، فاهتم هذا بالقبض على اللصوص ، فسجن عدداً كبيراً منهم .

وفي شوال سنة ١٠٥١ ، ثارت الجهادية وتمرد الجاويشيون على رئيسهم الأمير «علي» ، لأنه لا يفرق الأعطيات إلا على كتبته ، فلم ير الباشا بداً من عزله وتولية «عابدين بك» في مكانه .

فلما رأى الجيش ما كان من فوز الفئة الثائرة ثاروا جميعاً، وادعوا أن مخازن الحبوب فارغة ، وطلبوا معاشاتهم المتأخرة منذ سنة . فعين «محمد الحندي» قاضى العسكر لتحري دعواهم ، فتفقد مخازن الحبوب ، فوجدوا حقيقة فارغة ، وعلم ما كان فيها باعاً وأخفى ثمنه . فاضطر الباشا مراعاة لطم الجمهور ، أن يتخلى عن كاتبه مع شدة حبه له ، فاستنجد الجاويشية ، فأنجدوه وأعادوه إلى منصبه ، فازداد تمرداً ، وبالف في الانتقال ، ثم استقال «مصطفى باشا» وتولى الوزير «مقصود باشا» . وكان والياً على ديار بكر (١) قديماً .

فلما استلم مقاليد الأحكام بمصر ، بحث عن تصرفات

(١) وهي : آمد .

سلفه ، فاطلع على أعماله ، فقبض على كاتبه والكخيا ، وجلدهما ، وأجبرهما على إرجاع مائتي كيس من النقود إلى الخزينة .
أما «مصطفى باشا» فأرسل إلى الأستانة ، وهناك أخذ منه مائتا كيس سلمت للخزينة الشاهانية وأصبح من صحبة الوزراء السبعة العظام .

السويساء

وفي أيام «مقصود باشا» ، قاست مصر أمر العذاب من ولاء وقد عليها . وكان أصعب مراساً من الولاء الذي وفد في أيام على باشا وجعفر باشا لأنه كان عاماً لم ينج من إصابته الشيوخ والشبان ، وقد أصاب من الشيوخ واحداً في الثمانية .
ظهر هذا الولاء أولاً في بولاق أوائل شعبان سنة ١٠٥٢هـ ، يعد شهرين ظهر في القاهرة . وما زال على معظمه من أول ذي القعدة من تلك السنة إلى غاية صفر سنة ١٠٥٣ ، ثم أخذ بالتناقص شيئاً فشيئاً ولم ينقض حتى الشهر الثاني . ولم يكن يسمع إلا بالوفيات المتتابة في كل ساعة . وكانت الجثث تنقل بالعشرات دفعة واحدة ، فيمر في الشارع الواحد أحياناً ثلاثون أو أربعون جنازة .

وقد روى «ابن أبى السرور» وهو من المعاصرين أن جملة من صلى عليهم من المتولين في الجوامع الخمسة الرئيسية في القاهرة في أثناء ثلاثة أشهر ٢٩٦٠ ، وصاروا في آخر الأمر يدفنون موتاهم بلا صلاة ، وعدد هؤلاء لا يقل عن عدد الذين صلى عليهم .

أما خارج القاهرة ، فلم يكن الوباء أقل فتكاً ، ويقال إن ٢٣٠ قرية أصبحت خراباً لإصابة سكانها جميعاً بذلك الداء .

«مقصود باشا»

فلما رأى «مقصود باشا» ما ألم بمصر من الدمار ، سعى في إصلاح الأحوال جهده ، فاستعمل الرفق وألغى الضرائب التي وضعها أسلافه بغير حق وجعل الوراثة إلى الأقربين الشرعيين ، مع دفع شيء من التركات إلى الحكومة ، وتحرى التعديات تحرياً شديداً وشدد في القبض على اللصوص ، فقبض على كثيرين منهم ، فقتل بعضاً ، وسجن بعضاً ، وقاضى آخرين حسب ذنوبهم مع الغرامة ، فاستكنث^(١) الناس ، وطابت قلوبهم .

(١) الكُنْثَة : نُورٌ دَجَّةٌ [مصريه] : نوره بفتح النون والواو يسكون الراء والمقصود منها : بالة الرياحين] تتخذ من أمس وأقصان خلاف ، يلجئ عليها الرياحين ثم تطوى .
القاموس المحيط ٢٢٤ .

وبينما كان هذا الباشا ساعياً في ما تقدم ، ظهرت في الإسكندرية في ٢٠ القعدة من تلك السنة ثورة كدورت الحالة ، وذلك أن نحواً من ستمائة من المسيحيين كانوا تحت طائلة القصاص مغلولين في سجون الإسكندرية .

ففي اليوم المذكور فتحوا السجون ، والمسلمون في الجوامع يصلون ، وطلقوا يذهبون الحوائث والمخازن والبيوت ، ولم يبقوا ولم يذروا . ولما ملأوا جعبة مطامعهم ، نزلوا إلى مركب كان بانتظارهم في البحر ، فاقطعوا يطلبون الفرار .

ولم يكن ذلك كل ما هدد «مقصود باشا» وحال دون مشاريعه ، بل هناك ما هو أدهى وأمرّ - وذلك أن جماعة السناجق تأمروا على عزله في الجمعة ١٢ رمضان سنة ١٠٤٥ باجتماع عقوده في بيت الأمير «رضوان بك» الملقب «بأبى الشوارب» .

وسبب ذلك أن «مقصود باشا» كان قد طلب إليهم حيناً بإيفاء رواتب الجيش عن شهر رمضان أن يدفعوا الثلث الأول من المال الذى يطلب من الخزينة من الإقطاعات العسكرية التى فى أيديهم ، فرفضوا بالإجماع وطلبوا عزل بعض الموظفين الذين

(١) الصحيح فيها نفساً ، لوقوعها غيباً ، المحقق .

يعدونهم من أنصار الباشا . فسلم الباشا لهم بما أرادوا ، فلم يقتنعوا بذلك . فكتبوا إلى الأستانة يشكون من سوء تصرفه ، ووافقهم كثيرون من الأعيان . فكتب إليه الباب العالي رأساً ما مفاده : «أن الحضرة السلطانية لم تعلم أسباب الثورة الجهادية التي انتشبت في مصر» وتتعجب كيف أن الباشا لم يبلغ الباب العالي خبرها .

فأجاب الباشا أنه لم يحصل لديه ما يدعى ثورة ، وإنما هناك بعض الاختلافات التي يرجوا إصلاحها بالتى هي أحسن ، ولذلك لم يكن ثمة حاجة إلى إطلاعها . فطلب إليه الباب العالي أن يتحرى ، ويعاقب المعتدين ، ويصرف الأمر بما يتراهى له .

ومع ذلك اضطر إلى الإذعان ، لكنه أراد الفتك بالأمير «على بك» والأمير «مامائ بك» والدفتردار «شعبان بك» لعلمه أنهم زعماء تلك الثورة ، فأمدهم كميناً ليقتلهم في الديوان ، وعين لذلك الإثنين في ٢٣ الحجة سنة ١٠٥٤ هـ . لكن الدفتردار نزل إلى الديوان وحده في ذلك اليوم ، فشاور الباشا عقله بين أن يفتك به وحده أو يخفى ما في ضميره ريثما يفتك بالثلاثة معاً ، فأقر أخيراً على إرجاء العمل إلى يوم آخر .

أيوب باشا وغيره

وفي اليوم التالي جاء الفرمان بعزله ، وتولية الد
«شعبان بك» قائمقاماً يتعامل في الأحكام وقتياً ، فشق ذا
الباشا ، لكنه أذعن وسلم مقاليد الأحكام «لشعبان بك» ،
السناجق إلى الباب العالي يطلعونه على حقيقة ما حصل في
الباشا السابق ، ويطلبون إليه الإسراع في إرسال من ي
فأنفذ إليهم «أيوب باشا» ، وكان قبلاً من رجال القصر الد
«المابين» (١) .

فلما عهدت إليه هذه الولاية تردد في قبولها لما را
الأخطار المحدقة بها ، لكنه لم ير بداً من قبولها .
وكان رجلاً حازماً مستقيماً ، استعان برجاله
إدارة الأعمال ، فلم تمض سنتان على حكمه حتى ا
النظام ، وسادت الراحة . ثم استقال من ذلك المنصب ب
صار وزيراً ، وعكف على العبادة واعتزل السياسة ، وزه
الدراويش ، فتنازل عن أملاكه في الأستانة للدائرة ال
الهمايونية وانفرد في أحد المعابد في الرومللي ، تولى مكانه

(١) المابين : كلمة عربية استخدمها العثمانيون للدلالة على البلاط السلطاني .

«محمد باشا حيدر» سنتين ونصف ، ولم يحسن الإدارة فارتبكت الأحوال .

وفي ١٠ رجب سنة ١٠٥٧ هـ ثارت فرقة من الإنكشارية في مصر القديمة ، فهددهم والى الشرطة فأزدابوا تمرداً ، فساروا إلى الباشا ، وطلبوا قتل ذلك الوالى (المحافظ) ولم يكن ذنبه إلا أنه قام بما عليه ، فوافقهم الباشا على ما أرادوا .

أما الوالى فكان من وفاق الجاويشية . فلما علم هؤلاء بعزم الباشا ، قاموا يشكون من سوء تصرفه بصوت واحد ، فخاف أن تبلغ هذه التشكيات مسامع الباب العالى ، فتعود العاقبة وبالأعلى عليه ، فاجتمع «بقنسو بك» واستشاره بما يفعل . وكان هذا لا يشير إلا بما يعود عليه بالمنفعة الشخصية ، فأشار على الباشا أن يرفع إلى الاستانة تقريراً سرىً يشرح فيه ما حصل من القلاقل ، وينسبها جميعها إلى الأميرين «رضوان بك» و «على بك» وينسب إليهما أيضاً اختلاس الخزينة المصرية ، وأنهما سلباه منصب أمير الحج وحكومة «جرجا» - كل ذلك لئلى يرجع «قنسو بك» ، و «ماماى بك» إلى منصبيهما .

رضيوان بك وعلي بك

فباشر الباشا كتابة ذلك التقرير ، وطلب إلى بعض
أن يوقعوا عليه ، فبلغ ذلك مسامع «رضوان بك» ، فأسير
كتابة تقرير مناقض لتقرير الباشا ، وبعث به إلى الأسد
فوصل قبل تقرير الباشا وفيه ما فيه من التشكيكات ضد
بك» و «ماماي بك» ، فورد الجواب من الأستانة مفوض
«رضوان بك» و «علي بك» أمر النظر في تلك القضية .

وفي ٢١ جمادى الأولى سنة ١٠٥٧ هـ ، ورد الفرمان إلى الباشا . وفي ٢٧ منه ، استدعاهما الباشا إلى القسطنطينية فاستدعيا «قنسو بك» و «ماماي بك» وأمرأ بقتلهما ، وقتل آخرين كانوا على دعوتهما .

ولم تكذب تتخلص «مصر» من دسائس هؤلاء حتى ذ
دسائس «مصطفى كخيا» الملقب «بالششينير»، لأنه لم
سنجقاً عرضاً من «قنسونيك».

وفي ٨ رمضان من تلك السنة ، وردت الأوامر إلى بك ، أن يترك القاهرة ويتوجه حالاً إلى حكومته في جرجا .
ثلاثة أيام استدعى الباشا «رضوان بك» إلى وليمة في القلا
فخاف من دسيسته ، فأبى الحضور ، فغضب عليه الباشا و

عن إمارة الحج ، فخرج «رضوان بك» من القاهرة في ٢٠٠ من رجاله ، وفيهم عدة من الأمراء والكشاف ، واتحد مع «على بك» ، فبعث الباشا على اثرهما ألفين من جنوده ، ونحو خمسمائة من الإنكشارية ، فاجتمع الجند في «الرميلة» وأقروا على إغفال أوامر الباشا . ثم وردت الأوامر من الاستانة بتثبيت «رضوان بك» و «على بك» في منصبيهما . فاضطر الباشا إلى استقدام الأميرين، فقدموا إلى القاهرة في ١٩ رمضان بما لهما من الرواتب والحقوق ، فسعى إلى مصلحتهما مع «مصطفى كخيا» .

وفي ٦ الحجة من تلك السنة ، شاع في القاهرة أن الوزير «مصطفى باشا» سمي على «مصر» عوضاً عن «محمد باشا حيدر» . وفي ٢٦ منه ، وردت الأوامر قاضية بإعادة «محمد باشا» إلى منصبه . وفي تلك السنة ، توفي السلطان إبراهيم .

١٠ - سلطنة محمد بن إبراهيم

من سنة ١٠٥٨ - ١٠٩٩ ، ومن ١٦٤٨ - ١٦٨٧ م

تولى هذا السلطان العرش العثماني وهو طفل ، ف وقعت
الغوضى في المملكة العثمانية ، وأصبحت الجنود لا ترحم كبيراً ولا
صغيراً ، وصارت الحالة إلى أنعس مما كانت عليه قبل «مراد
الرابع» حتى تزعزعت أركان الدولة وطمعت الدول الأوربية فيها .
وتكاثرت الثورات الداخلية تارة من الإنكشارية ، وأونة من السياة ،
وأخرى من الولاة أو الأهالي ، ولكن الله قيض لها وزيراً عاقلاً
حكيماً هو «محمد باشا كوبريللي» فتولى الصدارة سنة ١٠٦٧ ،
ففتك بالإنكشارية وأذلهم وأخضعهم ، ولهذا الرجل أياد بيضاء
على الدولة ، فإنه حفظها من الانحلال في تلك الأزمة . وانتهت
سلطنة هذا السلطان بالظع .

أما في «مصر» لما تولى السلطان محمد المذكور ، عزل
«محمد باشا» وألبها ، وولى الوزير أحمد «باشا» فاستلم زمام
الأحكام مدة سنتين كلهما اضطراب وقلق ، وأول تلك القلاقل
كانت سنة ١٠٦٠ بسبب تقصير النيل ، فإنه لم يرتفع تلك السنة
أكثر من ١٦ ذراعاً ، فلم يرتو من أرض الصعيد إلا الثلث . أما

الوجه البحرى فلم يرتو منه شىء تقريباً ، فغلت الأسعار حتى خيف المجاعة .

أما الباشا فلم يكن يهتم غير تكثير الضرائب مع أنه لم يكن يرسل منها إلى الأستانة إلا الثلثين . وكان لسوء نيته يرسل تلك المبالغ فى عهد «رضوان بك» ليحمل الباب العالى على الشك بأمانته فيتغير خاطر السلطان عليه . وكان اهتماماً لمكيدته يكتب إلى الباب العالى على التتابع يشكو من تصرف «رضوان بك» ويطلب خلعه عن إمارة الحج ، وتقليدها لعلى بك . وكان هذا على ما علمت من الصداقة مع «رضوان بك» لكنه لم يكن يعلم بدسائس الباشا .

أما الباشا فكان فى نيته أن يوقع الضغائن بين الأميرين ، فيحل عرى اتحادهما ، لكنه لم يتم مقصده حتى أتى الأمر العالى بعزله يوم السبت ٦ صفر سنة ١٠٦١ هـ و «رضوان بك» لم يرجع إلى القاهرة بعد . ولم تكن نتيجة مساعى «أحمد باشا» إلا زيادة تألف قلبى نينك الأميرين . وكان من كرم أخلاقهما أن كلاً منهما كان يتنازل للآخر عن إمارة الحج فأعجبت هذه الأريحية المصريين، فأنحبوهما وبالفوا فى احترامهما حتى أقاموا لهما دعاءً عمومياً

فى «الرميلة» ، والباشا إذ ذاك محبوس فى القلعة ولم يفرج عنه حتى دفع للخزينة مبالغ وافرة .

فنتولى مكانه الوزير «عبد الرحمن باشا» ومازال إلى أول شوال سنة ١٠٦٢ هـ ، وقد قاسى ما قاساه سلفه من السجن والإهانة لأنه سار على خطواته فاختر الباب العالى الوزير «محمد باشا» ليقوم مقامه فى ٥ شوال من تلك السنة ، ولكنه لم يدخل القاهرة إلا فى ٨ محرم سنة ١٠٦٣ هـ .

وما زالت الولاة تتوالى على «مصر» ولا شىء من أعمالهم وأحوالهم يستحق الذكر . وفى آخر الأمر تحول النفوذ من أيديهم إلى أيدي البكوات المعاليك وهم يعنون مصر وطنهم ، ويغارون عليها . أما الباشوات إذا أتوا «مصر» لا يكون ديدنهم إلا اكتساب الثروة بأية طريقة كانت لعلم كل منهم أنه لا يلبث أن يأتية الأمر بالعزل ، وقلماء عزل أحدهم ولم يكن السجن مأواه .

١١ - ١٣ : سلطنة ثلاثة سلاطين

«سليمان بن إبراهيم» و «أحمد بن إبراهيم»

و «مصطفى بن محمد»

من سنة ١٠٩٩ - ١١١٥ هـ (ومن ١٦٨٧ - ١٧٠٣ م)

توالى على العرش العثماني في ست عشرة سنة ثلاثة

سلاطين ، ويدل ذلك طبعاً على ارتباك أحوال الدولة ، فلما خلع

السلطان «محمد الرابع» أودع السجن حتى مات سنة ١١٠٥ هـ ،

ويويع السلطان «سليمان الثاني» ، وبعد ٣ سنوات توفي ، فيويع

السلطان «أحمد بن إبراهيم» وتوفي سنة ١١٠٦ هـ ، فيويع

السلطان «مصطفى الثاني بن محمد الرابع» وبعد تسع سنوات

أقيل سنة ١١١٥ ، وتوفي سنة ١١١٩ هـ .

وتوالى على «مصر» في أثناء هذه المدة نحو عشرين والياً

أغضيتُ عن ذكرهم ، لعدم أهميتهم ، ولأن النفوذ انتقل منهم إلى

الأمراء المماليك ، وصار هؤلاء أصحاب الحل والعقد ، وبهذه

السلطة ينقضى الدور الأول من سيادة الدولة العثمانية على مصر ،

ويبدأ الدور الثاني .

العلم والأدب

ومشاهير العلماء والأدباء في مصر

الدور الأول من : العصر العثماني

من ٩٢٣ - ١١١٥ هـ

يجدر بنا بعد الإتيان على تاريخ مصر السياسي في الدول من سيادة الدولة العثمانية ، أن نأتى بفذلكة عن حالة مصر العلمية والأدبية في ذلك الدور .

يعد هذا الدور في تاريخ أداب اللغة العربية من عصر الانحطاط أو التقهقر ، لذهاب دولة العرب ، واستبداد سواهم في السيادة^(١) ، وانغماس القوم في الجهل ، ولولا القرآن لذهبت اللغة العربية برمتها .

وكانت الدول الإسلامية غير العربية قبل الدولة العثمانية كالبويهيين ، والسلاجقة ، والطولونيين ، والأتاكة ، والأيوبيين يجعلون اللغة العربية لغتهم الرسمية للمخاطبات والمكاتبات ، فتبقى

(١) هذه نظرة المؤلف للتاريخ الإسلامي ، وهي خاصة به .

ببقاء السياسة . أما العثمانيون فأهملوا هذه اللغة (١) ، وجعلوا اللغة التركية لغتهم الرسمية .

وزد على ذلك ما وافق الفتح العثماني أو حوائيه من الأسباب التي بعثت على تفهقر هذا القطر على الخصوص ، وذلك أن أهل أوربا اكتشفوا في أثناء ذلك طرقاً تجارية بحرية مثل : رأس الرجاء وغيره أغنت التجار عن إرسال تجارتهم مع الشرق الأقصى ذهاباً وإياباً عن طريق مصر وانصرفت همم العالم المتمدن في الجهة الأخرى إلى العالم الجديد وغيره بعد اكتشافها ، والمصريون يومئذ لا يعلمون شيئاً عن تلك الاكتشافات ، فكان هذا كله باعثاً على إهمال مصر وانحطاطها سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، ورتب ذلك طبعاً انحطاطها العلمي والأدبي (٢) .

وناهيك بفساد الأحكام ، ومطامع الولاة وتسابقهم في ظلم الرعية ، وسلب أموالهم ، مما يشغل الإنسان بنفسه عن طلب العلم أو التبصر فيه .

(١) لم يهمل العثمانيون اللغة العربية ، بل اكرموا هذه اللغة وأعطوا قدرها . انظر في ذلك : اللغة العربية في الدولة العثمانية ص ٤٧٧ في كتابنا والعثمانيون في التاريخ والحضارة ، دمشق ١٩٨٩ م .

(٢) ناقش الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى هذه الفكرة في كتابه حركات التجديد الإسلامي في العالم العربي الحديث . القاهرة ١٩٧١ .

وعليه فكان ينتظر أن تموت اللغة العربية ، ونعنى بموتها ضعف شأنها بالأدب والعلوم ، وإنما استبقاها الإسلام لإضطرار أصحابه إلى تعلّم هذه اللغة واختلاط الأمراء المماليك بالوطنيين وتعلم لسانهم .

وقد ساعد على إحياء أدب اللغة في تلك الفترة المظلمة أن بعض ولاة ذلك النور كان فيهم ميل العلم والعلماء . أشهرهم «إسكندر باشا الشركسي» تولى مصر سنة ٩٧٦ هـ - فقد تقدم أنه كان شديد الميل كثير التعلق بالعلم ونوّه ، «وحسين باشا» - تولاها سنة ٩٨٠ هـ - ، وشيد «محمد باشا» - سنة ١٠٠٤ هـ فإنه كان ينشط العلم والأدب ، وكذلك «محمد باشا الصوفي» وأهمهم وأقدمهم «داود باشا» - تولى مصر سنة ٩٤٥ هـ ، وما زال عليها أكثر من ١١ سنة - وكان محبا للعلماء شديد الرغبة في المطالعة واقتناء الكتب ، يتفق في سبيل استئناسها أو ابتياعها الأموال الطائلة ، فجمع مكتبة نفيسة . ومنهم «جعفر باشا» ، و«بیرام باشا» وقد ذكرناهم في أماكنهم في هذا الكتاب .

فبالنظر إلى ذلك ، ظلت أدب اللغة العربية حية لكنها انحصرت بالأكثر في كتب الفقه ، والدين ، أو جمع الأدب والشعر حتى أشعارهم أكثرها في مدح النبي وأكثر المؤلفات الفقهية

شروح وحواش ، وراج من ضروب الفقه على الخصوص الفقه الحنفى ، لأنه مذهب الدولة العثمانية ، والفقه الشافعى لأنه مذهب المصريين .

وكان الأزهر فى تلك المدة مبعث نور العلم ، والمدرسة العامة للعلم الإسلامى ، وأكثر مشاهير العلماء كانوا من طلبته . وكان الطلاب يقصدونه من اقاصى العالم ، وله فضل كبير فى استيفاء أصول العلوم التى كانت رائجة فى ذلك العصر ، وأكثر نوابغ مصر فى النور الذى نحن فى صدره من تلاميذه ، وسنأتى بشذرات من تراجم مشاهير ذلك الدور ، ونرتبهم حسب المواضيع مع مراعاة سننى الوفاة - ما بين سنة ٩٢٢ و ١١١٥ هـ - ولذلك كان بعض هؤلاء عاصر السلاطين المماليك ، وإنما توفى فى عهد الدولة العثمانية .

قبل التقدم إلى الكلام عن هؤلاء نذكر عالماً هو إمام العلماء فى القرن التاسع للهجرة نعتى «جلال الدين السيوطى» ، توفى قبل الفتح العثمانى بإثنتى عشرة سنة (٩١١ هـ) . وكان علماً كثيراً التأليف والتعليم ، ألف فى كل موضوع حتى زادت كتبه على بضع مئات ، وتخرج عليه كثيرون ومنهم جماعة سيأتى ذكرهم فى جملة نوابغ العصر العباسى ^(١) الذى نحن فيه .

(١) يعتمد المؤلف هنا العصر العثمانى وليس العباسى كما كتب .

وبما أننا سنقتصر في ما يلي على الذين اشتهروا من
المصريين دون سواهم فيشق علينا تحديد المراد بالمصري في هذا
الباب ، لأننا نعرف جماعة كبيرة ولدوا خارج مصر ثم جاؤوا
فتعلموا في أزهرها ، وتوطنوها وألفوا الكتب فيها فهؤلاء نعدهم
من النابغين في مصر ، ونذكر أخبارهم ونشير إلى أهم مؤلفاتهم ،
وهل طبعت ؟ وأين يوجد الخطية منها ؟

١ - الشعراء والأدباء

١ - «عائشة الباعونية»

عاشت بمصر نحو سنة ٩٢٩هـ ، لها أشعار في مدح النبي
سمتها : «الفتح المبين في مدح الأمين» منها نسخ خطية في مكاتب
برلين والمتحف البريطاني .

٢ - «قنصوبن صادق»

من تلامذة «جلال الدين السيوطي» المتقدم ذكره ، نبغ في
أواسط القرن العاشر ، ومن مؤلفاته : «السحر الحلال من إبداع
الجلال» في شكل المقامات ، منه نسخة خطية المكتسب
الهندي بلندن .

وكتاب «مرايع الألباب في مرايع الآداب» شعر . منه نسخة في
المتحف البريطاني .

٣ - «زين الدين الحميدى» :

كان طبيباً بمصر ، توفى سنة ١٠٠٥ هـ ، وله ديوان فى مدح النبى سماء الدر المنظم فى مدح الحبيب الأعظم، طبع فى يولاق سنة ١٢١٢ . و «وتعليق البديع لمديح الشفييع» منه نسخ خطية فى مكاتب أوربا . ومنظومة فى الجناس ، منها نسخة فى مكتبة برلين .

٤ - عبد الباقي الاسحاقى المنوفى :

توفى سنة ١٠٦٠ هـ فى منوف ، وله ديوان «سُلافة الإنشاء فى الشعر والإنشاء» . منه نسخة خطية فى مكتبة فيينا .
٥ - «يوسف عبد الجواد الشربيتى»
عاش نحو ١٠٩٨ هـ ، له كتاب : «من القحوف» طبع بمصر والإسكندرية مراراً .

٢ - المؤرخون ونحوهم

١ - «أبو البركات ابن إياس العامرى الشركسى» .

هو من تلامذة السيوطى ، توفى سنة ٩٣٠ هـ ، من مؤلفاته :

١ - كتاب «مرج الزهور فى وقائع الدهور» ، وهو تاريخ عام ، منه نسخ خطية فى فيينا وباريس ووطاً .

٢ - كتاب «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» وهو خاص بتاريخ مصر إلى سنة ٩٢٨ هـ مرتب على الأيام والسنين نحو كتاب «الجبرتى» ، وقد شهد فتح العثمانيين مصر بنفسه ، ووصفه ، طبع فى القاهرة سنة ١٣٠١ وفى بولاق سنة ١٣١١ .

٣ - «مشق الأزهار فى عجائب الأقطار» وهو يتعلق بالنجوم - منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية وفى أكثر مكاتب أوروبا .

٤ - «نزهة الأمم فى العجائب والحكم» ، منه نسخة خطية فى مكتبة آيا صوفيا بالاستانة (١) .

٢ - «أبو العباس بن عبد السلام شهاب الدين المنوفى الشافعى» ، توفى سنة ٩٣١ ، تعلم فى القاهرة ، وتولى القضاء فى بلده «منوف» وله كتاب : «الفيض المديد فى أخبار النيل السديد» ، منه نسخة خطية فى مكتبة مرسيليا ، وكتاب «البدر الطالع فى الضوء اللامع» ، منه نسخة فى مكتبة ليدن .

٢ - «محمد بن على الداودى» : من تلامذة «السيوطى» ، (١) لم يأت جرحى زيدان على ذكر كل أعمال ابن إياس ، لأن له سبعة كتب ، لم يذكر منها هنا إلا ثلاثة . انظر بيلوجرافيا بأعمال ابن إياس ومخطوطاته فى : محمد حرب ، حملة السلطان سليم الأول على مصر والشام (باللغة التركية) ص ٥٢ ، استانبول ١٩٨٦ م .

توفى سنة ٩٤٥ هـ ، له كتاب طيقات المفسرين منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٤ - أحمد بن على بن نورالدين المحلى «المعروف» «بابن زنبيل الرمال» .

عاش نحو سنة ٩٦٠ هـ ، له كتاب فى تاريخ أخذ مصر من الشراكسة «أى فتح السلطان «سليم» مصر» . منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية ، وفى مكاتب فيينا وباريس وليدن ومنشن (١) . وكتاب «تحفة الملوك والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب والغرائب» هو كتاب جغرافى منه نسخة خطية فى مكتبة أكسفورد . وكتاب «المقالات فى حل المشكلات» . منه نسخة فى المكتبة الخديوية . وكتاب «القانون فى الدنيا» بالنجامة .

٥ - «بدر الدين المنهاجى» - خطيب مسجد السيدة نفيسة :

توفى سنة ٩٦٠ هـ ، له كتاب «البدور السافرة فى من ولى القاهرة» ، وهى أرجوزة تشتمل على ولاية مصر من الفتح إلى سنة ٩٥٦ هـ ، منها نسخة خطية فى مكتبة فيينا . وكتاب «النجوم الزاهرة» فى ولاية القاهرة إلى سنة ٩٦١ هـ ، منه نسخة فى المكتبة الخديوية وأخرى فى مكتبة برلين .

(١) يقصد ميونخ .

٦ - «عبد الواحد البرجمي» :

توفي سنة ١٠١٧ هـ ، له كتاب «الرياض الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة» ، منه نسخة في مكتبة الجزائر .

٧ - «محمد بن عبد المعطي الإسحاقى المنوفى» :

كتب نحو سنة ١٠٣٢ هـ له :

١ - كتاب «الروض الباسم في أخبار من مضى من العوالم» وهو مختصر تاريخ الإسلام من ظهوره إلى دولة الأمويين ، فالعباسيين ، فالفاطميين ، فالأيوبيين ، وتاريخ مصر إلى سنة ١٠٣٢ ، منه نسخ خطية في مكاتب باريس والمتحف البريطاني ، وأحسبه طبع .

٢ - كتاب «لطائف أخبار الأول في من تصرف بمصر من الدول» طبع بمصر مراراً .

٨ - «عبد الكريم الهندى بن سنان» :

توفي سنة ١٠٤٥ هـ ، كان قاضياً في حلب وجاء مصر ، له كتاب «تراجم كبار العلماء والوزراء» ، منه نسخة خطية في مكتبة فيينا .

٩ - «سعد الدين الفخرى» :

كتب سنة ١٠٥٠ هـ ، له كتاب «نخبرات الاعلام بتاريخ

أمراء مصر فى الإسلام» ، منه نسخة خطية فى برلين ، و غوطا ،
وباريس .

١٠ - شمس الدين بن أبى السرور البكرى الصديق
المصرى ، : توفى سنة ١٠٦٠ هـ ، له :

١ - كتاب «التحفة البهية فى تملك آل عثمان الديار
المصرية» منه نسخة خطية فى فيينا وغيرها .

٢ - كتاب «الروضة الزهية فى ولاية مصر القاهرة المعزية»
من أقدم الزمان إلى سنة ١٠٢٥ هـ ، منها نسخ خطية فى «غوطا»
و«أكسفورد» .

٣ - كتاب «الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة»
إلى سنة ١٠٥٣ هـ منه نسخ خطية فى مكاتب منشئ والمتحف
البريطانى وباريس .

٤ - كتاب «نور المعالى الغالية» منه نسخة خطية فى
مكتبة نور عثمانية بالأستانة .

١١ - «إبراهيم بن أبى بكر الصالحى العوفى» :
توفى سنة ١٠٧١ هـ ، له كتاب «تراجم الصواعق فى
واقعات السناجق» وهو تراجم سناجق مصر - أى أغواتها
وأمرائها . ومنه نسخة خطية فى مكاتب منشئ وباريس .

١٢ - «عبد القادر الفيومي العوفي الحنفى»

ولد فى القاهرة ، وتعلم فيها وفى حلب ودمشق والأستانة .
ثم تعين قاضياً على القاهرة . ثم عاد إلى الأستانة وغيرها ،
وتوفى أخيراً فى الأستانة سنة ١٠٧٨ . له كتاب «التذكرة» و«بلوغ
الأرب» و«السؤل للتشوق بذكر نسب الرسول» ، منه نسخة خطية
فى المكتبة الخديوية وغيرها ، وله كتاب «نفائس اللؤلؤ والمرجان فى
إحزاب محلات من سورة آل عمران» .

٣ - اللغويون

١ - «أبو بكر الشنوانى» :

تعلم فى القاهرة ، وتوفى فى سنة ١٠١٩ هـ ، وله كتاب
«جلية أهل الكمال بأجوبة أسئلة الجلال» - يعنى «جلال الدين
السيوطى» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٢ - «شهاب الدين الخفاجى» :

توفى سنة ١٠٦٩ هـ ، ولد فى سرياقوس بضواحي
القاهرة ، وتعلم على عمه «الشنوانى» - المتقدم ذكره - ثم جاء
القاهرة ورحل إلى الأستانة و«سلانيك» وعينه السلطان «مراد»
قاضياً للعسكر فى مصر فجاءها ، ثم نقل منها إلى «دمشق»

وحطب غالاستانة حتى توفي . وقد ترجم نفسه في ذيل كتابه
«ريحانة الالباء» - الآتى ذكره - .

وأما كتبه فمنها :

١ - منظومات كثيرة متفرقة منها جانب في نسخة خطية
بالمكتبة الخديوية .

٢ - كتاب «هدايا الزوايا في ما الرجال من البقايا» وهو
تراجم العلماء من معاصريه وأساتذة أبيه في الشام والحجاز
ومصر والمغرب وبلاد الروم ، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية،
ومثلها في برلين وغوطة وفيينا وبطرسبورج والأستانة وغيرها .

٣ - كتاب «ريحانة الالباء ونزهة الحياة الدنيا» وهو من
كتب الأدب جمع فيه أشعاراً وأخباراً و انتقادات وملاحظات مليدة
وقد طبع بمصر مراراً .

٤ - كتاب «طراز المجالس» في كتب الأدب ، طبع
بالقاهرة سنة ١٢٨٤ .

٥ - «شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدخيل» ،
طبع بمصر سنة ١٢٨٢ وغيرها .

٦ - شرح درة الفواص ، منها نسخة في مكتبة
أكسفورد .

٧ - شرح كتاب الشفاء فيها .

٨ - حاشية على البيضاوى فيها أيضا .

٤ - المحدثون

١ - «شمس الدين الدمشقى الفالحى» :

توفى فى البرقوقية بالقاهرة سنة ٩٤٢ هـ ، له :

١ - كتاب «سبل الهدى والإرشاد فى سيرة خير العباد»

وتعرف «بالسيرة الشامية» ، وهى مشهورة ، ومنها نسخة خطية فى المكتبة الخديوية ، وأحسبه طبع .

٢ - كتاب «الآيات العظيمة الباهرة فى معراج سيد أهل

الدنيا والآخرة» منه نسخة خطية فى مكتبة ليدن .

٣ - «عقود الجمان فى مناقب الإمام أبى حنيفة النعمان»

منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية وفى فيينا وأياصوفيا .

٤ - كتاب «مطلع النور فى فضل الطور وقمع المعتدى

الكفور» ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٥ - كتاب «الفضل المبين فى الصبر عند فقد البنات

والبنين» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٢ - «عبد الرحمن المناوى الشافعى» :

توفى سنة ١٠٣١ هـ ، ولد فى القاهرة ، ونشأ فى حجر والده ،

ودرس العلوم الإسلامية ، خصوصاً التصوف ، والحديث ، وأخذ
طريقة الخلوتية وطرقاً أخرى ، وتولى التدريس فى المدرسة
الصالحية ، وكثر حساده ، والطاعنون عليه ، واعتل وقاسى آلاماً
شديدة حتى مات ، له مؤلفات كثيرة نذكر الباقى منها :

١ - «كنوز الحقيقة فى حديث خير الخليقة» مرتب على
الأبجدية وفيه نحو ١٠,٠٠٠ حديث . طبع فى بولاق سنة ١٢٨٦
وفى القاهرة ١٣٠٥ ، وله مختصرات .

٢ - «الجامع الأزهر من حديث النبى الأئمة» ، منه نسخة
خطية فى المكتبة الخديوية .

٣ - «الإتحافات السننية بالأحاديث القدسية» ، منه نسخة
خطية فى المكتبة الخديوية .

٤ - «النزعة الزاهية فى أحكام المحاكم الشرعية» ، منه
نسخة فى المكتبة الخديوية .

٥ - «تيسير الوقوف على غوامض الحكام والوقوف» ، منه
نسخة فى المكتبة الخديوية ، وله غير ذلك كتب كثيرة لا محل
لذكرها أثارها موجودة فى المكتبة الخديوية .

٦ - «على بن إبراهيم نور الدين الطبى القاهرى» صاحب

السيرة الحلبية ، ولد في القاهرة وتوفي بالصالحية سنة ١٠٤٤ هـ .
أشهر مؤلفاته

- ١ - كتاب «إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون»
المشهور بالسيرة الحلبية ، وقد طبع في ثلاثة مجلدات ضخمة .
- ٢ - «النصيحة العلوية في بيان حسن طريقة السادة
الأحمدية» (أحمد البدوي) ، منه نسخة خطية في مكتبة باريس .
- ٣ - «عقد المرجان في ما يتعلق بالجان» ، منه نسخة
خطية في المكتبة الخديوية .

٤ - «عبد السلام اللقاني» المتوفى سنة ١٠٧٨ هـ تتلف على
أبيه وورثه في التدريس بالأزهر ، ومن مؤلفاته «كتاب ترويح القواد
بمولد خير العباد» ، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية .
المحدثون كثيرون في هذا الدور ، يضيق المقام عن ذكرهم فننقدم
إلى الفقهاء .

٥ - الفقهاء

الفقه الحنفي

- ١ - «زين العابدين بن نجيم المصري» المتوفى سنة ٩٧٠ هـ وله
من المؤلفات :

١ - كتاب الأشياء والنظائر ، وهو موجود في كل المكاتب
بأوروبا وغيرها ، وطبع في الهند سنة ١٢٤١ .

٢ - الفتاوى الزينية فى فقه الحنفية ، منه نسخة فى المكتبة الخديوية .

٣ - الفوائد الزينية فى فقه الحنفية ، منه نسخة فى مكتبة آيا صوفيا .

٤ - الخير الباقي فى جواز الوضوء فى الفساقى ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية . وله كتب ورسائل أخرى فى المكتبة الخديوية وسائر المكاتب .

٢ - «شهاب الدين التمرتاشى الفُزى»

درس فى غزة ، ثم فى القاهرة حتى توفى سنة ١٠٠٤ هـ ، وله :

١ - «تنوير الأبصار وجامع البحار» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية ، وفى أكثر مكاتب أوربا والهند والأستانة . وله شروح عديدة لا محل لذكرها .

٢ - «عمدة الحكام» منه نسخة فى برلين .

٣ - «الوافى فى الأصول» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٤ - «تحفة الأقران» أرجوزة مشروحة ، منها نسخة فى المكتبة الخديوية .

٥ - «عقد الجواهر النيرات فى بيان خصائص الكرام
العشرة الثقات» منه نسخة فى المكتبة الخديوية .

٦ - «الفتاوى» ، فيه أيضا .

٢ - «على بن محمد بن على بن غانم المقدسى الخزرجى نور
الدين» :

ولد فى القاهرة سنة ٩٢٠ وتوفى سنة ١٠٠٤ هـ ، وتولى
التدريس فى الأزهر ، وله مؤلفات عديدة بقى منها خمسة أكثرها
فى الحديث ؛ موجودة فى المكتبة الخديوية خطية .

٤ - «أبو الإخلاص المصرى الشرنبلالى» :

من أكابر أساتذة الأزهر ، توفى سنة ١٠٦٩ هـ ، وخلف
مؤلفات كثيرة فى الفقه الحنفى ، بقى منها ١٦ مؤلف (١) أكثرها
خطى ، ومنه أمثلة فى المكتبة الخديوية يطول بنا تعدادها ووصفها ،
فإن ذلك من شأن تاريخ آداب اللغة العربية ، وإنما أردنا هنا أن
نأتى بأمثلة فى حال العلم فى العصر العثمانى .

٥ - «عمر الدفرى بن عمر الزهرى الأزهرى» :

وهو أيضا من أساتيد الأزهر ، توفى سنة ١٠٧٩ هـ وله

(١) هكذا فى الأصل والمصحح فيه «مؤلفاء» .

بضع مؤلفات ، منها نسخ خطية في المكتبة الخديوية وكلها في
الفقه الحنفى .

٦ - ومثله «إبراهيم بن سليمان الأزهرى» المتوفى سنة
١١٠٠ هـ ، وغيره .

الفقه المالكى

١ - «ابن جبريل المنوفى المصرى الشاذلى» :
توفى سنة ٩٤٩ هـ ، وله كتاب «المناسك» و «تحفة
المصلحين» على مذهب الإمام مالك ، وكلاهما في المكتبة الخديوية .
٢ - «بدر الدين القرافى المصرى المالكى» :
توفى سنة ١٠٠٨ ، له رسائل في المذهب المالكى تزيد على
ست ، كلها موجودة في المكتبة الخديوية ،
٣ - «أبو النور المالكى» :
وهو أيضا من علماء المالكية الذين خلفوا أثرا ،
توفى سنة (١) .

٤ - «برهان الدين اللقانى المالكى» :
من أساتذة الأزهر ، توفى سنة ١٠٤١ هـ ، خلف مؤلفات
عديدة بقى منها ستة :

(١) هكذا في الأصل ، وهى ٩٢٦ هـ .

١ - جوهرة التوحيد ، منها نسخة خطية فى المكتبة
الخدوية ، وفى أهم مكاتب أوربا ، لها شروح عديدة بعضها
مطبوع فى القاهرة .

٢ - الفصول فى الفقه .

٢ - نصيحة الأصول .

٤ - مقدمة فى العشق .

٥ - شرح الشمايل وكلها منها نسخ خطية فى المكتبة
الخدوية .

٥ - «نور الدين الأجهورى» :

ولد فى أجهور شمالى القاهرة سنة ٩٦٧ هـ ، وتوفى سنة
١٠٦٦ هـ ، وكان شيخ المالكية فى الأزهر ، وخلف عدة مؤلفات بقى
منها إلى الآن خمسة عشر ، أكثرها موجود فى المكتبة الخديوية .

ومنهم أحمد الفيومى المتوفى سنة ١٠٨٤ هـ ، صاحب «حسن
السكوك فى معرفة آداب الملوك» . و «عبد الباقي الزرقانى» المتوفى
سنة ١٠٩٩ هـ ، صاحب شرح مختصر الخليل ، وغيره . و «برهان
الدين الشبراخيتى» ، توفى سنة ١١٠٦ هـ ، صاحب شرح
المختصر و «شرح الأربعين» ، وغيرهم .

الفقه الشافعى

١ - «زين الدين أبو يحيى زكريا الأنصارى» :

هو أشهر أئمة الشافعية فى ذلك العصر ، ولد فى سفينة شرقى القاهرة ، وتعلم وتتفقه حتى صار أستاذاً فى القاهرة ، ثم صار كبير قضاة الشافعية ، وتوفى سنة ٩٢٦ هـ ، وكان ثقة علامة ، خلف مؤلفات يزيد عددها على ٣٥ كتاباً أكثرها لا يزال محفوظاً خطياً فى المكاتب الشهيرة فى العالم المتعدن ، وجانب كبير منها فى المكتبة الخديوية ككتاب «الؤلؤ النظيم فى روم التعلم والتعليم» وكتاب «المعصد لتخلص ما فى المرشد فى الوقف والابتداء» ، و«فتح الرحمان بكشف ما يلبس القرآن» و«فتح الجليل ببيان خافى أنوار التنزيل للبيضاوى» و«منهاج الطلاب فى الفقه» ، وغيرها كثير ، وهى فضلاً عن وجودها فى المكتبة الخديوية ، توجد أيضاً فى أهم مكاتب أوروبا .

٢ - «شهاب الدين الرملى الأنصارى» :

المتوفى سنة ٩٥٧ هـ ، وهو من أساتذة الأزهر ، وله الفتاوى المعروفة باسمه ، ومنها نسخة فى المكتبة الخديوية وله غيرها .

٣ - «شمس الدين الشربيني القاهرة (١) الخطيب» :

المتوفى سنة ٩٧٧ هـ ، له شرح «منهاج الطالبين» منه نسخة في مكتبة برلين ، «السراج المنير» في الإعانة على معرفة ربنا العليم الخبير» ، طبع في القاهرة سنة ١٣١١ و «مناسك الحج» طبعت أيضا ، وغيرها .

٤ - «عبد الله بن بهاء الدين الشنشوري» :

من علماء الأزهر بالقاهرة ، توفى سنة ٩٩٩ هـ ، له عدة مؤلفات منها : «المختصر في مصطلح أهل الأثر» له شروح ، منها نسخ خطية في مكتبة برلين و غوطا وباريس . «وقرة العين» و «الفوائد الشنشورية» و «اللؤلؤة السنية» وكلها موجود في المكتبة الخديوية .

٥ - ومنهم «عمر الفارسكوري» المتوفى سنة ١٠١٨ هـ ، و «على

الشهرملى المتوفى» سنة ١٠٨٧ هـ ، و «عبد اللطيف البشبيشى» المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ ، و «إبراهيم البرماوى» الأستاذ بالأزهر ، توفى سنة ١١٠٦ ، وغيرهم ونجد من مؤلفاتهم أمثلة بالمكتبة الخديوية .

(١) هكذا في الأصل .

الفقه الحنبلى

وتظهر من الفقهاء الحنابلة بمصر فى ذلك العصر :
«إبراهيم الزينى الحنبلى» المتوفى سنة (١) ، وله كتاب : «روض
المربى» فى مناسك الحج - موجود فى المكتبة الخديوية ، واعتبر
ذلك فى سائر علوم القرآن .

٦ - التصوف

وتاهيك بالتصوف ، فقد نبغ فيه جماعة كبيرة بمصر ،
منهم : «على الشونى» المتوفى سنة ٩٤٤ هـ ، «أبو المكارم البكرى
الصديقى الأشعرى» توفى سنة ٩٥٢ هـ ، وله بضعة وعشرون
مؤلفاً فى التصوف ، بعضها مطبوع والبعض الآخر موجود خطأ
فى المكتبة الخديوية وغيرها .

وأشهر المتصوفة فى ذلك العصر :

«أبو المواهب عبد الوهاب الشعرانى الأتصارى» ، عاش
عيشة الصوفية وتوفى سنة ٩٧٣ هـ ، وله مؤلفات تعد بالعشرات
منها :

١ - «الدرر المنثورة فى بيان زبد العلوم المشهورة» ، وهى
كالموسوعة فى القرآن وعلومه ، واللغة ، والنحو ، والمنطق ،

(١) هكذا فى الأصل .

والتصوف ، منها نسخة خطية فى المكتبة الخديوية وفى مكاتب
غولما وبرلين .

٢ - «اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الاكابر» ، طبع
فى القاهرة مراراً .

٣ - «مراشد القلائد فى علم العقائد» وغيره .

٤ - أشهرها كتاب «لوامع الانوار» المعروف بطبقات
الشعرانى ، طبع مراراً ، وغير هذه الكتب كثير لا محل لذكره .

ومنهم «كريم الدين الضلوتى» المتوفى سنة ٩٨٦ هـ
و «أحمد بن عثمان الشرنوبى» توفى سنة ٩٩٤ هـ وأحمد بن
محمد المتبولى المعيد فى المدرسة المؤيدية بالقاهرة توفى سنة
١٠٠٣ هـ . و «محمد الحجازى الجيزى» المتوفى سنة ١٠٠٣ .
وقائد بن مبارك الإبيارى سنة ١٠١٦ . والبرلسى سنة ١٠٩٧
وغيرهم .

٧ - سائر العلوم

فترى مما تقدم أن أكثر اشتغال أهل ذلك العصر بالعلوم
الدينية ، من شرح أو تعليق ، أو اختصار أو نحوها ، على أنه ينبغ
فيهم غير واحد فى العلوم الأخرى : فمن المنجمين : «بدر الدين
مسبط الماردينى» توفى سنة ٩٢٤ . وكان مؤلفاً فى الأزهر ، وله

عدة مؤلفات في التوقيت ، منها نسخ خطية في المكتبة الخديوية .
«عبد القادر المنوفي» المتوفى سنة ٩٨٠ هـ ، كان مؤقتاً في مدرسة
الغورية .

و«مصطفى بن شمس الدين الشركسي الدمياطي الخلوتي»
المتوفى سنة ١٠٣٨ هـ .

و«عبد الله المقدسي الأزهرى» سنة ١٠٧٠ هـ و«رضوان
الهندي الفلكي الرزاز» سكن بولاق وتوفى سنة ١١٢٢ وغيرهم .

ومن الأطباء في ذلك العصر :

«مدين بن عبد الرحمن القوسوني» توفى سنة ١٠٤٤ هـ له
كتاب «قاموس الأطباء» في المفردات ، منه نسخة خطية في المكتبة
الخديوية .

و«شهاب الدين القليوبي» توفى سنة ١٠٦٩ م ، له كتاب
المصابيح السنية في طب البرية ، منه نسخة خطية في المكتبة
الخديوية . و«تذكرة في الطب» فيها أيضاً ، وله كتب في مواضيع
طبية وغيرها يزيد عددها على بضعة عشر مؤلفاً . أكثرها موجود
في المكتبة الخديوية خطأ ، وبعضها مطبوع ، منها كتاب «نوار
القليوبي» طبع مراراً ، وكذلك «تحفة الراغب» وغيره .

ومن العلماء الأعلام في كل فن وعلم :

«مرعى بن يوسف بن أبي بكر الكرمي زين الدين المقدسي» المعروف «بالشيخ مرعى» . ولد في طول الكرم قرب نابلس ، وتلقى العلم في القدس وفي القاهرة . استقر بالقاهرة أستاذا للفقه على مذهب الحنابلة في جامع «ابن طولون» حتى توفي سنة ١٠٣٢ هـ . وله مؤلفات عديدة ، بقى منها ٢١ كتاباً بعضها طبع وانتشر ، والبعض الآخر لا يزال خطأ في المكاتب الشهيرة . فما طبع من كتبه كتاب ، «بديع الإنشاء والصفات في المكاتبات والمراسلات» طبع مراراً في الأستانة وبولاق والقاهرة . وما لم يطبع كتاب «قلائد المرجان في النسخ والمنسوخ من القرآن» ، منه نسخ خطية في مكتبة برلين . وكتاب «الكلمات البينات» منه نسخة خطية بالمكتبة الخديوية ، وغيرها كثير لا محل له .

تلك خلاصة تراجم العلماء والأدباء والشعراء وأمثلة من مؤلفاتهم في الدور الأول في العصر العثماني بمصر على قدر ما يسمح به المقام ، فلنعد (١) سياق التاريخ السياسي من الدور الثاني ، فما بعده .

(١) لعله نسي : حرف إلى .

السدور الثاني

من سيادة الدولة العثمانية على مصر

من سنة ١١١٥ - ١١١٧ هـ ومن ١٧٠٣ -

١٧٦٣ م

انتقال النفوذ إلى المماليك

استغرق هذا الدور ٦٢ سنة تولى في اثنتائها على العرش العثماني أربعة سلاطين ، ويمتاز عن الدور السابق أن النفوذ فيه تحول من الجند والباشا إلى البكوات المماليك ، وقبل التقدم إلى ذكر أخبار هذا الدور نعهد الكلام في المماليك وسيادتهم .

قد علمت من النظام الذي وضعه السلطان سليم عند فتح مصر أنه جعل للأمراء الذين بقوا من دولة المماليك عميلاً يكون وسيلة للموازنة بين سلطة الباشا وقوة الجند لأن أولئك الأمراء كانوا أعداء لكلا الفريقين . فجعلهم حكاماً على الأقاليم وهي ١٢ إقليماً أو سنجقية (مديرية) ^(١) يتولى كلا منها أمير من المماليك

(١) الواقع أن العثمانيين تسموا مصر إلى أربع عشرة ولاية سبع منها في كل وجه (بحرى - قيسى) انظر : حسين أفندي الروزنامي : ترتيب الديار المصرية نشر / شفيق غريبال بعنوان «مصر عند مفترق الطرق» (١٧٩٨ - ١٨٠٠م) مجلة كلية الآداب المجلد الرابع ج ١ ، مايو سنة ١٩٣٦ ، الباب السادس السؤال الأول ص ٣٢ .

يلقب بك ، ولذلك عرف الأمراء المماليك أيضا بالبكوات المصرية .
ومنهم أمير يتولى حكومة القاهرة كانوا يسمونه : «شيخ البلد» ،
ومشيخة البلد منصب ضعيف في حد ذاته ، لكن الأحوال جعلت
أهم مناصب مصر . وكان الأمراء المماليك كمعادتهم في أيام
سلطنتهم يتوقعون بالاستكثار من المماليك بالشراء . ومنهم تتألف
الأحزاب وينسب الحزب صاحبه (٢) أو زعيمه ، فيقولون مثلا :
المماليك القاسمية نسبة إلى : «قاسم بك» والرضوانية إلى رضوان
بك كما ستري .

وكانوا في أول سلطنة العثمانيين قد أدهشهم الفتح وقنعوا
بالبقاء في مناصب الحكومة . وكانت الدولة العثمانية شديدة ولها
هيبة .

فلما ذهبت هيبتها بتوالي الزمن - كما تقدم - اشتدت
سواعدهم ، وصاروا يحتقرون ولايتها ، ولا سيما بعد أن وقع
الخلاص بين الباشوات والجند وتداخلوا ، وجعل النفوذ يتحول إليهم
رويدا رويدا على مقتضى الأحوال حتى صار منصب شيخ البلد
أهم المناصب وصاحبه أعظم الأمراء ، وإليه يرجع الحل والعقد -
فلنعد إلى سياق التاريخ .

(١) هكذا في الأصل ولعله نسي حرف إلى .

١ - سلطنة أحمد بن محمد

من سنة ١١١٥ - ١١٤٣ أو من ١٧٠٣ - ١٧٣٠

تولى السلطان أحمد المذكور وعمره بضع وثلاثون سنة .
وكان حكيماً ، فأنعم على الإنكشارية بالأموال وفوض إليهم قتل
المفثى «فيض الله افندي» لأنه قاومهم في أعمالهم فلما استقر
الأمر وثبت قدمه في الدولة ، اقتصر من الإنكشارية ، فقتل منهم
جمعاً كبيراً وعزل رئيسهم - الأغا - وولى عليهم ابن اخته الداماد
«حسن باشا» . ولكن الدسائس غلبت على هذا التعيين فعزل وتولى
غيره . وتكاثر عزل الصدور ، وشغلت الدولة بداخليتها عن
خارجيتها ، ولم تنتبه لما كان يجربه «بطرس الأكبر» (١) ملك
الروس في بلاده ولا إلى سياسته في خارجها ، وهي تقضى
بإضعاف جيرانه حتى يبتلعهم . وكان قد أخذ بإخراج مشروعه
إلى حيز العمل ، فحارب شارل الثاني ملك أسوج (٢) وطلبه .

وأفضت الوزارة إلى «محمد باشا البلطجي» فمال إلى
إشهار الحرب على الروس وقاد الجيوش بنفسه . وبعد وقائع
عديدة حصر العثمانيون إمبراطور الروس وامراته ، ولو طال

(١) بطرس الأكبر : ١٦٧٢ م - ١٧٢٥ م .

(٢) هي السويد .

الحصار لغلبوا على أمرهم وسلموا (١) ، ولكن «كاثرينا» زوجة الإمبراطور «بطرس» استمالت «البلطجي» المذكور ، وأغرته بالجواهر ، فأعطته كل ما كان معها منها ، فرفع الحصار واكتفى بمعاهدة لم تنف الدولة فتيلاً .

وتوالى الصدور ، وهم مختلفون ميلاً إلى الحرب أو السلم فكانت حال الدولة تختلف باختلاف ذلك مما ليس هو محل الكلام عليه .

وفي عهد هذا السلطان ، دخلت الطباعة المملكة العثمانية ، وتأسست دار الطباعة في الأستانة بفتوى من شيخ الإسلام تقضى أن لا يطبع القرآن بحروف الطباعة ، خوفاً من وقوع التحريف فيه ، وتولى على «مصر» سنة ١١١٩ «حسن باشا» والياً .

قاسم بك وذو الفقار بك

أو المماليك القاسمية والفقارية

أما مصر فصار النفوذ فيها إلى الأمراء المماليك - كما تقدم - وكانوا في أيام هذا السلطان حزينين كبيرين يُعرفان بالمماليك «القاسمية» نسبة إلى «قاسم بك» و «الفقارية» إلى «ذى

(١) الصحيح لقلبا على أمرهما وسلموا .

الفقار بك» وكان هذان الحزبان لا ينفكان عن المنافسة ، يحاول كل منهما اكتساب النفوذ دون الآخر .

لما أصل هذين الحزبين ففيه أقوال منها : أنهما ينسبان إلى أخوين هما : « قاسم بك » و « ذو الفقار بك » ولدى سعود بن أحد أمراء المماليك في عهد السلطان « سليم الفاتح » وأن السلطان سليم هو الذي نشطهما ونشط أحزابهما .
وقد ذكر « الجبرتي » لذلك قصة طويلة لا حاجة بنا إلى ذكرها .

وبعضهم يقول إن هذين الحزبين يُنسبان إلى « قاسم عيواظ بك » الدفتردار و « ذي الفقار بك الكبير » سنة ١٠٥٠ هـ (١) . وكان « قاسم عيواظ » رئيس الطائفة القاسمية ، و « ذو الفقار » رئيس (١) الصحيح أن الاسم الذي ذكرته المصادر المعاصرة هو قاسم بك الدفتردار الذي ينسبون إليه فرق القاسمية ، و « ذو الفقار بك » رأس فرقة القارية ، أما إضافة اسم عيواظ (مرض) كما تذكره الوثائق ولكنه ينطق عيواظ حسب لهجة الأتراك) فقد أوقع المؤلف في خطأ تخطى معه فترة طويلة من تاريخ مصر العثمانية لقاسم بك الدفتردار حسب رواية الجبرتي كان سنة ١٠٥٠ هـ أما الخط الذي وقع فيه المؤلف بين شخصية قاسم الدفتردار وشخصية بك مملوك قاسمي وهو عيواظ بك الذي قتل أيام ثورة إبراهيم أحمد ١٧١١ م فليس هناك علاقة بين قاسم الدفتردار و عيواظ بك سوى إنهما قاسميان . المحقق .

الفقارية . وكان لكل من هاتين الطائفتين مناقب خاصة بها .
«الفقارية» : كانت توصف بالكثرة والسخاء
و«القاسمية» : بالثروة والبخل .

وشارية «الفقارية» : علم أبيض مزاريقه زمانة .
والقاسمية : علم أحمر .

وكانت هاتان الفئتان قبل تولى وحسن باشا المتقدم ذكره .
فى وفاق تام . فلما جاء خشى من اتحادهما فعمد إلى الدسائس ،
فألقي بينهما الشقاق فحصلت بين الطائفتين وقائع دامت ثمانين
يوماً ، فكانوا يخرجون من القاهرة إلى مكان يعرف بقبة العزب
يوماً ، ويأخذون فى الكفاح من شروق الشمس إلى غروبها ثم
يعودون إلى القاهرة ، فيقضون الليل بسلام فى بيوتهم بين نساءهم
وأولادهم ثم يعودون فى الصباح إلى المحاربة . ومن الغريب أن
هذه المحاربات لم تؤثر فى الراحة العمومية مطلقاً ، فظلت
الأشغال جارية فى مجراها والحوانيت والمخازن تفتح وتغلق
كالعادة .

مشيخة إسماعيل بك

وانتهت تلك الوقائع بوفاة «قاسم عيواذ بك» فأسف عليه
الناس ، وبكوه بكاهم على حاكم عادل أو أب حنون بار . ولم يبق

صديق ولا عدو إلا بكاء ، لأنه كان فضلاً عن حكمته وعدله ودعته
شجاعاً بأسلاً أبى النفس ، فأتقوا ابنه «إسماعيل بك» مكان
«شيخ بلد» .

وقد تقدم أن مشيخة البلد منصب كان يتولاه أحد البكوات
المعاليك ، كما يتولون إدارة المديرية ؛ ويقابل محافظ القاهرة
اليوم .

ولم يكن المنصب نفسه مهماً ، لكن تراخى الباشوات
واستفحال أمر المعاليك جعل لهذا المنصب أهمية كبرى حتى
أفضى بتوالى الأيام إلى صاحبه ، وصار إليه الأمر والنهي - كما
سترى .

ولما تولى السلطان «أحمد» كان على مشيخة البلد «قاسم
حيواظ بك» - المتقدم ذكره - فلما مات ، خلفه ابنه «إسماعيل»
وصادق الباشا على ذلك لئله أن إسماعيل لصغر سنه ، يكون آلة
في يده يديرها كيف شاء ، فازداد كبر «نبي الفقار بك» واشتد
حنقه ، لأنه كان ينتظر أن يتول ذلك المنصب إليه .

وكان «إسماعيل» عاقلاً حكيماً كوالده ، عارفاً وجه الربيع
والحق ، فسعى في الوفاق مع طائفة اللقارية ، فاتحدت الطائفتان

على الباشا . وكان إسماعيل من الجهة الأخرى يظهر الطاعة والرضوخ لأحكام الباشا لأنه رئيسه ، لكنه لم ينفك ساعياً سرّاً في خلعه ، فكتب عنه إلى الاستانة ففاز بعزله ، فجاء غيره ثم أُبدل بآخر فأُخِر «إسماعيل بك» في منصبه يحبونه إلى ما يشبه العيادة .

ومما يحكى عنه أن أحد تجار القاهرة في أيامه واسمه : «عثمان» باع لأحد القبطجية (لقب الحرس السلطاني) ثلاثمائة قفة يُن إلى أجل مسمى ، وكتب عليه بذلك صكاً . فقبل الاستحقاق جاء الاستانة إعلان بخيانة القبطجي والحكم عليه بالإعدام حالاً ، فجاء به إلى الباشا ، فقتله ، ووضع يده على تركته ، وفيها البن كما هو . فعلم «عثمان» التاجر بذلك ، فعرض لإسماعيل ما كان من أمر البن فأنجبر الباشا أن يرجع البن لصاحبه قبل كل شيء ، ففعل ، فأصبح «عثمان» في حال من الامتنان لا يعرف كيف يبينها، فلاح له أن يهديه علبه مرصعة ، وبضعة قناطر من السكر النقي ، فرفض «إسماعيل بك» الهدية ، وخاطب عثمان التاجر قائلاً : «إذا كان المال الذي حصلت عليه بواسطة حقاً لك، فأكون

قد فعلت الواجب على ، والله يكافئني ، فإذا قبلت هديتك أظلم نفسي . أما إذا كان هذا المال ليس لك وإنما حصلت عليه بالخيانة فقبولى هديتك يعد مشاركة لك في الخيانة . لكنني مع ذلك أقبل السكر الذي حملته إلى على أن تقبض ثمنه من وكيلي لأنني سأمره أن يدفعه إليك .

ويحكى عنه أيضاً أنه كان يأدب في ليالي رمضان مآذبات يجتمع إليها العلماء والفقهاء ومشائخ والقراء القرآن (١) ، ولم يكن يؤذن لغير هؤلاء في الحضور فيها . قرأى ذات ليلة رجلاً بين الحضور عليه علامع الكتابة ، فأوصى بعض الخدم متى انفض الاجتماع ، أن يأتوا به إليه ، ففعلوا . فلما حضر بين يديه ، أعطاه مصحفاً ، وأمره أن يتلو عليه سورة . فثقف الرجل وجلاً ، ثم ترمى على قدمي البيك متضرعاً وقال : «يعش سيدي البك إني رجل نجار لا أعرف القراءة ، وإنما أتيت إلى هذه المائدة متذكراً بثوب الفقهاء لأملأ جوفى من الطعام ، فأني في حالة من الفاقة شديدة . فأنصفه . ولم يكتف بالإغضاء عن ذنبه لكنه جعله في

(١) هكذا في الأصل .

عداد خُدَمَتَه ، وجعل لعائلته راتباً معيناً وسار هذا النجار بعد ذلك من أصدق الخدمة وأكثرهم عزة وهمة (١) .

وما زال «إسماعيل» بك شيخاً للبلد ١٦ سنة ، نقيب في أثنائها على «مصر» عدة باشوات كانوا إسماعياً بلا مسمى .

وكان لحسن سياسته قد أوقف الفقاريين عن كل حركة لتظاهره أنه على وفاق معهم ، فلم يترك لهم فرصة يتحدثون بها عليه ، على أنه ارتكب خطأ واحداً آل إلى قتله . وذلك أن أحد المماليك الفقارية واسمه «نو الفقار» أيضاً كان له عقار يقوم بنفقات عائلته ، فاختلسه منه أحد المماليك القاسمية - من معاليك إسماعيل - ، فرفع «نو الفقار» دعواه إلى شيخ البلد إسماعيل ، فلم يصغ لطلبه فرفع دعواه إلى زعيم الفقارية ، ويقال له «شركس بك» . وكان خصماً لإسماعيل بك بالفطرة ، فسار إلى الباشا وخاطبه بشأن تصرف إسماعيل . وكان في قلب الباشا حزازات من الحسد عليه ، فوافقه على الإيقاع به ، ثم قال له :
«ليس لك وسيلة أفضل من أن تبعث أحد مماليكك وتأمره

(١) قصة : الرجل النجار الأمي مع إسماعيل بك اورد هذه القصة إسماعيل الخشاب في مخطوطته (تاريخ المماليك في القاهرة) محفوظة بدار الكتب المصرية (٢١١٨ تاريخ طلعت) .

بقتله وأنا أجعل له جميع ما يتركه من المال والنساء مكافأة
لأتعابه» .

فرافقته على رأيه ، وعين لتلك الفعلة أول يوم يجتمع فيه
الديوان ، وأمر مملوكه «نو الفقار» أن يستعد لإجرائها ، فقبل
اعتماداً على وعد الباشا . ففى اليوم المعين ، جاء «نو الفقار» إلى
الديوان وفيه «إسماعيل بك» فتقدم إليه وقبل يده قائلاً :

أرجو أن تأمر بإرجاع عقارى إلى ، فأجابه «إسماعيل بك»
سننظر فى طلبك هذا ، فالح عليه ، فانتهره ، فاستل خنجراً
ماضياً بقر به بطنه ، فتدفقت أمعاؤه ، ومات ساعته فى وسط
الديوان ، فهجم رجال الباشا ، وقتلوا كل من كان هناك من رجال
إسماعيل ، ولم ينج منهم إلا سريع العدو . هكذا كانت نهاية حكم
إسماعيل بك سنة ١١٣٦ هـ فنقلت جثته إلى بيته ، ثم دفنت بجانب
جثة أبيه بجوار باب اللوق ،

فتولى مشيخة البلد «شركس بك» واستولى «نو الفقار»
على جميع ممتلكات «إسماعيل بك» ونسائه حسب وعد الباشا
فأصبح رجلاً عظيماً يشار إليه بالبنان ، وفى حوزته مئات من
المماليك ، فخافه «شركس بك» وأخذ يسعى فى إذاقته ما أذاقه

لإسماعيل بك . فعلم « ذو الفقار » بتلك الدسائس ، فجمع إليه رجاله ، وفيهم عدة من رجال العثمانيين ، وهجم على شركس بك ، فجرت واقعة لم يستطع رجال شركس الثبات فيها أكثر من ربع ساعة فقتل معظمهم ، وفر الباقون ، وزعيمهم معهم يطلبون الصعيد وهو الملجأ الوحيد للبكوات المنضوب عليهم .

ذو الفقار بك

فقتل ذو الفقار مكانه مع لقب بك ، بعد أن أقر الباشا على ذلك ، وأصبح ذو الفقار عبواً لآترابه البكوات ، وعلى الخصوص لأبى دفية ، وسمى بذلك لأنه كان يتشبع برداء كبير يقال له دفية ، ثم أنبىء « ذو الفقار بك » أن أبى دفية ساعى فى إهلاكه ، وحاول ذلك مراراً ولم ينجح .

أما « شركس بك » فجمع دعائه فى الصعيد ، وسار بهم نحو القاهرة ، فأرسل « ذو الفقار بك » « عثمان كاشف » أحد كبار قواده فى فرقة من المماليك لمحاربتة ، فتقهقر « شركس » ورجاله فراراً حتى لحق ببلاد البربر .

فسكر « ذو الفقار » من خمرة النصر ، وأخذ فى الانتقام من البكوات الذين فى القاهرة ، وقتل منهم من يظن فيه الانتماء إلى

«شركس بك» ، وهم كثيرون - فالتحد من بقى حياً مع رئيس الشرطة ، والأغا رئيس الإنكشارية ، وبعثوا إلى شركس بك بما كان من فعلة «ذى الفقار» وتعاهدوا جميعاً على محاربته ، وانضم إليهم «مصطفى القرد» وكان من أعداء ذى الفقار ومعه جماعة من الرجال الأشداء ، فقدم «شركس بك» إلى القطر المصرى ، فعلم «ذو الفقار» بذلك ، فجمع إليه العلماء والمشائخ ، وشاورهم فى الأمر ، فاجتمعوا على عدم مناسبة الهجوم فى تلك الحال ، إلا إذا تأكد الفوز ، فلم يصغ لمشورتهم ، فأرسل «عثمان بك» أحد قواته لمحاربة «شركس بك» ، فحصل بينهما واقعة ، قتل فيها «مصطفى القرد» وغرق «شركس بك» فى النيل وهو يحاول الفرار .

فبعث «عثمان بك» برأسيهما إلى «ذى الفقار» .. أما هذا فلم يهنأ بذلك النصر لأنه قتل بعد قتل عبوه «شركس» بيومين ، بمكيدة أعدما له البكوات فى القاهرة وذلك أنهم ألبسوا واحداً منهم دمية ، وجأحوا به إلى بين يدي «ذى الفقار» وقالوا له : «هذا أبو دمية قد جعله الله فى أيدينا» ، وكانوا قد جعلوا تحت دميته عيارين ناريتين ، فلما وقف بين يديه ، أطلقتهما دفعة واحدة ، فسقط

«نزل الفقار» مضرجاً بدمائه في وسط ديوانه سنة ١١٤٢ هـ ، فعلم
«عثمان بك» بما أصاب رئيسه ، فهرع للأخذ بثأره ، فدخل
القاهرة ، وجعل يفتك بمن يصادفه في طريقه ، فخافه الجميع .

ثم أن « محمد بك » أحد البكوات الذين كان يتربصهم
«عثمان بك» رأى منصب مشيخة البلد خالياً فطمع فيه ، فعاهد
صديقه « صالح كاشف » على أن يقتلوا من بقى من زملائه
البكوات بمكيدة ينصبها لهم . فأدب « محمد بك » مادية فآخذه
دعاهم إليها ، فلبوا دعوته . ثم علموا بمكيدته فقاوموه مقاومة
شديدة وتمكنوا من قتله . فبش « صالح كاشف » من مرامه ، ففر
إلى القسطنطينية بعد أن شاهد رؤوس البكوات ملقاة على الطريق
أمام جامع الحسين .

ثم عقب هذه القلاقل ضربة أشد وطأة ، تعنى الوفاء الذي
أصاب مصر في تلك السنة ، ويدعى طاعون الكى ، فإنه انتشر في
البلاد انتشاراً سريعاً ، وفتك في العباد فتكاً ذريعاً ووافق كل هذه
الضربات خلع السلطان أحمد الثالث في جمادى الأولى سنة
١١٤٣ هـ .

٢ - سلطنة محمود بن مصطفى

من سنة ١١٤٣ - ١١٦٨ هـ ومن ١٧٣٠ - ١٧٥٤ م

هو محمود الأول ، ولد سنة ١١٠٨ هـ ، فكانت سنه لما تولى العرش العثماني ٣٥ سنة ، وكان اللغوز عند توليه لرئيس الإنكشارية حتى نقم عليه الإنكشارية أنفسهم ، فقتلوه وعادت السكينة وأمن الناس .

وفي أيامه ظهر «نادر شاه» (١) القائد الفارسي الملقب «بنايليون الشرق» لكثرة فتوحه وكانت الدولة تحارب الفرس ، وكانت تذهب فيها ، فعاض «نادر شاه» ووقف في طريقها .

وجرت في أيام هذا السلطان حروب ومعاهدات مع دول أوروبا . وقد تولى السلطان المذكور ، وأسفه العثمانيون لأنه كان عادلاً حليماً فيه ميل إلى المساواة بين الرعايا .

وفي أيامه اتسع نطاق المملكة العثمانية بآسيا وأوروبا وعقد معاهدة في بلغراد مع الروس محت العار السابق .

ومن آثاره أنه أسس أربع كتيبانات ألحقها بجوامع آيا صوفيا ، ومحمد الفاتح ، والوالدة وغلطة سراي .

(١) نادر شاه : ١٦٨٨ - ١٧٤٧ ، كان شاه إيران في الفترة من ١٧٣٦ -

وكان الباشوات الذين تولوا مصر فى أيامه أكثر أهلية من سابقهم ، ولكن الأحكام كانت بالحقيقة قائمة بمشائخ البلد ، ولهم الحل والعقد لا يستطيع الباشوات معارضتهم فى شىء .

مشيخة عثمان بك

فبعد قتل ذى الفقار بك تولى مكانه عثمان بك ، المتقدم ذكره . فرقى كثيرين من معاليكه إلى رتبة البكوية ليقوموا مقام الذين هلكوا بالحوادث الأخيرة .

وكان «عثمان بك» عادلاً حازماً ، ولكنه كان صارماً لا يراعى فى تنفيذ العدل جانباً ، فعلم أن أحد بكواته سعى فى إقليمه فلما فاستدعاء إليه ، فتحقق ارتكابه ، فقطع رأسه .

ويحكى عن «عثمان بك» حوادث كثيرة تشير إلى حزمه واستقامته ، وقسطه ، لا بأس من ذكر بعضها على سبيل المثال :-
يحكى أن حمّاراً من حمّارى القاهرة أراد ترميم مذود حمّاره ، وهو يفعل ذلك عثر فى أحد جدران البيت على وعاء مملوء ذهب (١) ، ففرح جداً ، وأخذ الوعاء وسلمه إلى امرأته ، وأوصاها أن تكتم الأمر لئلا ينكشف للحكومة ، فلتأخذ المال منه لأن لها

(١) الصحيح أن تكون ذهباً .

وحدها الحق بالاستيلاء على مخزونات الأرض . فطلبت المرأة من زوجها أن يبتاع لها حلياً وثياباً فاخرة لتتمتع بتلك الهبة . فأتى زوجها إجابة طلبها لئلا يتول ذلك إلى كشف الحقيقة ، فاغتازلت ، وأسرعت لساعتها ووشيت به إلى «عثمان بك» فاستدعى الحمار ، ويعد أن سمع حقيقة الحال صرفه قائلاً : « أحفظ ما وهبك الله ، وطلق امرأتك ، وعش بسلام » .

ولما جاء الوباء إلى مصر ، كان «عثمان بك» في أول حكمه ، فلما رأى الجوع الذي عقب الوباء ، فتح مخازنه وخزائنه ، وفرق الاقوات والأموال في الناس ، ومع ذلك لم يستطع النجاة من مكائد نوى المطامع ، وفي مقدمتهم «إبراهيم وإسماعيل رضوان» الأول كخيا الإنكشارية ، والآخر كخيا العزب ، وكان كلاهما من المماليك الواحد من طائفة الكزدغلية ، والآخر من طائفة الجلفية ، وأصل الطائفة الأولى مملوك يقال له : «الكزدغلي» كان سروجياً ، وأصل الطائفة الثانية «أحمد الجلفي» كان في أول أمره شيئاً لا ، وأغناه الله بطريقة في غاية القرابة - لا بأس من ذكرها وهي :

جاء بعض المماليك إلى إحدى معاصر الزيت ليبْتَاع مئونة بيته من الزيت مدة السنة ، وكان «أحمد الجلفي» في تلك المعصرة ،

فابتاع المملوك الزيت ، واستأجر «أحمداء» فحمه وسأله
بلغ بيته ، فأنزل الحمل ووقف ينتظر أجرته ، فجاءه
إليه أن يساعده في إخفاء مبلغ من النقود في أحد جدران
والج عليه أن يكتم الأمر سراً ، وأعطاه بضعة دراهم
فساعدته ، وأخذ الدراهم وسار في سبيله حامداً شدة
ثلاثين يوماً اتفق له المرور بالقرب من ذلك البيت ، فنهض
متجسماً ، ثم علم أن ذلك المملوك توفي وقد تركته له
أحمد وابتاع البيت الذي فيه المخبأة ، وبعد أن نفذ
استخرج النقود ، وسار بها إلى قريته «جلف» في الدار
ممتلكات كثيرة .

ثم اتسعت ثروته ، وما زال حتى أصبح ذا
كبيرة نسبت إليه .

وكان «إبراهيم وإسماعيل رشوان» في بادئ
تباين كلّي بالأدبيات والماديات : كان إبراهيم في ضيق
مع إقدام وبسالة ومطامع كبيرة . وكان «إسماعيل»
يهمه إلا التمتع بالذات والشهوات . فكان إبراهيم هو
إسماعيل ولذلك كان يتقرب منه . ثم تزوج «إبراهيم

البارودي، أحد التجار الأغنياء ، وأخذ معها مالا كثيرا ، فتمكن بذلك من التقرب إلى بيت شيخ البلد ، وإلقاء المفاصد فيه بواسطة بعض المماليك والأتراك وغيرهم من ذوي الرتب ، كان يستعملهم آلة لتنفيذ مآربه .

ثم تأتي له الارتقاء إلى رتبة البكوية مع صديقه «إسماعيل رضوان» فصار اسمه «رضوان بك» ، واتحد الإثنان على السراء والضراء ، ووحدا ممتلكاتهما ، واجتزما بالسواء في محصلولاتها . فأوجس «عثمان بك» خيفة من سرعة نمو ثروتهما ، وملافة لما كان يخشى حدوثه من طموح أنظارهما ضم إليه ثلاثة أحزاب : أحدهما حزب «إبراهيم بك القطامش» وفيه ثلاثة بكوات ، والثاني حزب «علي بك الدمياطي» وفيه بيكان والثالث حزب «علي كخيا الطويل» ، وشاورهم في الأمر فاتفروا على قتل «إبراهيم بك» ، وكان إذ ذاك كخيا الإنكشارية، و «رضوان بك» ، فوافقوه على ما أراد .

وكان وكيله أحمد السكري من مماليك «إبراهيم بك» فلم يمكنه كتمان ذلك عنه ، فجاء إليه وأخبره بجميع ما كان من التواطؤ على قتله وقتل رفيقه ، فسار الحال إلى «رضوان بك»

وأخبره وتشاوروا بشأن ذلك ، فقررنا نصب أحبولة يقتلان
«عثمان بك» ، فبعث إليه رجالاً يترصدونه فى طريقه إلى
فمرّ ووثبوا عليه ، ففر بجواده حتى دخل القلعة ، ولم يظفروا
فللقاه وكيله وقد أضمر له الشر فسأله عما ألم به ، فأخبره
كان ، فكلّمه بلسان الثعلب ناصحاً له أن يبرح المدينة حالاً ،
الناس قد قاموا يطلبون قتله ، وما زال حتى أقنعه ففر
«سوريا» وسار هو معه حتى إذا دنوا من غزة تنحى أحمد
الطريق ، واختبأ فى قرية يقال لها : الأشرفية ، بحجة استمط
الأحوال لحماية «عثمان بك» فتريص هناك مدة ثم عاد
«القاهرة» بمن معه من المماليك ، وسار إلى «إبراهيم بك» وأد
بما فعله ، فكافأه على تلك الخيانة برتبة البكوية ، وهمّ الأه
ببيت عثمان فأحرقوه ، واقتسموا تركته .

أما هو فوصل «سوريا» وحده ، وسار منها إلى الأستاذ
صة ولبت فيها حتى توفاه الله . وجميع هذه الحوا
بره فى أثناء سنة ١١٥٦ هـ .

إبراهيم كخيا ورضوان بك

فلما خرج «عثمان بك» من «مصر» صفا الجو «لإبراهيم كخيا» و «رضوان بك» . فعملا على إبادة الأحزاب التي تأمرت عليهما فأخذ «رضوان بك» على نفسه قتل «على كخيا الطويل» . فأمر أحد مماليكه أن يقتله بالرصاص في وليمة حافلة ، فلبى المملوك الأمر ، لكنه أخطأ الرمي . وعوضاً من أن يصيب «علياً» أصاب مملوكه الذي كان بجانبه ، فقبض عليه وقتل للحال .

أما «إبراهيم كخيا» فتكفل لإهلاك من بقي من الأحزاب ، وكان على ولاية مصر إن ذاك «كيور أحمد باشا» فطلب إليه إبراهيم أن يوافقه على إبادة البكوات ، فوافقه . وربما فعل ذلك ، خوفاً منه أو لأنه يعود عليه بالنفع الشخصي ، واستعانوا بالنقود ، فبذلوا فسهلت مشروعاتهم حتى قتلوا «على بك الدمياطي» بيد وكيله «سليمان» في وسط الديوان . وقد وعدهم هذا بتسليم رؤوس البكوات الآخرين من أحزابه . فأمر «إبراهيم كخيا» و «رضوان بك» أن تقفل جميع منافذ القلعة على من فيها من البكوات المنوي قتلهم ، وجعلوا على بابي الإنكشارية والعزب جنداً . وحافظ «سليمان» على وعده ، فبوشرت المذبحة وأول من قتل فيها «خليل

بك» من دعاة «الدمياطى» و «محمد بك» من دعاة «قطامش»
وكثيرون غيرهم .

وحاول «على بك» و «عمر بك البلاط» الفرار ، فتبعهما
الباشا بنفسه . ثم لاقاهما «إبراهيم» و «رضوان» وقتلاهما عند
باب القلعة ، ولم يدفن من القتلى إلا «محمد بك» و «خليل بك» .

ولم يبق من مناظرى «إبراهيم كخيا» و «رضوان بك» إلا
«إبراهيم قطامش» و «على كخيا الطويل» ، فالاول مات من الحزن
بعد مدة قصيرة ، والثانى هاجر من تلقاء نفسه تاركاً الدار تنعى
من بناها ، فصفا الجو لإبراهيم كخيا ، فتولى مشيخة البلد وسمى
«رضوان بك» أميراً للحج ثم جعل يتبادلان هذين كل سنة ، وعاد
كل منهما إلى ميكه الطبيعى : «إبراهيم» إلى مطامعه ، و «رضوان»
إلى ملاهيه . فأتخذ «إبراهيم كخيا» يفسد الأحكام ، ويستخدمها
لاسترجاع ما بذله للحصول عليها ، فلم يغادر وسيلة إلا
استخدمها فى سبيل مطامعه من قتل وهتك .

فابتدأ بسليمان قاتل «على بك الدمياطى» ، فحجر عليه فى
القلعة ، ولم يفرج عنه حتى استرجع منه ما كان أعطاه من النقود ،
ثم باغت من بقى من الأغنياء فى القاهرة ، ووضع يده على

ممتلكاتهم بعد أن قتل بعضاً منهم ، وبقي البعض الآخر فاستولى
فى يوم واحد على أموال ثمانين بيتاً من بيوت القاهرة ، ووضع يده
على محاصيل البلاد والجمارك والقرى والمخازن حتى الحوانيت
الصغيرة ، فلم يبق ولم يذر .

وكان «كيور أحمد باشا» قد استدعى إلى الأستانة ، ولى
حكومة قبرص لتأميم مقامه باشا آخر سنة ١١٥٦ هـ فعامله
«إبراهيم كخيا» بالاحتقار ، فحقد عليه . ثم اتفق غياي «إبراهيم»
فى قافلة الحج إلى مكة ، فاعتزم الباشا غيايه . وتواطأ مع «حسين
بك الخشاب» على مكيدة يعدانها لإبراهيم . فاتفق على أن يقوم
الخشاب بقتل «إبراهيم» ورفيقه «رضوان» وأن يكافئه الباشا على
ذلك بمشيخة البلد .

فلما رجع «إبراهيم» سعى «الخشاب» فى إنجاز وعده ،
فهاز بالقبض على الإثنين ، فسجنهما فى القلعة ، فولاه الباشا
مشيخة البلد ، لكنه لم يهنأ بها لأن دعاة «إبراهيم كخيا» اتحدوا
وهجموا على «حسين بك» والباشا ، وأخرجوا المسجونين ، ففر
الخشاب إلى مصر العليا واختبأ من إبراهيم فى بلاد النوبة . أما
الباشا ، فاستدعى إلى الأستانة وعاقبه السلطان عقاباً انتهى
بالموت .

نشأة على بك الكبير

وكان في حوزة «إبراهيم كخيا» أكثر من ألفى مملوك ، من جعلتهم «على» الذي سيلقب بعلى بك الكبير ويكون له شأن عظيم لهذا التاريخ ، وسترى في سيرته أنه من أفراد الدهر حزماً ويطشاً وحكمة . وكان «على» سلحداراً بين مماليك «إبراهيم كخيا» وكان إبراهيم يحبه كثيراً ويجل مواهبه حتى جعله ناقل سيفه . وهما زاده تعلقاً به أنه اصطحبه إلى الحرمين في قافلة . وكان قد صار كاشفاً فصار قائداً لتلك القافلة ، فلاقاهم في الطريق مصابة من اللصوص . فدفعهم «على» بقلب لا يهاب الموت ، فلقبوه بالجنى . ولما رجع «إبراهيم كخيا» إلى القاهرة عزم على مكافأة «على» برتبة بك ، لكن صفر سنه ودسياسة الخشاب حالاً دون ذلك .

ثم عقب ذلك مشاغل أكثر أهمية زاد الأمر تأخيراً وذلك أنه جاء القاهرة خبر وصول باشا جديد إلى الإسكندرية بدلاً من الباشا الذي أخرج منها ، وكان من عادة رجال الحكومة في مصر إذا علموا بمجيء باشا جديد أن يبعثوا وفداً يلاقونه في الإسكندرية ، وفيهم العيون والجواسيس فيحيطون به يستطلعون مقاصده ونواياه ويطلعون على ما في يده من الأوامر السلطانية ، فإذا رأوا تلك الأوامر سليمة ومقاصده حسنة رحبوا به وفتحوا له

الطريق حتى يصل بولاق ، فيحتفل الأمراء ببلقائه . أما إذا تبينوا من أحواله غير ذلك ، وبلغوا الأمراء بالقاهرة فيجتمعون ويقررون إعلانه أن يقف حيث هو ، ويكتبون إلى ديوان الأستانة بعدم موافقة ذلك الباشا الجديد ، وأن بقاءه في مصر مغل بالنظام العمومي أو ربما حمل الرعية على الثورة . ثم يطلبون استبداله بأخر أكثر موافقة للبلاد منه .

فلما اتصل بهم خير قلوب هذا الباشا واسمه «راغب محمد باشا» سار شيخ البلد بنفسه لاستقباله ومعه البكوات فخلع على كل واحد منهم خلعاً كالعتاد ، ثم اجتمعوا جميعاً بجلسة رسمية وأقسموا على الطاعة والإخلاص لأمير المؤمنين ، وأحب الأمراء «راغب باشا» محبة عظيمة لأنه عرف كيف يعامل شيخ البلد ، فأحبته الرعية ومالوا بكليتهم إليه فقضى بين ظهرائهم سنتين كلهما سلام وطمأنينة حتى أجمع البكوات على استبقائه بينهم زمناً وهم في ذلك ، ورد إلى الباشا خط شريف أن يسعى جهده في قطع دابر البكوات ، وفي جملتهم شيخ البلد ومن يلوذ به ، فاستنتج الباشا من نص ذلك الخط أن ديوان الأستانة مشتبه بتصرفه في مصر وأنه وشى إلى جلالة السلطان بأن اتفاه مع بكوات مصر ليس إلا لعزمه على استخدامه في مآربه بالاستقلال

بحكومة مصر وإخراجها من طاعة الدولة العلية . فوقع في حيرة وتردد بين أن ينفذ الأوامر الشاهانية مع ما فيها من الخطر ، أو أن يعصياها ، أو يؤخرها ، فيعرض حياته للخطر ويؤيد التشكيكات التي تقدمت بحقه .

وبعد أن نظر في المسألة من سائر وجوهها ، فضل الفتك بأصدقائه البكوات ، فتواطأ مع عصاية من رجاله أنه متى اجتمع البكوات في مجلسه ، فليكونوا على استعداد للهجوم عليهم معاً عند أول إشارة .

ففعّلوا ما أمرهم به ، لكنهم لم يفوزوا كل الفوز لأن ثلاثة من البكوات تمكنوا من النجاة ، وفي مقدمتهم شيخ البلد بعد أن جاهدوا الجهاد الحسن وأوسعوا اليأساً تعنيفاً على فعلته هذه التي لم يكونوا ينتظرونها من بعد ما أظهروه نحوه من اللطف والإخلاص . فبرأ ساحته باطلاعهم على فرمان السرى الوارد له بهذا الصدد . فكفوا عن الإنتقام منه ، لكنهم عزلوه . وكتبوا إلى الأستانة يطلبون بدله ، وعينوا ثلاثة بكوات في مكان الثلاثة الذين قتلوا بتلك المكيدة .

واغتتم إبراهيم كخباء هذه الفرصة لقرقية «على» كاشفاً فرقاءه إلى رتبة بك ، فشق ذلك على أحد البكوات المدعو «إبراهيم

بك» شركسى المولد يعرف «إبراهيم بك الشركسى» وكان من دعاة «إبراهيم كخيا» لكنه تظاهر عند ذلك بعداوتة ، ونمت بينهما الطغائن ولم تنته إلا بقتل «إبراهيم كخيا» بعد ذلك بخمس سنوات بيد «إبراهيم بك الشركسى» المذكور سنة ١١٦٨ هـ . وفى تلك السنة ، توفى السلطان «محمود بن مصطفى» .

سلطنة عثمان بن مصطفى

من سنة ١١٦٨ - ١١٧١ هـ

أو من ١٧٥٤ - ١٧٥٧ م

هو عثمان الثالث ، ولم يحكم إلا ثلاث سنوات لم يحدث فى أثناءها (١) ما يستحق الذكر فى المملكة العثمانية حتى فى مصر . فإن «إبراهيم الشركسى» شفى غليله بقتل «إبراهيم كخيا» لكنه لم يروا مطامعه ، لأن «شيخة البلد» انتقلت إلى «رضوان بك» صديق «إبراهيم كخيا» .

ثم ظهر لرضوان منافس آخر من زعماء حزب إبراهيم يقال له «حسين بك» أصبح بعد قتل الكخيا أكبر رجال ذلك الحزب ، فادعى لنفسه الأولوية بمشيخة البلد ، فلم تقبل دعواه ، فجمع إليه بعض دعائه المماليك ، وصعد إلى قلعة القاهرة واستولى على (١) الصحيح : أثناءها .

بطارية من المدافع تشرف على بركة الفيل حيث يقيم «رضوان بك» فأطلق بعض القنابل على المنازل ، ففرقت جدرانها ، فتداعت أركانها «ورضوان بك» مشغول بحلاقة لحيته ، فلما أحس بالامر ، طلب جواده ، ولم يعمل ظهره حتى أصيب برصاصة كسرت فخذه ، وتمكن من الفرار ومعه بعض المماليك إلى قرية الشيخ «عثمان» وهناك توقف عن المسير لزيادة الألم ، ومعه رئيس الضابطة ، وكان مجروحاً ثم توفى الاثنان ودفنا معاً .

فسمى «حسين بك» من ذلك الحين «شيخ البلد» وأخذ يتقرب من أتباعه البكوات وهم لا يزيدون منه إلا نفوراً . ولم تعض بضعة أشهر من توليته ، حتى كمنوا له في مكان مصاطب الشباب في السهل الواقع بين القاهرة وأرض «إبراهيم بك» وكان مشتغلاً بعرض جنوده المماليك ، فهموا به وذبحوه ثم قطعوه إرباً إرباً وصار يعرف من ذلك الحين بحسين بك المقتول ، وتولى مكانه «خليل بك» واشتهر بحب القتل . وكان متظاهراً بالعداوة والحسد لعلى بك على الخصوص لاعتقاده أنه أشد أعدائه وطأة وأقواهم عزيمة .

سلطنة مصطفى بن محمد

من سنة ١١٧١ - ١١٨٧ هـ

- أو من ١٧٥٧ - ١٧٧٤ م

وهو «مصطفى الثالث» تولى الملك وسنه ٣٢ سنة . وكان ميالاً إلى الإصلاح ، ووزر له «راغب باشا» وهو ذو حزم ونشاط وعمل ، فأعانه في ما أراد من الإصلاحات وحفظ السلام طوال حياته . فلما توفي عادت «روسيا» إلى الحرب ، وكانت «كاترينة» الثانية إمبراطورة الروس ، قد تولت العرش الروسى بعد «بطرس» ، فعينت صديقها «ستسلاس يونياتسكى» ملكاً على «بولونيا» وكان ذلك مخالفاً للمعاهدة بين «روسيا» والدولة ، وإنما عمدت «كاترينة» إلى خرق هذه المعاهدة عملاً بوصية «بطرس الأكبر» وهى تقضى أن يبذل الروس جهدهم فى إزالة الحاجز الثلاثة الحائلة بينهم وبين أوروبا الغربية ، وهى «أسوج^(١)» و «بولونيا» و «الدولة العثمانية» وقد أزيل الحاجز الأول باستيلاء «الروس» على الولايات الأسوجية الفاصلة بينها وبين «ألمانيا» ، وأزيل الثانى تقريباً بتعيين أحد أتباع الإمبراطورة على «بولونيا» ، ولم يبق إلا إزالة الدولة العثمانية من «أوروبا» .

(١) السويد .

فتبهرت الدولة لهذا الخطر ، لكن بعد فوات الفرصة ، إذ كان ينبغي لها أن تنجد شارل الثاني عشر على «الروس» ولكنها عمدت إلى استدراك ما فات ، وفتحت حرباً طال أمدها ، وتعاضل لهيبها ، وبذلت كل من الدولتين جهدها في التغلب ، وأرسلت «روسيا» عمارتها إلى البحر الأبيض لمصادرة السفن العثمانية وضرب الثغور العثمانية فاغتنم «على بك الكبير» تلك الفرصة ، واستعان «بالروس» على استقلاله بمصر في الدولة العثمانية (١) ، كما سيجيء .

وكان «على بك» كثير الإخلاص لإبراهيم كخيا ، لا ينفك ساعياً في الانتقام له ، ولكنه كان يرى السبيل الأقرب والأسهل لبلوغ مرامه ، إنما هو القوة ، فأخفى ما في ضميره ثمانى سنوات ، اشتغل في أثنائها بجمع القوة ، فابتاع عدداً وافراً من المماليك ، ووطد علاقته مع البكوات الآخرين واكتسب ثقتهم بما كان يظهره من الغيرة عليهم والإخلاص لهم ، وما كان يكرمهم به من الهدايا . وما زال يخطط خطوة بعد أخرى حتى اقترب من النقطة المطلوبة ، فأوجس «خليل بك» خيفة منه ، وجعل يتجسس حركاته بالأرصاد والعيون ، ويعد المكايد في شوارع «القاهرة» .

(١) ينظر إلى هذه الحادثة في أدبيات التاريخ العثماني على أنها خيانة ، المحقق .

ففى ذات يوم هجم عليه «حسين كشكش» وبأمر خليل بك» وبعد
واقعة هائلة اضطر «على بك» أن يفر إلى الصعيد فى طائفة من
أصدقاء البكوات ، يستعد للانتقام مضاعفا .

فصرح «خليل بك» أن «على بك» وأتباعه البكوات مجردون
من رتبهم وحقوقهم ، يولى مكانهم بكوات من ذويه ، وقتل من ظفر
به فى القاهرة من أصدقاء «على بك» أو المنتصين إليه ، أما
«على بك» فالتقى فى الصعيد بواحد من مماليك «مصطفى أنور»
يدعى «صالح بك» كان منفيًا هناك وفى قلبه من «خليل بك»
حزازات فالتحد الإثنين ورجالهما وزحفا على «القاهرة» فخرج
«خليل بك» و «حسين بك كشكش» ، فدارت رحى الحرب ، فكان
الفوز «لعلى» ورفيقه . فطاردا «خليل بك» ورجاله حتى قطعوا
مديرية «القليوبية» وأوصلوهم إلى المسجد الأخضر على ضفاف
النيل ، واشتد الكفاح هناك ، فالتجأ «خليل بك» ورجاله إلى
«طنطا» . فبعث «على بك» كاشفه «محمد» الملقب «بأبى الذهب»
ليهاجمهم ، فهاجمهم ، واستلم «طنطا» بعد أن قتل «حسين
كشكش» . أما «خليل بك» فاختبأ بالمسجد ويقى فيه ، وقد غلبه
الجوع ، ثم قبض عليه ، ونفى إلى «الإسكندرية» وخنق هناك ،
ونقلوا رأس القتلى إلى القاهرة ، وطاروا بها فى أسواقها .

الدور الثالث

لسيادة الدولة العثمانية علي مصر

أو

علي بك الكبير

من سنة ١١٧٧ - ١١٨٥ هـ ،

أو من سنة ١٧٦٣ - ١٧٦٤ م (١)

فتمكن «علي بك» بهذا الانتصار من استلام مشيخة البلد
«في القاهرة» سنة ١١٧٧ هـ ، وأول أمر بإشره قتل «إبراهيم
الشركسي» الذي قتل سيده ، فثارت عليه أحزابه يطلبون الانتقام ،
وهم عديدون ، فخاف علي بك علي حياته ففر إلى «سوريا» والتجأ
إلى متسلم (حاكم) بيت المقدس ، وكانت بينهما صداقة قديمة إلا
أن هذا الملجأ لم يحمه إلا شهرين ، لأن أعداءه البكوات لما علموا
بمقره شكوه للسلطان «مصطفى» وأخبروه بمقره ، فأنفذ إلى
متسلم القدس فرماناً يأمره به أن يرسل «علي بك» مخفوداً إلى
الباب العالي .

فعلم «علي بك» بذلك ، ففر إلى «عكا» ، وهناك اكتسب

(١) الصحيح ١٧٦٢ - ١٧٧٣ م .

صداقة الشيخ «ضاهر العمر» (١) أمير تلك المدينة الحصينة فأكرم وفادته وسعى في تبرئته أمام الباب العالي ، وبمساعدة نصرائه من أصدقاء «إبراهيم كخيا» اكتسب له العفو من الحضرة السلطانية ، فألغيت الأوامر بالقبض عليه . وأعيد إلى «القاهرة» بمنصبه الأول .

وفي سنة ١١٧٩ هـ - أي بعد ذلك بسنتين ، هدد «علي بك» بالإقالة من ذلك المنصب ، وذلك أن «محمد راغب باشا» الذي كان على مصر وعزل منها «علي ماهر بك» كان يتذكر كرم أخلاق «علي بك» منذ كان كاشفاً ، فبعد استقالته من مصر ، ولّى بر الأناطول (٢) ، وبعد تسع سنوات صار صدراً أعظم ، وما أنفك متذكراً صداقة «علي بك» لا يفتر عن معاضدته ، وتسهيل مطالبه سراً وجهاً .

وفي سنة ١١٧٩ هـ ، توفي الوزير «محمد راغب باشا» المذكور ، فأصبح «علي بك» في حاجة لمن يعضده ، فاغتنم أعداؤه هذه الفرصة ، ووشوا به إلى الأستانة ، فاضطر أن يفر إلى (١) الشيخ ضاهر العمر : (١٦٩٥ - ١٧٨٢) شيخ بني زيدان في بلاد صفد ، انظر مادته في المنجد في الاعلام . ٤٤١ / ٢ .
(٢) وهو الأناضول .

اليمن. ولم تأت سنة ١١٨٠ هـ حتى عاد إلى القاهرة ، واسترجع منصبه بمساعدة أحزابه وموت أربعة من دعاة «إبراهيم الشركسي» . ثم تراعى له أن صديقه «صالح بك» تحدثه نفسه بخروج حرمة الصداقة ، واتباع داعي المطامع الشخصية ، فوكل أمر قتله إلى «إبراهيم كاشف» أحد أتباعه ، فقتله طعناً ، وسترى أن «إبراهيم» هذا سيرتقى حتى يتولى مشيخة البلد .

ورأى «على بك» أن قبائل العربان في مصر السفلى قد شقت عصا الطاعة ، فأنفذ إليها أحد معاليكه المدعو «أحمد» في فرقة من الرجال ، فحارب أولئك العربان ، وأمعن في قتلهم حتى لقبوه بالجزار ، وهو الذي تولى «عكا» بعدئذ واشتهر «بأحمد باشا الجزار» . أما من بقي من أعداء «على بك» فخافوا ولزموا السكوت ، وتحقق تخلصه من القلاقل والمفاسد والمقاومات ، ورأى من باب الاحتياط والحرص أن يرقى ثمانية عشر معلوكاً من أتباعه إلى رتبة البكوية لينصروه وقت الحاجة وهي أسماؤهم : —

١ - رضوان . ابن أخيه من جورجيا

٢ - على الطنطاوى . من جورجيا

٣ - إسماعيل . من جورجيا

- ٤ - خليل . من جورجيا
٥ - عبد الرحمن . من جورجيا
٦ - حسن . من جورجيا
٧ - يوسف . من جورجيا
٨ - نوال القطار . من جورجيا
٩ - عجيب . من جورجيا
١٠ - مصطفى . من جورجيا
١١ - أحمد الجزار . من أماسيا
١٢ - سليم أغا . انكشارى
١٣ - سليمان كخيا . انكشارى
١٤ - لطيف الشركسى . شركسى
١٥ - عثمان . شركسى
١٦ - إبراهيم . شركسى
١٧ - مسرود . شركسى

والهذين الأخيرين شأن فى هذين (١) التاريخ لأنهما

سيتنازهان السلطة بمصر .

(١) المؤلف يكتبها هذين والصواب : هذا .

وكان يعز محمدأ أكثر من الجميع وستراه رجلاً عقوقاً
منكراً الجميل (١) . ولما تقلد البكوية لقب بأبى الذهب ، فأحب أن
يجعل هذا اللقب اسماً على مسمى ، فتظاهر بالكرم المفرط ويدلاً
من أن يفرق العطايا بالبارات ، فرقها بالأرباع .

أما «على بك» فكان ساهراً مصلحة البلاد سهرأ تاماً ،
وكان مخلصاً فى أعماله ، فظهر البلاد من اللصوص ، وسعى
جهده فى إصلاح شئونها ، فساد الأمن فيها بعد أن كانت معرضاً
للقتل والمفاسد . ولم تقف مطامع «على بك» عند هذا الحد ، فإنه
رأى من تحامل الواشين بينه وبين ديوان الأستانة ، وإيقاع نوى
الأغراض به ويسلطته ، ما حمله على السعى فى الاستقلال
بمصر، وتجريدها من رعاية الدولة العثمانية ، لكنه كتم مقاصده ،
وجعل يسعى فى تنفيذها تحت طى الخفاء .

(١) يلقب جودجى زيدان موقفاً من محمد بك أبى الذهب ويعتبره كما أورد ، أما كتب
التاريخ العثمانى فترى العكس .

مساعيه في سبيل الاستقلال

وأول خطوة خطاها نحو هذه الغاية ، أنه انتحل أسباباً
بنى عليها عزل مستخدمي الملكية والجهادية ورؤساء الوجاقات ،
واستبدلهم برجال على دعوته إلا وفاق الإنكشارية فإنه لم يمسه
بعد أن تمكن من استبقائه تحت حمايته وسد جميع السبل التي
يمكنه بها التطرق إلى مقاومته . وأخر دفع مرتبات الوجاقات
الأخرى عمداً ، وصار يدفع رواتبهم أقساطاً عملة ورق بول كانت
تخسر المائة منها تسعين ، فكان يبيع أرباحاً عظيمة باسترجاع
الورق بالاثمان البخسة ، وصرفه ثانية بثمنه الأصلي . فلما رأت
رجال الوجاقات أنهم لا يستولون من ماهياتهم إلا على العشر،
كرهوا الاستخدام بالعسكرية ، وجعلوا يستقيلون منها شيئاً
فشيئاً ويتعاطون أشغالاً أخرى أكثر فائدة لهم .

ثم سعى في تقليل العساكر العثمانية واستخدام الممالك
من دعائه حتى صاروا نحو ستة آلاف ، وحظر على سائر البكوات
والكشاف الذين يخشى تغييرهم عليه أن يقتنى أحدهم أكثر من
مملوك أو مملوكين . وكان على ولاية مصر إذ ذاك «محمد باشا»
فأزعجته إجراءات «علي بك» وخشى عاقبتها ، فنصح له أن يقف

عند حده ، فلم يكثرث بقوله . فآثر على مقاومته لأن هذه الإجراءات مضادة لمصلحة الباب العالي ، ولكنه لم يكن يستطيع المجاهرة بمقاصده هذه . فآخذ يدسها سراً ، واتحد مع من بقى من دعاة «إبراهيم الشركسى» وأجمعوا على الانتقام من «على بك» ، ثم جعلوا يسعون فساداً بين أحزابه واستجلبوا بعضاً منهم إلى جانبهم بالمواعيد المبنية على الحسد والطمع . وفى حملة هؤلاء «محمد بك أبو الذهب» الذى طمره «على بك» بفضله حتى أزوجه ابنته ، وكان يناديه كما ينادى أولاده . ولم يكونوا يستطيعون تنفيذ مآربهم جهاراً ، فأغروا صهره «محمد بك» المذكور بالمال ووعده إنه إذا قتل «على بك» يتولى المشيخة مكانه ، فقبل .

لكنه علم بعدئذ أنه يقصر عن مناوأة «على بك» واستعظم الجناية ، فعدل عنها إلى جناية تقرب منها ، وذلك أنه شكى إلى «على بك» معاملة الباشا له ، فأسرع إلى انقاذه منه ، وما انفك عن الباشا حتى أخرجه من مصر ، فعاد إلى الأستانة ، ولم يزد «على بك» إلا ثقة فى «محمد بك أبو الذهب» وإخلاصه له ، رغم ما كان ينقل إليه عنه من السعى ضده .

وفى سنة ١١٨٢ هـ ، انتشبت الحرب بين روسيا والدولة

العلية ، فبعثت هذه إلى مصر أن تمدها بإثنى عشر ألفاً ، فوصلت الأوامر لعلى بك بذلك ومشروعه لم ينضج بعد ، فلم يسعه إلا مباشرة ما أمر به لما ابتدأ بجمع الجنود . أما أعداؤه فاغتنموا تلك الفرصة للوشاية ، فضموا إليهم الباشا الجديد الذى كان قد أرسل إلى القسطنطينية بدلاً من الباشا الذى أخرجه «على بك» . واتفقوا جميعاً على كتابة تقرير أمضاه الباشا وسائر البكوات أعداء «على» يشنون به إلى الديوان الشاهانى بدعوى انه إنما أراد بما يجمعه من الجيوش معاضدة روسيا للاستقلال بمصر ، فأنفذ الديوان الشاهانى إلى الباشا أمراً مشدداً أن يقتل «على بك» ويرسل رأسه إلى الأستانة .

فاتصل ذلك لعلى بواسطة أصدقائه بالأستانة فبعث «على بك طنطاوى» أحد دعاة فى عشرة من أتباعه المعاليك ، متنكرين بلباس البدو ويكمنون على مسافة قصيرة من القاهرة حيث لابد للقابجى باشى حامل ذلك الفرمان من المرور به ، فمكثوا هناك ثلاثة أيام . وفى يوم الرابع بان لهم القابجى ومعه أربعة رجال ، فوثبوا بهم وقتلوهم وطمروهم بالرمل ، وأخذوا ملابسهم والفرمان وصاروا إلى «على» فقرأه .

ثم جمع إليه ديوان البكوات العمومي وأطلعهم عليه وأقنهم
أن ذلك ليس لقتله وحده بل لقتلهم جميعاً . ثم خاطبهم قائلاً :

«دافعوا إذاً عن حياتهم وحقوقهم واعلموا أن مصر ما
برحت منذ القدم يحكمها دول من الممالك كانوا سلاطين أشداء
تفاخر بهم الأرض السماء فاعيدوها إليهم وهذه فرصة لا
يضيعونها . فإنهم لن تعثروا عمركم على فرصة مثلاً . هلم إذاً
نسعى في الاستقلال ، فإن فيه حياتنا وحریتنا .

استقلال على بك بمصر

فتأثر البكوات من فصاحة «على» وبلاغته (١) ، وكانوا
ثمانية عشر ، قد أجمعوا على دعوته ، فعاهدوه على الدفاع عنه ما
استطاعوا إلى الدفاع سبيلاً . أما سائر الأمراء المماليك من
أعدائه فخافوا العاقبة ، ولزموا السكوت ، فكتب ديوان «على بك»
أمراً إلى الباشا أن يبرح الديار المصرية في ٤٨ ساعة ، وإذا لم
يفعل ؛ يقتل وأن مصر قد أصبحت مستقلة . وبعث على إلى الشيخ
«ضاهر العمر» أمير عكا يعلمه رسمياً باستقلال مصر ، ويدعوه
للمساعدة في ذلك . فأجابه الشيخ ضاهر مسروراً ، وجمع إليه

(١) كان على بك يتحدث بالتركية ولم يكن يعرف العربية .

رجالہ ورجال بنیہ السبعة وصهرہ . وانضم الجميع إلى جنود «علی» وكان قد أضاف إلى الستة الآلاف التي عنده من المماليك الإثنى عشر ألفاً التي جمعت ممدداً للعثمانيين ، وأضاف إلى هذه أيضاً رجال أصدقائه البکوات حتى رجال أعدائه لأنهم لم يعد يسعهم إلا طاعته .

فاتصل ذلك بالأستانة ، فأرسل الباب العالي أمراً إلى والی دمشق أن يسير في ٢٥ ألفاً لمنع جنود عكا من معاضدة «علی» فسار الوالی في ذلك العدد من الرجال ، فلاقاه الشيخ «ضاهر» في ٦ آلاف بين لبنان وبحيرة طبرية ، وردده على أعقابہ سنة ١١٨٢ هـ . وكانت هذه الواقعة آخر الوقائع لأن الباب العالي أمسك بعدها عن إرسال الجند كأنه نسي علاقته مع «سوريا» و«مصر» بالكلية .

أما «علی» فاغتتم اشتغال الدولة العلية بالمحاربة مع روسيا وصرف عنايته في تنظيم مملكته الجديدة ، وإصلاح داخليتها من الخلل . فخفض الضرائب وجعل علی المالية مدير الكمرك القديم المعلم «ميخائيل فرحات القبطی» بدلاً من يوسف بن لاوی الإسرائيلي ، وكان قد قتل جزءاً خيائته ، ونظم التجارة الخارجية

والمواصلات ، وأبعد العربان إلى الصحراء ، فاستولى الأمن وانتشر الإصلاح في القطر ، فزادوا على القاب «على» لقب بلوط قبان - مبيد اللصوص (١) .

قبيلة الهوارة

وكان في جملة القبائل الثائرة على «مصر» قبيلة «الهوارة» وهي أشدهن بأساً وأطول باعاً ، جاءت في الأصل من ضواحي تونس الغرب ، واستقرت بين «جرجا» ، «فرشوط» في بقعة من الأرض لم تكن تصلح للزراعة ، فاعتنوا فيها حتى أنشأوا عدة قرى - وما زالوا ينشرون سطوتهم حتى احتلوا البقاع بين هوارة وكفر الشيخ سليم .

ثم اغتتم الشيخ «هامان» (٢) ، شيخ الهوارة - اشتغال مصر بما تقدم ، ووضع يده على البلاد من «أسيوط» إلى

(١) الكلمة تركية ومعناها التوصل إلى السحاب ، وذلك لطول قامته على بك ، ويترجم هوات هذه العبارة بمعنى «قايض الغمام» وفي رد هاتس بمعنى السحاب وهي معاً يمكن ترجمتها : حاجز السحاب أو «قايض الغمام» .

(٢) الصحيح هنا الشيخ همام شيخ الهوارة : انظر دراسة د. ليلى عبد اللطيف : الصعيد في عهد شيخ العرب همام ، الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٧ .

«أسوان» (١) وجمع إليه محصلولاتها ، وكان قد حارب هذه القبيلة كثيرون ممن تولوا مصر قبل «على» وفرضوا عليها ضريبة مقدارها ٢٥٠ ألف أردب من الحنطة توردها سنوياً إلى مصر .

ففي سنة ١١٨٢ هـ ، أرسل «على بك» صديقه «محمد بك أبا الذهب» لمحاربة الشيخ «هاملان» وقبيلته فحاربهم وتغلب عليهم في أواخر تلك السنة . فاضطر أبناء الشيخ أن يبتاعوا حياتهم بما لديهم من ثروة أبيهم . فربح «أبو الذهب» من ذلك مالا كثيراً ثم أسرع إلى «القاهرة» لما علمه من الدسائس التي كان ساعياً بها رفيقه «أحمد بك الجزار» على «على بك» وكأنه لم يكن يريد أن يشاركه أحد بالدسائس على سيده .

وكان «أحمد الجزار» ينظر إلى أبي الذهب نظره إلى عدو يناظره في ارتكاب الدنيا ، فسعى في قتله ، فلم ينجح وكان لأحمد الجزار سيف مشهور بطيب فولاذه ، واتقان صنعه ، فاتفق يوماً أنه اجتمع «بمحمد أبي الذهب» ، فقال له «محمد» : «أرني حسامك لأجرين فرندة» ، فأجابته أحمد : «لا يستل حسامى حتى

(١) وهي أسوان .

يستباح قتيلاً ، ثم نهض للحال ، وغادر القاهرة قاصداً
«القسطنطينية» فوصلها . ثم عهدت إليه ولاية «عكا» بعد ذلك ،
وما زال بها حتى توفاه الله .

فتوح على بك ومعاهداته

أما «على بك» فبعد أن تغلب على الصعيد ، ثار في خاطره
حب الافتتاح ، فجرد على «اليمن» جيشاً تحت قيادة «محمد أبى
الذهب» فسار في عشرين ألفاً ، فقطع برزخ السويس ، ومضيق
العقبة ، ولم يبق على أحد من القبائل التى حاولت الوقوف فى
طريقه ، وما زال حتى أتى اليمن وافتتحها .

وأمر «على» فسار «إسماعيل بك» فى ثمانية آلاف لافتتاح
السواحل الشرقية للبحر الأحمر و «حسن بك» لافتتاح «جده» ،
ولقب الجداوى إشارة إلى انتصاره على تلك المدينة ، وما زال يعرف
بهذا اللقب من ذلك الحين ، ولم تمض ستة أشهر حتى افتتحت
جزيرة العرب وفى جملتها «مكة المشرفة» ولحق بها نهب شديد
وأنزل شريفها ، وأقيم مقامه ابن عمه الأمير «عبد الله» فوافق علياً
على سلطته وسماه «سلطان مصر وخاقان البحرين» ، فعل ذلك
بصفته الدينية تملقاً لعلى .

فلما حصل «على بك» على ذلك من شريف مكة ، أخذ يتمتع بحقوق السلطنة ، فأمر أن يخطب باسمه في الصلوات العمومية أيام الجمعة ، وضربت النقود باسمه سنة ١١٨٥ في القاهرة - كما سنرى .

وسمى «على بك» في هذه السنة في أمر سيق به إلى حتفه، وذلك أنه عهد إلى «محمد أبى الذهب» أن يسير في ثلاثين الفا لإخضاع بلاد الشام لأنه كان يعتبر هذه الولاية بعد خروجه من طاعة الدولة العلية عدواً قريباً يخشى منه على نفسه وعلى صديقه ومحالفه الشيخ «ضاهر» وكان ينظر إلى «سوريا» كأنها جزء طبيعي من مملكة مصر . وكانت في الواقع قسماً منها في سائر أزمنة التاريخ التي كانت فيها مصر مستقلة ، في الدولة الطولونية والفاطمية والأيوبية والمماليك وغيرها .

وسمى «على بك» في التحالف مع الدول التي بينها وبين الأستانة حداوة ، فاستخدم تاجراً إيطالياً اسمه «روستى» (١) عقد له معاهدة سلمية مع البندقيين على أن يكونوا حلفاءه ، ثم عهد إلى رجل أرمنى اسمه «يعقوب» أن يستطلع من الكونت «الكسيس

(١) موكارلوروستى .

أورلوف» قومندان القوات الروسية في البحرين (المتوسط والأسود) عن عقد معاهدة دفاعية هجومية مع قيصرة الروس «كاترينا الثانية» . فأجاب الكونت بالإيجاب وفتحت المخابرات بشأن ذلك ، وطال أمرها كثيراً لبعده المسافة بين الطرفين .

أما جنود «على بك» في سوريا ، فصاحبها الظفر واتحدت بجنود الشيوخ «ضاهر» فاستولوا على «غزة» و «الرملة» و «نابلس» و «القدس» و «يافا» و «صيدا» ، وأخيراً حاصروا «دمشق» ولم تلبث يسيراً حتى سلمت (١) .

خيانة أبى الذهب

فلما رأى «محمد أبو الذهب» تمام هذه الفتوح العظيمة على يده ، حدثته نفسه أن يجعلها لنفسه ، ثم قادته مطامعه إلى محاربة على ، واستخراج مصر من يده ، ويظن أنه لم يقدم على ذلك من تلقاء نفسه ، وإنما جعل عليه بأوامر جاءت من الأستانة لأن المخابرات السرية كانت متواصلة بينه وبينها بواسطة الباشا الذى أخرجه على من مصر ، فأمسك «محمد» عن السير في البلاد العثمانية ، وحول شكيمه مقاصده نحو الديار المصرية ،

(١) في المخطوط مسودة كاترينا الثانية .

فجمع ما كان لديه من الجيوش ، وضم إليها الحاميات التي كان قد أقامها في المدن المفتوحة ، وسار قاصداً مصر لكنه لم يجسر على المسير إلى القاهرة رأساً خوفاً من الإنكشارية والوجاقات الأخرى لعلنه بما في قلوبهم من الضغينة عليه . فخرج نحو الصحراء حتى أتى الصعيد . فحط رجاله هناك ، واستولى على أسيوط في آخر يوم من سنة ١١٨٥ هـ . ثم استقدم قبائل العربان وطلب محالفتهم ومخالفة بكوات الصعيد ، وجاهر بعزمه على خلع «علي بك» وسار قاصداً القاهرة ، فوصلها في أوائل سنة ١١٨٦ هـ ، فنزل بجيشه تجاه البساتين فوق مصر القديمة .

فلما علم «علي بك» ندم على ما وضعه من الثقة في رجل كان له أن يعتبر من سيرته الماضية أنه على غير الإخلاص والاستقامة ، فجند ٣ آلاف رجل بقيادة «إسماعيل بك» وأمرهم أن يمنعوا محمداً من عبور النيل ، فسار إسماعيل ، لكنه خاف سطوة عدوه ، وورد عليه كتب مفعمة بالمواعيد يمازجها بعض التهديد فأخذ جانبه ، وضم جيشه إلى جيشه فقطع «محمد بك» النيل ، فاستقبله رجال إسماعيل بالترحاب ، فاتصل ذلك بعلي فيئس من الفوز ، فانقطع إلى القلعة بأهله وأصدقائه ورجال دعوته ، وقد عزم على المدافعة إلى آخر نسمة من حياته .

على بك فى عكا

وبعد ثلاثة أيام ، ورد إليه كتاب من الشيخ «أحمد» أحد أبناء صديقه الشيخ «ضاهر» أن يبرح القاهرة حالاً ويأتى إلى أبيه فى «عكا» ، فخرج على من القلعة بمن معه وسار من جهة الجبل الأحمر طالباً سوريا عن طريق الصحراء . وكان خروجه قبل دخول «محمد بك» القاهرة بيوم واحد ، أى مساء ٩ محرم سنة ١١٨٦ هـ - وهذه هى المرة الثالثة لخروجه منها إلى «سوريا» وفى معيته عدد يسير من الجند لا يبلغ ستة آلاف معظمهم من الخدمة الذين لا يستطيعون الدفاع . ولم يحمل معه من المال إلا ثمانمائة ألف زر محبوب يحملها ٢٥ جملاً ، ونقل معه المصوغات والحلى ما يساوى أضعاف ذلك .

وما زالوا فى المسير ليلاً ونهاراً حتى وصلوا إلى خان يونس فى حدود سوريا بعد ثلاثة أيام . فرأوا أن خمسة من الجمال الحاملة النقود قد ذهبت فريسة بيد القبائل البدوية ، وأن عدداً من رجاله فروا ، ومعهم «يوسف الخزندار» . وفى اليوم التالى دخل «على بك» غزة . ثم واصل السير حتى أتى «عكا» بعد ثمانية أيام . فرحب به أميرها وكانت بينهما مودة شديدة ،

فأطمأن «على بك» هناك غير أن ما تكبده من المشاق في الأسفار مع ما أثر في نفسه من الغيظ الشديد غير صحته ، فلم يصل «عكا» إلا وهو في حالة الخطر من شدة المرض .

وفي أثناء ذلك وصل ميناء عكا أسطول روسي ، فلما علمت حاميته بما حل «على بك» عقدوا معه معاهدة ثانية وقدموا له كل ما يحتاج إليه من المؤن والذخائر . وكان في خدمة ذلك الأسطول فرقة من الألبانيين مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل ، فأمدوه بهم ، فلما رأى «على بك» ما كان من نجدة الروسيين مع ما يمكنه الحصول عليه من جنود الشيخ «خاهر» عزم على منارة «أبي الذهب» لكنه لم يكن يستطيع مباشرة ذلك بنفسه لانحراف صحته، فعهد إلى «على بك الطنطاوي» بعد ثلاثة أشهر أن يسيروا أولاً لاسترجاع المدن السورية التي دخلت في حوزة «محمد أبي الذهب» فسار واستولى على «صور» و «صيداء» وقرى أخرى من سواحل سوريا كانت قد احتلتها جنود عثمانية بعد انسحاب جنود «أبي الذهب» .

ثم سار «على» بنفسه مع من بقي من الجند إلى «يافا» وافتتحها بعد محاصرة خمسة أشهر استولى في اثنتائها على

«غزة» عنوة وعلى «الرملة» و «اللد» تسليماً ، فأعاد «يافا» إلى حكومة الشيخ «ضاهر» وجعل على «اللد» «حسن بك» الجداوى ، وعلى الرملة «سليم بك» .

محمد بك أبو الذهب

وفى ٩ القعدة سنة ١١٨٦ هـ ، كان «على بك» فى «يافا» فجأته رسل من القاهرة بمهمة سرية من وفاق الإنكشارية والوجاقات الأخرى ، وسائر أعيان القاهرة : أن «محمد أبا الذهب» دخل القاهرة حالماً خرج هو منها ، وسمى نفسه شيخ البلد ، وجعل يعمى فى البلاد عيثاً لم يسبقه إلى مثله أحد ممن تولى مصر قبله ، فجعل الضرائب ضعفين ، وبعضها ثلاثة أضعاف . ثم اختلق قانوناً غريباً دعاه : قانون رفع المظالم ، والمقصود منه بحسب الظاهر إنقاذ ملتزمى الأموال الأميرية من الإجراءات الاستبدادية التى كان يسومهم إياها الكشاف إلى ذلك العهد واستبدالها بما يعود بالمنفعة . والحقيقة أن الضرائب ما انفكت أشد وطأة من ذى قبل ، والإجراءات لم تزدد إلا استبداداً فضلاً عما رافق ذلك من الفتك بالعباد قتلًا ونهباً .

ثم قالوا إن مصر بجمعتها لما رأت ما وصلت إليه من

الانحطاط ، وما لحق بأهلها من المظالم التى ما أنزل الله بها من سلطان قد أنابتهم أن يبلغوا «على بك» أنها بصوت واحد تلتمس رجوعه ليحكم فيها لأنه هو منقذها الوحيد ، وأن مدينة القاهرة مستعدة أن تفتح أبوابها لاستقبال أميرها القديم وأن تدافع عنه الدفاع الممكن إذا حاول «محمد بك أبو الذهب» ما يخالف الصوت العمومى .

خروج على بك لمحاربة أبى الذهب

فلما علم «على بك» بكل ذلك ، شعر أن آماله عادت إليه وبرح «يافا» للحال قاصداً القاهرة ، وما يكن معه من الجنود إلا ألفان وخمسمائة ، فاستنجد حاميات «اللد» و «الرملة» وانضم إليهم جنود الشيخ «ضاهر» و جنود ابنه الشيخ «شبلى» وصهره الشيخ «كريم» ، و «حسن» شيخ صور ، وكان قد استأجر ثلاثة آلاف وخمسمائة من المغاربة ، فكان عدد جنوده جملة ثمانية آلاف محارب .

ففى ١١ محرم سنة ١١٨٧ هـ ، وصل «على بك» إلى خان يونس ، وفى ١٦ منه ، اقترب «من الصالحية» ، وفى ١٨ منه ، التقى بمقدمة جيوش «محمد أبى الذهب» وعدتهم اثنا عشر ألف

مقاتل ، وبعد محاربة بضع ساعات ظهر «على بك» عليهم وقتل عدداً غفيراً من رجالهم . فانفتحت له أبواب «الصالحية» فدخلها وقد أصيب بجروح بليغة .

ثم علم أن اعتماده على أحزابه في القاهرة لا يورثه إلا الخيبة لأن أبا الذهب كان قد جمع إليه كبراء البلاد ورجال حكومتها لما علم بمظاهرتهم «لعلى» وأقنعهم أن «على بك» قد غدر الأمة وخان الوطن وأباح دماء المسلمين بمعاهداته مع الروسيين وغيرهم من الأمم النصرانية . واستخدم «أبو الذهب» في سبيل اقناعهم الدرهم الواضح ، فانهازت إليه القوات العسكرية إلا وفاق الإنكشارية ، فإنه ظل على ولاء «على بك» .

فلما تحقق «أبو الذهب» اجتماع الأحزاب على دعوته أمن الاضطراب الداخلي فصار بنفسه لمحاربة على .

أما «على» فأنزعج لتلك الأحوال انزعاجاً كثيراً فضلاً عما كابده من المشاق في السفر ، وقطع الصحراء ، وزد على ذلك الجروح التي أصابته في واقعة «الصالحية» فأصيب بحمى شديدة عجز معها عن ركوب جواده بقيادة جنوده . وفي ٢٠ محرم سنة

١١٨٧ هـ ، علم بمجيء «أبي الذهب» وهو على ما تقدم من المرض . فلم يتردد في وجوب الدفاع . فأمر قواده ، فانتظمت رجاله على قلتها وتهيأت للدفاع . وكان على أحد جناحي الجيش «علي بك الطنطاوي» ومن معه من البكوات ، وعلى الجناح الآخر ابن الشيخ ضاهر وصهره ، فاستظهرت جنود علي باديء الرأي حتى قاربت الفوز التام .

ثم أرسل «أبو الذهب» بعض جواسيسه إلى المغاربة في جيش علي يغريهم على خيانة رئيسهم ، فوافقوه ، ووافق غيرهم كثيرون من بكوات علي ، وفي جملتهم «إبراهيم بك» و «مراد بك» وهذا الأخير اشترط أن يأخذ مقابلاً لخيانته هذه ما يخلقه «علي» من المتاع والنساء ، وخصوصاً أمراًته «نفيسة» وكان «علي» يحبها ويحترمها لما كانت عليه من الفطنة والجمال فلما انتشبت الحرب في الصباح التالي ، انحاز جميع المغاربة والبكوات الذين خانوا ، إلى عسكر «أبي الذهب» وكانت جنود «علي بك» قريبة من الفوز . فلما رأت تلك الخيانة تضعفحت ، وفر الجند يطلبون النجاة بأنفسهم بعد أن قتل «علي بك الطنطاوي» و «الشيخ شبلي» ونجا «الشيخ كريم» والشيخ «حسن» و «رضوان بك» من المعركة وساروا

إلى فسطاط «على بك» وأعلموه بما حصل ، وطلبوا إليه أن يعتلى
فرسه ، ويسير برفقتهم إلى غزة ، حيث يلاقيهم الشيخ «ضاهر»
يمن معه من الجند .

مقتل على بك

أما «على بك» ، فأبى نفسه الإصغاء لما أرادوا ، فجلس
بباب خيمته وقال لهم : «إني ملازم هذا الموضع لا أبرحه حتى
تبرحنى نفسى ، لأن الموت هنا أفضل عندي من الفرار ، أما أنتم
إذا شئتم النجاة بأنفسكم ، فبادروا إلى الفرار قبل أن يفشاكم ما
ربما لا تقوون على دفعه» .

فاضطر ابن أخيه ورجاله الباقون أن يذعنوا لما أمر ،
فودعوه ، وجعلوا الأعنة فى طريق خان يونس ، قاصدين «غزة»
فلقوا الشيخ «ضاهر» هناك ، فأعلموه بما كان ، وبوفاة ابنه
فأسف كثيرا .

ومكث «على بك» بعد ذهاب أصدقائه بضع ساعات ينتظر
منيته ، وبجانبه عشرة من مماليكه وإذا بخمسين رجلاً تحت قيادة
الكخيا : نائب «محمد أبى الذهب» قد وصلوا الخيمة ودخلوها
وقتلوا من كان فيها من المماليك ، ثم وثبوا على «على» ، وكان

المرض مشتدا عليه وفيه جروح ، لكنه نهض بسيفه فقتل أول قادم عليه ، وجرح اثنين آخرين فخاف الباقون الاقتراب منه ، فأطلقوا عليه البنادق فجرحوه جروحاً بليغة في زراعة اليمنى وأخذوه ، فجعل يدافع بيسراه دفاعاً شديداً إلى أن وثب عليه الكخيا بنفسه ، فدافعه «على» حتى أصيب بذراعه اليسرى ، وفي أماكن أخرى ، فسقط على الأرض وهو لا ينفك عن الدفاع ، فتكاثر عليه الرجال حتى أمسكوه حياً ، وساروا به إلى «محمد أبي الذهب» وطرحوه عند قدميه فأمر بحمله إلى القاهرة ، فحملوه إليها ، وأنزلوه في داره بدرب عبد الحق في شارع البكرى - وراء صندوق الدين - فلبث فيها سبعة أيام ثم توفاه الله . وقد قال بعضهم أن «أبا الذهب» أدخل السم في جراحه فقتله - والله أعلم - ، ودغثوه بتربة أستاذه «إبراهيم كخيا» بجوار الإمام الشافعى . وكان لموت هذا الرجل تأثير عظيم في قلب كل من عرفه حتى أن أبا الذهب نفسه لم يسهه إلا القدم في سره ، لما فرط منه ، وما أتاه من نكران الجميل وارتكاب مثل هذه الخيانة .

مناسقية

ومن مناقب «على بك» أنه كان عظيم الهيبة حتى اتفق
لأناس أنهم ماتوا خوفاً من هيبتة ، وكانت تأخذ الرعدة بعضهم
بمجرد المثل بين يديه ، فيأخذ هو بتلطيف رعبه فيقول : «هون
عليك» ، وكان صحيح الفراسة ، شديد الحذق ، يفهم ملخص
الدعوى الطويلة بين المتخاصمين ، ولا يحتاج فى التفهيم إلى
ترجمان أو من يقرأ له الصكوك والوثائق بل يقرأها هو بنفسه ،
ولا يختم ورقة حتى يقرأها ويفهم محتواها .

مآثره : البناية العظيمة «بطنطا» ، وهى المسجد
والجامع والقبة على مقام السيد البدوى ، والمكاتب والميضاة
الكبيرة ، والحنفيات ، والمنارتان العظيمتان ، والسبيل المواجه
للقبة ، والقيسارية العظيمة ، وجدد أيضاً قبة الإمام الشافعى ،
وبنايات ووكالات فى بولاق مصر . ولا يزال هذا الرجل مميزاً عن
المؤرخين بلقب الكبير ، فيدعونه : «على بك الكبير» .

وقد ضرب نقوداً باسمه بمصر ، وقد أضاف اسمه إلى
اسم السلطان أحمد خان على الطغراء اسم السلطان المذكور ،
واسم «على» على الجانب الآخر .

ويموت «على بك» انتهى الدور الثالث من سلطنة العثمانيين

على مصر .

الدور الرابع من سلطنة
العثمانيين علي مصر
من سنة ١١٨٧ - ١٢١٣ هـ -
ومن ١٧٧٤ - ١٧٩٨ م

لم يتوال علي العرش العثماني في أثناء هذا الدور إلا
سلطانان ، مدة حكمهما جميعاً ٢٥ سنة ، والحال متضعضعة كما
سقى .

١ - سلطنة عبد الحميد الأول
من سنة ١١٨٧ - ١٢٠٣ هـ -
ومن ١٧٧٤ - ١٧٨٩ م

هو ابن السلطان أحمد ، تولى العرش العثماني وسنه
خمسون سنة ، وكان قد قضى مدة حكم أخيه مصطفى محجوراً
عليه في قصره - كما جرت العادة - ولم يستطع توزيع المال علي
الجند حسب العادة ، لنضوب الخزينة في الحروب الماضية وكانت
قد عادت ظافرة منها ، فأخذت روسيا تستعد لاسترجاع ما فقدته
من الشهرة .

ففى تلك السنة ، زحفت جنودها على نهر الطونة (١)
واجتازته ، فاعترضهم العثمانيون وهزموهم ، وعادوا فقتلوا وشوا
وتحاربوا ، وانتهت الحرب بمعاهدة فى يوليو سنة ١٧٧٤ كانت
روسيا فيها الرابحة ، لكن العثمانيين تفرغوا لإصلاح داخليتهم
والتأهب للمستقبل ، فرموا الأسطول ، واشتغلوا بالإصلاح ،
وتعدت روسيا على القرم وضمتها إلى أملاكها ، ولم يحرك
العثمانيون ساكناً .

أما حال مصر ، فبعد وفاة «على بك» عاد وادى النيل إلى
ما كان عليه قبله تابعاً لأملاك الدولة العلية ، وعادت أحكامه إلى
مشايخ البلاد والكشاف الذين جعلوا تلك المناصب وسيلة لاختلاس
أموال الناس ، وحقوق الدولة ، وكان «على بك» قد جعل لهذه
المظالم حداً ، وأصلح الشئون حتى علقت الآمال باعتران مصر
ورفع شأنها ، فلم تُبق المنية عليه .

نعم إن مصر بعد وفاته عادت إلى كتف الدولة العثمانية
لكنها بالحقيقة لم تغد لها شيئاً ، لأنها كانت فى الحالة الأولى طعمة
لرجل محب للإصلاح ، مخلص بمقاصده ، وإن كانت بمعزل عن

(١) وهو نهر الدانوب .

سيادة الدولة فأصبحت في الثانية طعمة لثلاثين رجلاً كل منهم يسعى في ابتلاعها ، لا يتفقون إلا على كره الدولة التي هم تحت حمايتها .

أما السلطان عبد الحميد ، فلم يكن يرسل إليها من الولاة إلا من كان اسماً بلا مسمى ، كما كان شأنهم قبل ظهور «على» فكان الباشا من هؤلاء آلة يديرها البكوات كيف شاموا ، ولم يكن لديه من الأعمال إلا مخابرة القسطنطينية سرّاً بما كان يقع بين هؤلاء البكوات من الخلاف ، وما كانوا يتداعون إليه من الخصام ، وواجبات المهمة أن يستلم الجزية من الحكومة المصرية ، ويرسلها إلى الأستانة إذا تمكن من قبضها .

أهو طبق وعزل الباشاوات

فكانت ولاية مصر منصبةً يستحي العقلاء من قبوله لأنهم كانوا يعتبرونها منفسى استحققه الباشا أو الوزير الذي يرسل إليها (١) . وكان يغلم قبل خروجه من الأستانة أنه إذا لم يكن راضياً بما يرضاء شيخ البلد لا يلبث أن يصله منه رسالة ينقلها ناقل يقال لها : الأولة باشى ، وفيها الأمر بعزله أمر لا مرد له ولا

(١) الأصل أن مصر كانت ولاية عثمانية ذات وضع متميز ولا يرسل إليها إلا الولاة المتميزين .

مجال للمدافعة بعده ، وكيفية ذلك أن شيخ البلد ورجاله إذا رأوا في تصرف الباشا ما يوجب الشك اجتمعوا اجتماعاً عسومياً في الديوان وقرروا عزله ، وكتبوا بذلك أمراً يسلمونه إلى الأوطى باشى ليوصله إلى الباشا ، فيحمله ويسير على حمار - لأن القانون لا يسمح له بركوب الخيل أو البغال - وبين يديه فرمان العزل ، فإذا مرّ بالأسواق على هذه الصورة ، علم الناس أنه ساع في أمر هام فيه عزل فيهرولون وراعه ، ولا يزال سائراً في عرض الطريق قائداً لتلك الجماهير نحو القلعة . ومن واجبات أى جندى لقيه في تلك الحال أن يرافقه انتقاء ما يخشى حدوثه عند وصوله القلعة .

فإذا وصل القلعة يدخل على الباشا ، ثم يجثو أمامه باحترام ووقار . وعندما ينهض يطوى السجادة التي كان جاثياً عليها وينادى بأعلى صوته : « أنزل يا باشا » وعند طي السجادة ، والتلفظ بهذه العبارة تسقط كل حقوق الباشا ، ولا يبقى له أقل سلطة على الجنود التي كانت قبل بضع دقائق تحت أمره ، وتصير تحت أمر الأوطى باشى ، وكانوا يسمونه « أبوطبيق »^(١) لأنه كان يلبس على رأسه قبعة مثل الطبق ، والباشا

(١) في المخطوط صورة أبوطبيق في مركبه .

يقف ممثلاً يسمح تلاوة فرمان سواء كان منطوقه بعزله أو بقتله ، فلا يسمعه إلا الطاعة التامة ، على مثل ذلك كانت معاملة باشوات مصر (١) .

لما مات «على بك» ، اختلف أعداؤه في القاهرة على الاجتزاء من انتصاراتهم ، فكان كل منهم يظن لنفسه الحق بالتمتع بالثمار انتصاره كغيره أو أكثر ، فاختلقت الأحزاب من بينهم . أما من بقى من رجال «على بك» فلم يجنوا مكاناً فيه راحة لهم ، وكانوا في «عكا» عند الشيخ ضاهر - على ما تقدم - فتقهقر «أبو الذهب» لأنه كان يحب الانتقام . حباً يفوق التصديق وقد ألى على نفسه ألا يبقى على أحد من رجال «على» .

أما الشيخ ضاهر - أمير عكا - فلم يعد يطيب له السكون بعد أن خسر ابنه في سبيل نصرة «على بك» فثارت في خاطره

(١) ان ما ذكره المؤلف بشأن طريقة إقالة الباشا من منصبه لم تكن طريقة اُبتدعتها الدولة العثمانية ، بل إن الدولة حينما تريد عزل واليها - الباشا - تصدر له فرماناً بالعزل ويعين بدلاً منه قائمقام يقرى مهامه إلى حين وصول الباشا الجديد . لكن ما ذكر المؤلف من تلك الطريقة كان من ابتداع كبار الأمراء المماليك في القرن ١٨ حينما أصبحوا هم المسيطرين الحقيقيين على شئون البلاد ولا يدخل للدولة العثمانية في ذلك والتي كانت سلطتها على مصر في تلك الفترة ضعيفة إلى حد ما . المحقق .

بواعث الانتقام . ولكن «أبا الذهب» لم يعد يستطع صبراً على ذلك . فاسترحم من الباب العالي أن يسمح له بالمسير لإخضاع «سوريا» ولا سيما «عكا» . واتهم أميرها ضاهراً بالعصيان ، وأنه ساع ضد الدولة . فجاباه الباب العالي بفرمان يثبته في مشيخة البلد مع لقب باشا ورتبة والي القاهرة ، مكافأة لما أتاه من كسر شوكة «على» وأحزابه ، وأذن له أن يتتبع ذلك الشيخ العاصي .

فلما وصل الفرمان إلى «أبي الذهب» كاد يطير من شدة الفرح وأعد جيشاً تحت قيادته واستخلف في مصر إسماعيل بك ، وعهد حكومة مدينة القاهرة إلى «إبراهيم بك» ، وسار في جيشه إلى «سوريا» ولم تنقته سنة ١١٨٩ حتى دخل فلسطين ، وكان لشدة عجه بما أوتي من الألقاب والرتب وما وعده به الباب العالي من المساعدات لا يزيد إلا كبراً حتى جعل خيمته التي يستريح فيها من أثنى ما يكون ، وزينها أبداع زينة ، فمر «بخان يوش» ، «فالرملة» ولم يلاق مقاومة ، أما «يافا» فكان عليها شيخ «كريم» صهر الشيخ «ضاهر» فدافعت قليلاً ثم فتحت عنوة ، فدخلها رجال أبي الذهب ، وقتلوا القسم الأعظم من سكانها رجالاً ونساء ، وشيوخاً وأطفالاً .

فبلغت تلك الفواحش مسامع الشيخ «ضاهر» وهو في عكا ،
فخاف أن يصيبه ما أصابها ، ففر بعائلته ويمن هاجر إليه من
المصريين ، ولم يترك في المدينة إلا ابنه «عليا» .

ولما علم باقتراب جيوش أبي الذهب ، أخلى القلعة
وانسحب منها لاعتقاده أنه إذا حاول الدفاع إنما يحاول عبثاً ،
فوصلها «أبو الذهب» وأبوابها مفتوحة ، فدخلها ولم يبق عليها ،
ففى هذه المدينة انتهت فظائع هذا الرجل ، لأنه بينما كان عازماً
على العود إلى مصر ، أصبح القوم فوجده ميتاً فى خيمته ، ولم
يعرفوا القاتل رغم ما اتخذوه من الاحتياطات وما كان لديهم من
القرائن الكثيرة . فقال بعضهم إنه أصيب بنقطة - وهى داء
السكته - وقال آخرون إنه مات مقتولاً بيد عنوفاتك - والله أعلم .
وبعد موت أبي الذهب ، عادت الجيوش المصرية تحت قيادة
«مراد بك» إلى مصر ومعهم جثة رئيسهم ، قد دفنوها بالقرب من
مدفن «على بك» ، ومات أبو الذهب بعد موت على بك بسنتين ولُقب
بالخائن (١) .

(١) لم يلق محمد بك أبو الذهب بلقب الخائن ، ولم يحمل هذا اللقب فى تاريخ
مصر العثمانية إلا أحمد باشا الخائن . أما المصائر العثمانية فتزيد على هذا ، محمد
على باشا رأس العائلة العلوية فى مصر . المحقق .

مشيخة إسماعيل بك

وتولى مشيخة البلد بعده «إسماعيل بك» ولم يبق غيره من رجال «إبراهيم كخا» ، وهو من الذين نالوا البكوية بواسطة على بك ، وكان لا يزال على دعوته ، وإنما انضم إلى «أبي الذهب» خوفاً ، وقلبه لم يفتّر لاهجاً بالدافعة عن رئيسه ، لأنه لم يأت نحوه إلا ما يستدعى نصرته فضلاً عن أنهما من طائفة واحدة .

فلما استلم زمام الأحكام نسج على منوال «على بك» فبعث إلى رجال حزبه الذين كانوا لا يزالون في سوريا فاستقدمهم إليه ، وأقرهم في أماكنهم ، وطيب خاطرهم استعداداً لمقاومة «مراد بك» و«إبراهيم بك» مناظريه على مشيخة البلد .

وكانا قد اتحدا على خلع «إسماعيل بك» فطلبوا أولاً طرد «حسن بك الجداوى» صديق «إسماعيل بك» فلم يفوزا ، لكنهما تمكنا من احتلال القلعة ، فاتحد «إسماعيل بك» و«حسن بك» وأخرجاهما منها ، ففرا إلى الصعيد . ثم جمعا حزباً كبيراً ، واستعدا لقتال إسماعيل ، فبعث جيوشاً لتخمد أنفاسهما ، فعادت على أعقابها وفاز الأميران فاضطر «إسماعيل بك» إلى مغادرة القطر المصري فيمّ الأستانة .

أما «حسن بك» فقبض عليه ونفى إلى جدة بحراً ، فاحتال
فى أثناء الطريق فأرضى رئيس المركب الذى نقله ، فأنزله فى
القصير على سواحل القلزم ^(١) ، ومن هناك قطع الصحراء غرباً
حتى أتى الصعيد فاستكن فيه .

مراد بك وإبراهيم بك

فلما خلا الجو «مراد بك» و «إبراهيم بك» اقتسما الأحكام
فتعين الأول أميراً للحج . والثانى شيخاً للبلد ورقياً كثيرين ^(٢) من
مماليكهما إلى رتبة البكوية ، وقلداهم مصالح البلاد .

وكانت الأحكام فى عهدهما كما كانت فى أيام أسلافهما
من الظلم والاستبداد . وبلغهما بعد مدة أن «إسماعيل بك» عاد من
«الاستانة» وجاء «حلوان» ، فبعثا فرقة من المماليك فتكت بكل من
كان معه من أهله ورجاله . أما هو فتمكن من النجاة باختبائه فى
بعض الكهوف ثلاثة أيام . ثم خرج طالباً الشلال ، اجتمع هناك
بصديقه «حسن بك الجداوى» وسارا معاً وأويا إلى الجنادل فى
السودان .

(١) هو البحر الأحمر .

(٢) الصحيح فيها كثيرين .

فاختلف «مراد بك» و «إبراهيم بك» على إرسال حملة للقبض على الهاربين . فارتأى أحدهما وجوب التجنيد ، وخالفه الآخر حتى آل الأمر إلى الخصام ، وخروج «إبراهيم بك» مغتافاً من القاهرة إلى المنيا في الصعيد . فأرسل إليه «مراد بك» بعض الاختيارية يسكنون من غضبه ، فأرضوه وأعادوه إلى مركزه في القاهرة ، إلا أن العلاقات الودية ظلت امتكدة بين الإثنين . ولم تعض مدة حتى خرج «مراد بك» إلى المنيا غيظاً من زميله ، لأنه اتحد مع خمسة من بيت عدوهما القديم وهم البكوات : «عثمان الشرقاوى» و «أيوب الصغير» و «سليمان» و «إبراهيم الصغير» و «مصطفى الصغير» .

ولبت «مراد بك» بعيداً عن القاهرة خمسة أشهر وإبراهيم يظن أنه لا يلبث أن يسكن غضبه ويعود إليه . فلما استبطأ ، أرسل إليه الاختيارية كما فعل ذاك معه . فأبى «مراد بك» ورد الاختيارية خائبين ، ثم جند جنداً من أتباعه المماليك وسار على الضفة الغربية للنيل حتى أتى «الجيزة» - مقابل مصر القديمة - وعسكر هناك وهمّ بقطع النيل ، فعلم «إبراهيم بك» بذلك ، فجند في الجهة المقابلة على البر الشرقى ليمنعه من المرور ولبت الجانبان على تلك الحال ثمانية عشر يوماً لا يتحاربان إلا على سبيل

المناوشة بإطلاق مدفع أو مدفعين ولم يقتل إلا رجل أو فرس . فعمل
«مراد بك» من تلك الحال ، فعاد إلى المنيا (١) .

أما «إبراهيم بك» فكان كثير الرغبة في مصالحة زميله ،
فأنفذ إليه بعد خمسة أشهر من خروجه وفداً ثانياً من كبار البلاد
ومشائخها يطلبون إليه الرجوع إلى القاهرة . فوافقهم لكن اشترط
عليهم أن يسلموه الخمسة البكوات المتقدم ذكرهم حال وصوله إلى
القاهرة ، فقبلوا بذلك الشرط ، فنزل معهم . فعلم أولئك البكوات
سراً من «إبراهيم بك» بما اشترطه «مراد بك» فخرجوا من
«القاهرة» نحو القليوبية على نية الشخص إلى الصعيد عن طريق
الأهرام فاتصل ذلك «مراد بك» ، فجعل عند الجسر الأسود قرب
الأهرام عصابة من العربان تترصدهم ، ولم يستطع صبراً
على ذلك ، فقطع النيل ببعض رجاله ، فالتقى بالمنهزمين عند رأس
الخليج ، فتلاحموا ، فجرح «مراد بك» ، ونجا أولئك فلاحهم
العربان عند الجسر ، فأسروهم ، وجأوا بهم إلى «مراد بك»
فنتفاهم إلى المنصورة و «فرسكور» و «دمياط» تفريقاً لكلمتهم .
وبعد امدة يسيره عابوا واجتمعوا في آخر سنة ١١٩٧ واتفقوا أن

(١) في المخطوط صورة مراد بك .

يفرّوا إلى الصعيد ، ويجمعوا إليهم عصابة يقاومون بها عدوهم .
ولم يباشروا ذلك حتى توسط شيخ الجامع الأزهر في أمرهم
وحصل العفو لهم من «مراد بك» فصفح عنهم وأعادهم إلى القاهرة
بكل إكرام وأعاد إليهم رتبهم وامتيازاتهم .

حملة عثمانية لحرب المماليك

مضى بعد ذلك ثلاث سنوات على «إبراهيم بك» و «مراد
بك» وهما على وفاق وسكينة يقتسمان إيراد البلاد بينهما بالسواء ،
لا يقدمون عنه حساباً ، أو إذا قدموه كان حبراً على ورق . فوشى
بهما «محمد باشا» والى مصر إذ ذاك إلى السلطان وبما كان فيه
من الاستئثار بمالية البلاد . فأمر السلطان «عبد الحميد»
- الأول - سنة ١١٩٩ هـ أن يرسل إلى مصر جيشاً لا يقافهما عند
حدهما فسار الجيش في عمارة بقيادة «حسن باشا قبطان» ،
فوصلت الإسكندرية في ٢٥ شعبان سنة ١٢٠٠ ، فخاف البكوات
خوفاً شديداً واجتمعوا اجتماعاً عاماً في الديوان ، وتباحثوا في ما
يجب اجرائه ، فكثرت اللفظ ، واختلفت المقاصد والآراء ، فلم يقرروا
على شيء وأخيراً ارتقوا طلب توسط «محمد باشا» . ولما عرضوا
عليه رأيهم رفض .

فطلبوا من شيخ «أحمد العروسي» شيخ الجامع الأزهر ،
والشيخ «محمد المهدي» الذي بقى في زمن الفرنسية كاتم سر
الديوان - وغيرهما - أن يسيروا إلى «رشيد» ويستعطفوا القبطان
باشا (١) .

فركبوا من «بولاق» في زورق فاخر ، ومازالوا حتى بلغوا
رشيداً ، فلاقاهم القبطان باشا بما يليق من الاحترام أما هم
فلعلمهم أن الأميرين «إبراهيم ومراد» لا يثبتان على رأى خافوا
إذا طلبوا العفو ، وحصلوا عليه أن ينكثا ذلك فتكون الملامة عليهم ،
فقال الشيخ العروسي : «يا مولانا إن رعية مصر ضعفاء ، وبيوت
الأمراء مختلطة ببيوت الناس» فقال الباشا «لا تخشوا بأساً ، فإن
أول ما أوصاني به مولانا السلطان هو قوله «إن الرعية وديعة الله
عندي وأنا استودعك ما أودعني الله تعالى» . فدعوه بطول العمر
ثم قال لهم : «كيف ترضون أن يملككم مملوكان كافران
يسومانكم سوء العذاب . لماذا لا تخرجونها من دياركم ؟»
فأجابه أحدهم بقوله : «يا سلطانم (٢) هؤلاء عصابة شديدي البأس
لا تقوى على دفعهم» .

(١) في المخطوط صورة الشيخ محمد المهدي الكبير .

(٢) سلطانم بمعنى سلطانى ، بالميم فيها ملكية لمتكلم .

فطبيب خاطرهم ووعدهم بالحماية ، وبالحقيقة أن هذا الوفد تصرف بالحكمة لأنهم لم يكادوا يخرجون من حضرة القبطان حتى سمعوا بقنوم «مراد بك» معه عشرة من البكوات وبعض الكشاف والمعاليك . ثم شاع أنهم نزلوا في الرحمانية عند منشأ التربة المحمودية الإسكندرانية ، وسبب ذلك أن «مراد بك» بعدما أرسل الوفد خطر الدفاع بالسيف ، فجمع إليه نوى شوره ، وفاوضهم ، فأقروا على الدفاع وأن يسير «مراد» لذلك ويبقى إبراهيم للمحافظة على القاهرة .

فسار «مراد بك» بمن معه ، ونزلوا الرحمانية - كما قدمنا - فلاقتهم الجنود العثمانية ، وجرت بينهما واقعة لم تطل إلا يسيراً . فاندعرت جنود الممالك من قنابل العثمانيين التي كانت تتدافع بين حوافر الخيل فتشتت شملهم وفاز العثمانيون . ففر مراد بك ومن معه حتى أتوا القاهرة ، فأجتمعوا «بإبراهيم بك» وخرجوا جميعاً إلى الصعيد ، ومكثوا ينتظرون هجمات العثمانيين . فلما رأى «محمد باشا» الوالى خلو القاهرة من الممالك جمع إليه الوجاقات ونزل بهم من القلعة لاستقبال الجنود العثمانية.

وفى شوال سنة ١٢٠٠ ، دخل «حسن باشا» القاهرة بعد أن أخربت جيوشه ما مروا به من المدن والقرى ونهبوها ولولاه لم يبقوا على شيء أصلاً . لكنه كان يمنعهم من ذلك بالقوة ، وقتل كثيرين منهم عبرة للباقيين ، فكفت الأيدي فسكنت الناس . فلما دخل القاهرة ، نزل فى بيت «إبراهيم بك» عند قصر العينى على النيل ، ثم عرض أمتعة البكوات المنهزمين للمزاد العمومى ، ومن جعلتها حريمهم وأولادهم ومماليكهم ، فاسترحم المشايخ أن يخرج الأولاد والنساء الحوامل من معرض البيع لأن ذلك فضلاً عن مخالفته للعواطف الإنسانية فهو مغضب لله (١) .

فانتهرهم القبطان باشا قائلاً : «ساكتب إلى الأستانة بأنكم تعارضون فى بيع أمتعه أعداء جلالة السلطان فاجابه الشيخ السادات قائلاً : «قد أرسلت إلينا لمعاقبة شخصين وليس لهنك شرائعنا والطعن فى عاداتنا فاكتب إلى الأستانة ما شئت» .

فعند ذلك أمر الباشا باستثناء المحظيات الحوامل من البيع . و بعد أن بيعت سائر الأمتعة عكف «حسن باشا» فى إصلاح الإدارة ، فأصلحها على ما يوافق الإرادة الشاهانية .

(١) فى المخطوط مسودة للشيخ أبو الأنوار السادات .

وكان قد استقدم «إسماعيل بك» و «حسن بك الجداوى» من الصعيد ، فأرسلهما فى جيش بقيادة «عابدين باشا» و «درويش باشا» قائدى الحملة العثمانية التى جاءت إلى مصر عن طريق البر - فضلاً عن العمارة المتقدم ذكرها - وسار فى تلك الحملة أيضاً نحو ألف مقاتل من رجال الشام تحت قيادة أمير كبير من أمراء شيوخ أوغلى ، فاجتمعت هذه الحملة ، وسارت نحو الصعيد لحاربة مراد بك ورجاله ، فحصلت هناك واقعة عظيمة شفت عن عدة قتلى من الجانبين ، وانهزم «مراد بك» ورجاله إلى الشلالات ، ورجعت الجنود العثمانية ظافرة إلى القاهرة . ثم جاءت الأوامر الشاهانية بعزل «محمد باشا» وتولية «عابدين باشا» .

وهنا تنتهى مهمة «حسن قبطان باشا» فاستدعى إلى الأستانة بسبب الجرب مع روسيا ، ولكن مصر لم تتج من البكوات، وكانوا لا يزالون فى مصر العليا كما رأيت ، والمسيحيون يشكون من معاملة «حسن باشا» بأنه أخذ متاعهم وباعه على مشهد من الناس فضلاً عن الإهانة التى ساءمهم إياها ، وعلى الخصوص المعلم «إبراهيم الجوهري» أمير احتساب مصر فإنهم قبضوا على امرأته وأجبروها أن تخبرهم بمخايب زوجها من النقود ، فأخبرتهم ، فاستخرجوها ، وأخذوها .

ولما برح «حسن باشا» القاهرة ، أقام عليها «إسماعيل بك»
شيخ البلد ، فعهد هذا إلى صديقه «حسن بك الجداوى» إمارة
الحج واتفقا معاً على اقتسام الإيراد .

فى سنة ١٢٠٢ هـ توفى السلطان «عبد الحميد الأول» .

سلطنة سليم الثالث

من سنة ١٢٠٢ - ١٢١٣ هـ -

أو من ١٧٨٩ - ١٧٩٨ م

هو ابن السلطان مصطفى الثالث ، تولى السلطنة وسنة
٢٨ سنة ، وجه السياسة بظلم والدولة متضعضة ، فبذل جهده
فى الإصلاح ، ولكن اليأس كان قد استولى على الجنود وضعف
عزائهم .

وفى سنة ١٢٠٥ ، طرأ على القاهرة وسائر القطر المصرى
وباء الوطأة لم تقاس قبله مثله ، حتى بلغ عدد الموتى نحو الألف
فى اليوم بالقاهرة وحدها . وتقلب على حكومتهم فى يوم واحد
ثلاثة حكام ، وسبب ذلك أن «إسماعيل بك» أصيب بالوباء ، فأتى
آخر مكانه ، فأخر حتى فنى كل من كان من بيت «إسماعيل بك»
إلا واحداً يدعى «عثمان بك الطبل» ولا يزال هذا الباء مشهوراً

بفتكه ، المعروف بطاعون ^(١) إسماعيل فتولى «عثمان بك الطويل» المذكور مشيخة البلد ، ولم يكن قادراً على إدارة الأعمال التي عهدت إليه فاستدعى «إبراهيم بك» و «مراد بك» فدخلوا القاهرة في ٢١ القعدة من تلك السنة ، ففر «حسن الجداوى» إلى مصر العليا قانطاً .

فاستلم «إبراهيم» و «مراد» أزمّة الأحكام ، وجعلا يعيثان فيها وكانا يتناوبان مشيخة البلد وإمارة الحج سنوياً بعد أن أفنيا كل من كان على غير دعوتهما . فصفا الجولهما ^(٢) .

أما قلباهما فكانا لا يخلوان من الضغائن المتبادلة لما طبع عليه كل منهما من الحب الذاتى . وقد اختلفا فى الطباع والمناقب :

كان «مراد بك» شديد البطش مقداماً لا يهاب الموت ، وكان «إبراهيم بك» أكبر سنّاً ، وأكثر اختبارة ، ريعاً خنم القامة ، حسن الطلعة ، حاد البصر ، وكان يتربص لمراد محاذراً بطشه لئلا يطلبه للنزال ، ولولا ذلك لم يرض معه بالاجتراء من

(١) فى المخطوط صورة نقود السلطان عبد الحميد الأول .

(٢) فى المخطوط صورة للسلطان سليم الثالث .

الدخل على السواء ، وكان لا يعارضه فى ما يأتية من الاستبداد ،
ووضع الضرائب ، وسلب أموال الناس ، لأنه شريكه فى الأرباح
الناتجة عن ذلك . وكان فى إبراهيم رياء يظهر غير ما يضمّر إذا
استصرخ وعد مع العزم على الإخلاف . وكان جباناً ، فإذا أراد
أمراً لا يتظاهر به ، وإنما يسعى إليه بالدهائنس والمكايد .

أما «مراد بك» فلم يكن يعرف المكر وإنما كان يسعى فى
أغراضه بالقوة والحزم . وكان طويل القامة ، عضلى البنية ، شديد
الليأس ، يقطع عنق الثور بضربة من سيفه وعلى وجهه ملامح
الأسود ، فإذا غضب يهابه ويخاف منه كل من يراه ، حتى أحب
أصدقائه . وكان كريم النفس ، لا يبيت على غيظ . حر الضمير لا
ينكر الحق ، ولو كان عليه ، مخلصاً لأصحابه ، مقيماً على قوله ،
وكان طمعه بمقدار سخائه وحبه لذاته بمقدار حرية مبادئه
وصراحته . وكان سريع الغضب لا يراعى فى حال غضب أمراً من
الأمور وربما فتنك بمصلحة نفسه .

والم بالبلاد بعد عود هذين الأميرين إلى «مصر» جوع
هائل ، ويقال إنه جعل من كثرة ما ضبطاه من الحبوب فى مصر
العليا طمعاً بالكسب . ثم القيا النظامات التى وضعها «حسن

باشا قبطان» وأبدلها بما يوافق مطامعهما الشخصية. فكثر
تعديات مماليكهما ، وعلى الخصوص تعديات «أحمد محمد الألفى»
، فثار الاهلون ثورة عامة لم يسمعها معها إلا توقيع تلك
الإجراءات وقتياً ، فخمدت الثورة ، فعادوا إلى ما كانوا عليه فعاد
الناس إلى الاضطراب ، وكسدت سوق التجارة لقلة الامنية ،
وضربا على التجار الأجانب في الإسكندرية ضرائب فاحشة ،
فرفعوا شكواهم إلى قناصلهم . فلم تكن النتيجة إلا زيادة
الاضطهاد .

كل ذلك كان يجرى والسلطان «سليم الثالث» يعلم بذلك
وهو من أرغب السلاطين بالإصلاح ، ولكنه غلب على أمره ، وفي
أيامه وهذه حالة مصر ، حمل عليها بونايرت سنة ١٢١٣ هـ
أو ١٧٩٨ م ، واحتلها ، وهو آخر المراد بسطه من تاريخ العثمانيين
بمصر في هذا الكتاب (١) .

(١) في المخطوط صورة نقود السلطان سليم بن مصطفى .

العلم والأدب
ومشاهير العلما والأدباء بمصر
في الأدوار الثاني والثالث والرابع من
العصر العثماني

من سنة ١١١٥ - ١٢١٣ هـ

إن الاضطرابات السياسية ، واختلال الداخلية في الأنوار
الثلاثة الأخيرة ، وقفت من سبل القارح ، وشغلت الناس عن العلم
والأدب ، ومع ذلك فقد ظهر في هذه الفترة جماعة من الشعراء
والأدباء والفقهاء ونحوهم . هـك أشهرهم :

١ - الشعراء

١ - الحسن البدرى الحجازى الأزهرى :

توفى سنة ١١٣١ هـ ، وكان شاعراً عاماً تعلم في الأزهر ،
ومال إلى الإنزواء للمطالعة والنظم ، وله فيه طريقة حسنة ، وقد
نظم أرجوزة في التصوف نحو ألف وخمسمائة بيت على طريقة
الصارح والباغم ، ضمنهما أمثالاً وحكايات ونكات ، وله ديوان على
حروف المعجم سماه : «تنبيه الأفكار للنافع والضرار» ، منه نسخة

خطية في المكتبة الخديوية وفي شعره صبغة عامية وسهولة
يرضاها العامة ، وفيها نصائح لهم ولسائر الناس ، ومن أمثلة ذلك
قصيدة بائية قال فيها :

أخي فطناً كُنْ ، واحذر الناس جملة
ولاتك مفرور الظنون الكواذب
فكم من فتى يرضيك ظاهراً أمره
وفي باطن يوتاغ روح الثعالب
إذا بك يلقى ظاهراً كان كاهراً
يذيقك نكر النكر من كل جانب
ولا سيما نوع الأقارب إنهم
عقارب في الدنيا وعقر العقارب
إذا كنت في خير تمنوا لك الردى
لإرثك ميتاً أو لنهبة ناهب
وإن كنت ذا فقر فانت لديهم
أخس خسيس من أخس الأكائب
فلاتك للطالب ليلارث تاركاً
طلاباً سوى خيبات طلبة طالب

ونحو ذلك ما تلقى معاينة للجمهور .

٢ - «عبد الله بن محمد بن عامر بن شرف الدين الشبراوى الأزهرى» :

أحد أساتذة الأزهر ، توفى سنة ١١٣٢ ، له :

١ - «ديوان منائح الألفاظ فى مدائح الأشراف» ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية ، وفى مكاتب برلين وخطأً وباريس وقد طبع فى بولاق ومصر مراراً .

٢ - «كتاب الإستقفاة الشبراوية» ، منها نسخة فى المكتبة الخديوية .

٣ - «عروس الآداب وفرجة الباب» ، منه نسخة فى مكتبة ليدن .

٤ - «عنوان البيان ويستأن الأذهان» طبع فى القاهرة مراراً .

٥ - «نزهة الأبصار فى رقائق الأشعار» فى مكتبة باريس .

٦ - «حمل زجل» ، طبع فى القاهرة .

٧ - «أسنى المطالب لدراية الطالب» ، فى مكتبة برلين .

٨ - «نظم أسماء بحور الشعر» فى المكتبة الخديوية .

٩ - «الإلتحاف بحب الأشراف» فى مكتبة باريس .

١٠ - «شرح الصدر بغرة البدر» ، فى المكتبة الخديوية وطبع

فى القاهرة سنة ١٢٠٣ هـ .

٢ - «عبد الله الألكاوى المصرى» :

نسبة إلى إدكو قرب رشيد وقد اشتهر «بالمؤذن» ، توفى سنة ١١٨٤ هـ ، تقرب من تقيب الأشراف فى عصره ، فأكرمه وأدناه ، ولما مات النقيب تزوج وتغيرت حاله ، فلأزم الشيخ الشبراوى ، ومدحه ، وكان يحترمه ومن مؤلفاته :

١ - «بضاعة الأريب فى شعر الغريب» وهو مجموعة من شعره ذيلها بذيل سمكى وسيمة القصر ، منها نسخة خطية فى مكتبة باريس .

٢ - «الدر المختظم فى الشعر الملتزم» .

٣ - «الفوائج الجنائية فى المدائح الرضوانية» .

٤ - «الدر الثمين فى محاسن التضمين فى المكتبة الخديوية» .

٥ - «هداية المتوهمين فى كذب المنجمين» طعن فيه على أهل النجامة ، ومنه نسخة خطية فى مكتبة غوطا .

٦ - «المقامة القزية فى المجون» . وكان حسن الخط ، نسخ عدة كتب وله مفارقات لطيفة مع شعراء العصر الواردين على مصر ومن ملبح شعره قوله يدعو إلى نبذ التقيد بالقديم :

كن للمعاصر خير ناصر كم للأوائل من مفاخر

لا تحقرن جديدهم كم فى جديدهم جواهر
ودع التعصب للوا ثل يافتى أو للآخر
من كان منهم مبدعاً فاعقد عليه من الخناجر

٢ - علماء الفقه

واشتهر من علماء الفقه فى هذا العصر :

١ - «إبراهيم بن مصطفى الحلبى المدايسى» توفى سنة ١١٩٠ م . وقد تعلم فى مصر ودمشق وأخذ التصوف عن «عبد الغنى النابلسى» الشهير ، ثم عاد إلى القاهرة ، وتعين معيداً لعلى الضرير . وسافر إلى «الأستانة» وتعرف هناك إلى «محمد باشا» الوزير المعروف «بالراغب» فتعرف به وقرأ عليه . واجتمع بشيخ الإسلام هناك «عبد الله» الشهير «بالإيرانى» وكان إذ ذاك قاضى العسكر ، فصار عنده مفتشاً ومميزاً ، وقرأ عليه علماء الروم ، ومازال يرتقى حتى توفى هناك ، وأكثر علماء الأزهر فى زمانه من تلامذته . ومن آثاره الباقية كتاب «الحلة الضافية فى علمى العروض والقافية» منها نسخة فى المكتبة الخديوية . و«تحفة الأخبار على الدر المختار» فيها .

٢ - «السيد محمد تقى الحسينى الزبيدى» الفقيه (١) اللغوى النحوى الأصولى الناظم الناثر صاحب تاج العروس فى شرح القاموس ، تولى سنة ١٢٠٥ . ولد فى زبيد ، ونشأ هناك ، ثم رحل فى طلب العلم وجاء مصر سنة ١١٦٧ ، وحضر دروس أشياخ زمانه ، وما لبث أن ظهر فضله عند الخاص والعام وارتقت حاله ، فلبس الملابس الفاخرة ، وركب الخيول المسومة ، واشتغل بعلم أهلها أسلافه كعلم الأنساب والأسانيد وتخاريج الأحاديث . وألف من ذلك كتباً ومنظومات ، وكان مظهره مخالفاً فى زيّه وحاله لعلماء عصره . ويعرف اللغة التركية والفارسية وبعض لغة الكرج ، وكان الوجهاء يتسابقون إلى دعوته والإيلاء له وإلى مجالسته ومحادثته . وزادت منزلته على الخصوص لما فرغ من كتابه «تاج العروس» وهو أشهر مؤلفاته . وفى شهرته ما يغنى عن وصفه ، فإنه يدخل فى عشرة مجلدات طبع فى «القاهرة» سنة ١٣٠٦ . وفى صدره مقدمة نفيسة فى اللغة ومراتب اللغويين ، وأول من ألف فى اللغة وترجمة الفيروز ابادى وغير ذلك . وله كتاب «نشوة الارتياح فى بيان حقيقة الميسر والقдах» منه نسخة خطية فى «برلين» وله كتب أخرى .

(١) الصحيح : السيد مرتضى الحسينى الزبيدى ، صاحب كتاب تاج العروس .

٣ - «موسى بن أحمد البيهقي العدوي المالكي» كان شيخ رواق الصعايدة بالأزهر ، توفى سنة ١٢١٨ . وله من المؤلفات المنح المتكفلة بحل الفاظ القصيدة العربية الموسومة بمورد الطعان فى صناعات البيان وهى مشروحة ومنها نسخة خطية فى مكتبة «برلين» وكتاب «فائدة الورد فى الكلام على أما بعد» منه نسخة فى المكتبة الخديوية ، وفيها أيضا له «البشارة لقارىء الفاتحة» ومنظومة فى الصرف .

٣ - المؤرخون

١ - «إبراهيم بن أحمد أفندى الخطاط شامزاده» كتب نحو سنة ١١٢٣ ، له كتاب «مبدأ العجائب بما جاء فى مصر من المصائب» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٢ - «الأمير كتخده الدمرداش عزيان» (١) ، توفى سنة ١١٦٩ وله كتاب «الذرة المصانة فى أخبار الكتانة» مكتوبة بلغة العامة ومنه نسخة خطية فى مكتبة غوطا ومنشن والمتحف البريطانى .

(١) الاسم الصحيح هو الأمير أحمد الدمرداش كتخدا عزيان وقد نشر هذا المخطوط بمعرفة : د. عبد الرحيم عبد الرحمن : الذرة المصانة فى أخبار الكتانة ، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٩ وأيضا د. عبد الوهاب بكر - دانيال كريستيليرس صفحات من تاريخ مصر العثمانية ، دار الزهراء ١٩٩٢ .

٢ - «عبد الرحمن بن الحسن بن عمر أبي اللطائف الأصمدي المالكي المغربي» «سبط القطب الحديدي» . تعلم في «القاهرة» وتعين استاذًا في الأزهر وفي السنانية ببولاق ، وتوفي سنة ١١٩٨ . وله كتاب «مشارك الأنوار في أهل البيت الأخيار» منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية .

٤ - الفقهاء ونحوهم

الفقه المالكي

- ١ - «ناصر الدين النشرتي المالكي» من أساتذة الأزهر :
توفي سنة ١١٢٠ هـ ، له كتاب «الأنوار الواضحة في السلام والمصافحة» في المكتبة الخديوية .
- ٢ - «شمس الدين الزرقاني المالكي» :
توفي سنة ١١٢٢ هـ ، وله كتاب «وصول الأمانى بأصول التهانى» ، منها نسخة خطية في المكتبة الخديوية ، وله شرح الموطأ، وشرح المواهب اللدنية للقسطلاني .
- ٣ - أبو الحسن الصاعدي العدوي المالكي :

من أساتذة الفقه المالكي ، توفي سنة ١١٨٩ هـ ، له رسالة فيما

تفعله فرقة «المطوعة من المتسوفة من البدع في المكتبة الخديوية» ،
وله عدة حواشي على كتب فقهية .

الفقه الشافعي

١ - «شمس الدين البديري الدمياطي» :

درس في دمياط وفي الأزهر ومكة ، وتوفي سنة ١١٤٠ وله
«إرشاد العمال» إلى ما ينبغى في يوم عاشوراء وغيره من
الأعمال، منه نسخة في المكتبة الخديوية . وكذلك كتاب بلغة المراد
في التحذير من الافتتان بالأموال والأولاد . وله كتاب تحرير
الإفهام في كيفية توريث نوى الأرحام منه نسخة في مكتبة
بطرسبورج .

٢ - «أحمد بن عمر الديري الشافعي الأزهرى» :

توفي سنة ١١٥١ هـ . له كتاب «غاية المقصود عن قيود
العقود» منه نسخة في المكتبة الخديوية ، وفي مكتبة برلين ، وطبع
في بولاق سنة ١٢٩٧ . وكتاب «غاية المرام في ما يتعلق بانكماش
الأنام» ، في المكتبة الخديوية ، وكذلك كتاب فتح الملك الجواد
لتسهيل قسمة التركات على بعض العباد ، وكتاب المجرات طبع في
القاهرة .

٣ - «الحسين بن أحمد المحلى» :

توفى سنة ١١٧٠هـ ، له كشف اللثام عن أسئلة الأنام منه
نسخة فى المكتبة الخديوية .

٤ - «نجم الدين محمد بن سليم الشافعى المصرى الحنفى
الحسينى» فى حقه قرب بلبيس درس فى القاهرة ، ودخل طريقة
الخلوتية الرانجة فى تلك الأيام وتوفى سنة ١١٨١هـ ، وله : «الثمره
البيهية فى أسماء الصحابه البدرية» وذكر أسماء أهل بدر . وعدة
رسائل فى أمثال ذلك ، منه نسخة فى المكتبة الخديوية .

وهناك طائفة كبيرة من الفقهاء الشافعية نبغوا فى ذلك العصر
بمصر منهم :

- «عيسى بن أحمد الدرادى» ، توفى سنة ١١٨٢ .

- «أحمد الشجاعى» سنة ١١٩٠هـ ، وله مؤلفات كثيرة أكثرها
موجودة فى المكتبة الخديوية .

- «حسن الكفراوى» من أساتذة الأزهر ، توفى سنة ١٢٠٢هـ ،
فضلاً عن فقهاء الحنابلة والشيعة ومن هؤلاء .

- «أبو السعود أحمد بن عمر بن السقاطى» ، توفى سنة
١١٥٩هـ فى القاهرة ، وله كتب فى القراءات ، منه نسخة خطية
فى المكتبة الخديوية .

- و«الحسن بن على الأزهرى المنطوى المداينى» من أساتذة
الأزهر ، توفى سنة ١١٧٠. وله كتاب «اتحاف فضلاء الأمة
المحمدية ببيان جمع القراءات السبع من طريق التيسير» فى المكتبة
الخدوية . وكتاب فى مولد النبى ، فيها أيضا .

٤ - المتصوفة

وهناك طائفة من المتصوفة نبقت فى مصر بذاك العصر
منهم :

- «على بن محمد المصرى» المتوفى سنة ١١٢٧هـ، وله تعليقات
وشروح .

- و «على بن حجازى البيومى الدمرداشى» توفى سنة
١١٨٢هـ بالقاهرة ، وله كتاب فى الطريقة الدمرداشية منها نسخة
فى برلين وكتاب «الأسرار الخفية» منه نسخة فى المكتبة الخديوية .
ورسائل عديدة ، بعضها موجود فى المكتبة المذكورة .

ومن مشاهير الصوفية وكبارهم : الشيخ «عبد الرحمن
العيدرورى» أصله من بلاد اليمن ، ولد فى ثريم ، وتقل فى بلاد
اليمن وغيرها فى تاريخ طويل حتى استقر له المقام فى القاهرة ،
واشتهر فيها ، وقصده الطلاب حتى توفى سنة ١١٩٢هـ ، وهو من

أساتذة الشيخ «عبد الرحمن الجبرتي» صاحب التاريخ المشهور ،
وقد ترجمه مطولاً ، وله مؤلفات تزيد على بضعة عشر منها .

١ - «النفحة العيدروسية في الطريقة النقشبندية» منها نسخة
في برلين .

٢ - «النفحة المدنية في الأذكار القلبية والروحية والسرية»
منها نسخة في المكتبة الخديوية .

٣ - «لطائف الجود في مسالك وحدة الوجود» ، منها نسخة
في برلين .

٤ - «العرف الوردى في دلائل المهدي» ، فيها .

٥ - «اتحاف الخليل بالمشرب الجليل الجميل» ، في المكتبة
الخديوية . وله عدة رسائل وقصائد ، منها في هذه المكتبة وغيرها ،

- و «محمد بن حسن بن محمد السمنودي الأزهرى جمال
الدين» تتقف في الأزهر ، ودخل الطريقة الخلوتية . ثم تولى قراءة
القرآن بالقاهرة ، وتوفى سنة ١١٩٩هـ . وله «تحفة السالكين
ودلالات السائرين منهج المرقبين» ، طبعت بمصر سنة ١٢٨٧هـ .

- وأبو البركات أحمد بن محمد الدردير المالكي العدوى
الأزهرى الخلوتى :

تعلم في الأزهر . ثم صار ناظر وقف الصعايدة وشيخ
الوراق وتوفي سنة ١٢٠١ هـ ، وله عدة كتب منها .

- «الخريدة البهية في القصائد التوحيدية» ، طبع في
الإسكندرية سنة ١١٨١ هـ ، وتحفة الأخوان في بيان تاريخ أهل
العرفان» ، طبع بالقاهرة سنة ١٢٨١ هـ . وكتب أخرى موجودة خطأ
في المكتبة الخديوية وغيرها .

ومعهم «سليمان بن عمر بن منصور العجلى الأزهرى
الجمال» المتوفى سنة ١٢٠٢ هـ .

ونبغ غير واحد في علم النجوم أو النجامة منهم :

- «حسن بن إبراهيم الزيلعى الجبرتى» من أسرة الجبرتى
المؤرخ ، كان استاذاً في القاهرة ، تولى سنة ١١٨٨ هـ ، وله عدة
مؤلفات ورسائل في هذه الفنون يمكن الإطلاع عليها من المكتبة
الخديوية .

ونبغ من الأطباء :

المؤلفين «أحمد بن عبد المؤمن الدمنهورى» المتوفى سنة
١١٩٢ هـ ، كان أستاذا في الأزهر . وله مؤلفات عديدة في أكثر
الفنون تجد أكثرها في المكتبة الخديوية .

ولو أردنا تعداد المشاهير في ذلك العصر لضاق المقام
وإنما أردنا إيراد الأمثلة لحالة تلك الأيام الأدبية والعلمية وقد رأيت
أنها في حالة الانحطاط، لأن ما تقدم ذكره من المؤلفات العديدة قل
فيه المستنبط أو النافى . ولعل هذا العصر أحط عصور التمدن
الإسلامي .

ويلاحظ في لغة ذلك العصر : أن الإنشاء انحط إلى أقصى
درجاته حتى صار أقرب إلى لغة العامة وانحطاط اللغة تابع
لانحطاط نفوس أهلها ، ومن أشهر أمثلة إنشاء ذلك العصر تاريخ
« الجبرتي » وتاريخ « ابن إياس » .

أما كتب الفقه ، فيرجع لجماليتها إلى المصطلحات الفقهية
وهي قلما تتغير مع الوقت . وأكثر ما كتب في تلك الفترة : إنما هو
من قبيل التقليد أو التلخيص أو الشرح أو التعليق .

وقد رأيت أن أكثر المؤلفات في علوم الدين الإسلامي ، لأن
العلم انحصر يومئذ في الأزهر تقريباً . فإن أكثر طلابه من
الفقهاء ، إلا من كان فيه ميل خصوصى لعلوم أخرى ، مع أن
أوريا كانت قد أفاقت من غفلتها وأخذت في تأسيس العلوم
الحديثة . ولم يبلغ خبر ذلك إلى مصر إلا على يد الحملة الفرنسية

سنة ١٧٩٨ ، فإنها أتت معها بحملة علمية ، فضلاً عن الصلة العسكرية ، فبهر العقلاء من أحوالهم وإن لم يأخذوا عنهم شيئاً . وإنما ترى ذلك الفضل للأسرة المحمدية العلوية وأول من أخذ من هذه النهضة ومحمد على باشا ، مؤسس هذه الأسرة العلوية .

الحالة الاجتماعية والاقتصادية

أما الهيئة الاجتماعية في ذلك العصر ، فإنها تختلف عما نحن فيه الآن اختلافاً كبيراً ، فإنهم لم يكونوا يدركون ما نتركه نحن من لفظ الوطن والاستقلال والدستور والحرية الشخصية ، وحقوق الفرد ، وحقوق الجماعة ، وإنما كانت الأمة مؤلفة من الحكام أصحاب الأمر والنهي والسطوة والنفوذ ، والشعب وما عليه إلا الطاعة وتحمل المصائب بالصبر . فإن أحدهم كان إذا نهض من فراشه خرج من بيته وهو لا يدري ما يلقاه من أنواع المظالم أو ضروب الإهانة إذا كان في يده مال لا يأمن من أن يبقى ذلك المال له إلى المساء ، وإذا كان له فرس أو بغل أو دابة كانت عرضة للسخرة بأمر الحاكم أو بعض رجاله .

وناهيك بالضرائب المتوالية التي لا يُسأل ضاربها ولا ينجو أحد من دفعها مرة أو غير راضياً أو غاضباً . حتى نساقهم وأولادهم إنهم لم يكونوا آمنين عليهم من السطو والنهب .

بالأمة التي هذا حالها من الضنك والذل والظلم لا غرو إذا ظلمت فيها المرأة وصارت كالأمة لأن ظلمها تابع لظلم الحكام؛ فإن الرجل يقضى نهاره مظلوماً لا يستطيع رداً ، ولا دفاعاً أو انتقاماً ، فإذا أتى بيته تشبه بحكامه لأنه في عائلته كالأمير في بلده ، يأمر وينهى فيعامل أهله كما عومل . وبذلك كانت المرأة تُظلم وتنحط في عهد الحكومة الاستبدادية الظالمة ^(١) ولا غرو إذا انصرف أولئك المظلومون من الرجال إلى تسلية أنفسهم ، وتصريف تغيظهم بالمشروبات الروحية أو تدخينها المخدرات كالخشيش ونحوه . ولذلك كثر تناول هذا العقار في تلك الأثناء يخدر الناس أعصابهم وينسوا حالهم ^(٢) .

(١) ما ذكره المؤلف من ظلم المرأة وانحطاط وضعها في العصر العثماني ليس هناك ما يؤكد به العكس هو الصحيح ، فوثائق المحاكم الشرعية تفيض بالوثائق الخاصة بقضايا الأسرة والمرأة . فعلى سبيل المثال فإن وثائق محكمة الباب العالي الخاص بقضايا الزواج أو الطلاق شواهد صدق على حق مكانة المرأة في مصر العثمانية . انظر د . سوسن سليمان يحيى قضايا المرأة في مصر العثمانية (مجلة كلية الآداب عدد خاص ٥٧) ص ١٩٩ - ٢٢٥ .

(٢) تناول المخدرات لم يكن بالظاهرة التي يصورها المؤلف وكأنها عادة يومية عند الناس فما ذكرته المصادر المعاصرة ، هو انتشار عادة التدخين لكنها كانت للقادرين فقط . انظر الجبرتي : ح ١ . ص ٤١ مطبعة الأنوار المحمدية بورت .

الزراعة

وطبيعى أن يرافق ذلك الانحطاط السياسى والعلمى انحطاط اجتماعى واقتصادى ، فتناقص عدد السكان فى أواخر ذلك العصر حتى أصبح أقل من ٢,٠٠٠,٠٠٠ نفس فى القطر المصرى أعلاه وأسفله ، وتناقصت البقاع المزروعة فى وادى النيل حتى نقصت عن مليون فدان وبعض المليون . والأرض يومئذ ملك الحكومة وليس للناس إلا أن يتمتعوا بريعتها والحكومة حصّة من ذلك الربيع فى مقابل حمايتها أو إصلاح شئونها وهو الخراج . على أن فساد الأحكام فى عهد المماليك شغل الناس عن الزراعة فقلت الجباية فتعسر حلها ، والحكام فى ذلك العهد إنما يلتمسون السلطة طمعاً بالمال ، فعمدوا إلى طريقة «الإلتزام» وهو تضمين الخراج لإناس يتولون جمعه عن الحكومة ، ويشاركونها فى نفوذها ، فلا يزيدون الأمالى إلا ضغطاً وعسفاً .

وذلك أن الحكومة كانت تعرض خراج البلاد بالمزايدة لمن يضمّنه من أهل النفوذ ، فيضمن أحدهم بلداً أو بضعة بلاد فإذا وقع عليه المزااد أعطاه كبير المماليك «شيخ البلد» عهداً بذلك يسمونه تقسيط ويصحبونه بأمر يسمونه «فايك» وهو عبارة عن

خطاب من الحكومة إلى أهالى البلد الواقع فيها إلتزام ذلك الملتزم،
توصيهم فيه أن يطيعوا الملتزم ويؤدوا له الخراج ، والملتزم يدفع
للخزينة فى مقابل ذلك مال سنة معجلاً ، ويقوم مقام الحكومة فى
السيادة والإمارة فى البلاد الداخلية فى التزامه ، وله عدا ذلك بقعة
من الأرض يستغلها بنفسه ، لا يدفع عنها شيئاً وتسمى «أوسيه»
«جمعها أراسى» وعلى الأهالى أن يحرثوها له ويؤرموها ويحملوا
إليه غلاتها بلا أجرة فضلاً عن منافع أخرى .

وكان الإلتزام فى بادئ الرأى لمدة محدودة ، ثم جعلوه
لمدى العمر فلا ترجع الأرض للحكومة إلا بعد وفاة الملتزم ، فكان
الانتفاع بغلة الأرض مقسوماً بين الحكومة والملتزمين . والفلاح
عبدٌ رقيق يعمل بقوته ويشقى بعمله . فهل يلام إذا قعد به القنوط من
العمل أو حمله الخوف على الفرار ؟ (١) .

التجارة

أما التجارة فكانت فى زمن الممالك ضعيفة جداً ، لأنها لا
تنمو إلا فى ظل الأمن والعدل . فكانت قاصرة على بعض ما يحمل
من محصولات هذه البلاد إلى «أوربا» وأهمها الحبوب والسكر
(١) هذه نظرة قديمة ، تحتاج لتدعيمها أو نفيها دراسات تاريخية واجتماعية
اقتصادية علمية فى تاريخ ، الدراسات فيه قليلة بل نادر حتى الآن .

والرز ، وما يمر بها من واردات السودان كالصمغ والعاج والريش ونحو ذلك . وبعض ما يحمل إليها من المصنوعات الإفرنجية من «إيطاليا» و«فرنسا» و«المانيا» وغيرها .

ذكر «فولنى» الرحالة الفرنساوى فى رحلته إلى «مصر»
بأواخر القرن الثامن عشر أن تجارة «مصر» كان معظمها فى أيدي
السوريين المسيحيين ثم أهل الهندية والإنكليز والفرنساويين وكانت
الجمارك يومئذ «بالإسكندرية» و«رشيد» و«دمياط» و«السويس»
و«القصير» وفى «بولاق» و«مصر القديمة» . وكانت الحكومة
تضمن دخل هذه الجمارك كما كانت تضمن خراج الأرض .
والغالب أن يضمناها بعض اليهود . فلما أفضت «مصر» إلى «على
بك الكبير» المتقدم ذكره تحولت ضمانة الجمارك إلى أيدي
السوريين ، ولم يكن منهم يومئذ فى مصر إلا عائلات قليلة من أهل
دمشق وكانوا يتعاطون التجارة فيها .

على أن الجمارك كثيراً ما كان يتولى شئونها أمراء
المماليك أنفسهم وخصوصاً فى أواخر القرن الثامن عشر ، إن
«إبراهيم بك» و«مراد بك» اقتسما الانتفاع بها ، فاختص «إبراهيم»
بجمرك السويس وعهد به إلى عمال يديرونها بالنيابة عنه ، واستولى

«مراد» على سائر الجمارك فضمنتها بعض أهل الوجاهة . وكانت إيرادات الجمارك نحو مليون ريال أبو طاقية أو نحو ١٢٠,٠٠٠ جنيه أكثر تجمع من جمرك السويس .

النقود المصرية

وقد تقدم الكلام عن حل النقود المصرية أواسط العصر العثماني وهي الأنصاف والبندقي والزد محبوب في آخر القرن الثاني عشر للهجرة كان الدينار يساوي ١١٠ أنصاف ، والبندقي ٢٢٥ نصفاً ، والبنتو ٤٠٠ نصف . فكانت الأنصاف تقل قيمتها بتوالي الأعوام مع بقاء قيمة الذهب على حالها تقريباً ، فالدينار كان يساوي سنة ١٩٣ هـ . ١١ أنصافاً مثلاً ، فصار يبدل بعد عشر سنين بنحو ١٥٠ نصفاً ، وهكذا ، وكانت أسعار الأشياء التي تفد بالانصاف ترتفع كل سنة عما قبلها إرتفاعاً تدريجياً . ولم يكن إرتفاعها من توفر الثروة كما حدث لهذا العهد ، وإنما كان سببه تلاعب رجال الحكومة بالنقود الفضية وغشها ، فإذا رخصت قلت النقود وظهرت المبيعات غالية ، وهاك على ذلك يائمان أهم المأكولات في أول القرن الثالث عشر للهجرة إلى سنة ١٢١٩ باعتبار الأنصاف من كل رطل :

| سنة | الذهب | الفضة | الصبايون | المسلى | القمح بالأردب |
|------|-------|----------------|----------|--------|---------------|
| ١٢٠٤ | ٣٦ | $٧\frac{1}{2}$ | ١٢ | ١٨ | ٢٠٠ |
| ١٢٠٩ | ٣٨ | ٨ | ١٨ | ٢٠ | ٤٠٠ |
| ١٢١٦ | ٥٠ | $٨\frac{1}{2}$ | ١٨ | ٢٥ | ٨٠٠ |
| ١٢١٩ | ٧٠ | ٠٠ | ٢٤ | ٣٦ | ١٦٠٠ |

فيبتادر إلى الذهن لأول وهلة أن الغلاء سائر على سنة طبيعية بالتدريج . والواقع أن الأشياء لم ترتفع أسعارها إلا بالنظر إلى الفضة . أما بالنظر إلى الذهب فظلت باقية على حالها تقريباً وكثيراً ما كان أولو الأمر والأغنياء يرجون الأموال الكثيرة في تبديل النقود .

فلما استتب الأمر «لمحمد على» (١) شاع استعمال القرش وهو المائى الأصل ، وكان سنة ١٢٣٠ هـ يساوى ٤٠ نصفاً ثم أصاب القروش بقوى الأعوام ما أصاب الأناصاف على الكيفية المبينة في الجدول الآتى . وهى أسعار النقود الذهبية المعروفة يومئذ بالقروش المصرية من سنة ١٢٥٠ إلى ١٢٨٦

(١) محمد على باشا : مؤسس الأسرة العلوية بمصر .

| سنة | الجنيه الإفرنجى | الجنيه المصرى | البيزو المجرى | الجنيه المجرى | البندقى |
|------|--------------------|------------------|------------------|------------------|---------|
| ١٢٥٠ | ٥٣ | ٠٠ | ٠٠ | ٤٤ | ٤٥ |
| ١٢٥٦ | ١٠٠ | ١٠٣ | ٠٠ | ٤٧ | ٤٩ |
| ١٢٦١ | ١٠٣ | ١٠٥ | ٧٧ | ٤٧ | ٥٠ |
| ١٢٧٠ | ١١٤ | ١١٧ | ٩٠ | ٥٤ | ٥٦ |
| ١٢٧٧ | ١٤٧ | ١٥٠ | ١١٦ | ٧٦ | ٧٢ |
| ١٢٨٥ | ١٩٢ | ١٩٧ | ١٥٢ | ٩١ | ١٧٢ |
| ١٢٨٦ | ١٩٩ | ٢٠٣ | ١٥٨ | ٩٥ | ١٧٩ |

فترى فى ذلك أن القرش نزل سعره إلى النصف . وباعتبار
الجنيه الإفرنجى إلى الربع فى ٢٥ سنة . وكانت الحكومة المصرية
قد أخذت فى تنظيم شئونها التجارية على عهد «إسماعيل باشا»
الخدوى غير أن اختلاف أسعار النقود على هذه الصورة لا يرجى
منه نجاح ، فأصدرت سنة ١٢٨٦ هـ تعريفة للنقود جعلت المعاملة
فيها على المناصفة فالجنيه الإفرنجى كانت قيمته ١٩٩ قرشاً
فجعلتها $\frac{١}{٣}$ ٩٩ والمصرى ٢٠٢ قرش جعلت قيمته $\frac{١}{٣}$ ١٠١
قرش ، وقس على ذلك . ثم تنوعت الأسعار قليلاً حتى وقفت على
قيمتها المشهورة الآن . وهذا هو أصل المعاملة التعريفية والصاغ
فى مصر .

التعليم بمصر في ذلك العصر

ونختم الكلام بفذلكة في حال التعليم في ذلك العصر ، فإنه كان يختلف عن تعليم هذه الأيام ، ومعلوم أن التعليم في إبان التمدن الإسلامى كان محصوراً بالمساجد كما كانت مدارس النصارى محصورة في الأديرة والكنائس ، وكان المسلمون يسمون التلاميذ المجتمعين حول أستاذ يثقفون منه العلم «حلقه» وتفرعت العلوم بتوالى العلوم ، واتسعت دوائرها حتى أصبح العلم الواحد عدة حلقات والغالب أن تنسب الحلقة إلى أستاذها ، فيقولون مثلاً «حلقه» «أبى إسحاق الشيرازى» في جامع «المنصور» أو نحو ذلك ، وكانوا يجعلون في كل جامع خزانة كتب للمطالعة والإستئساخ .

على أن التعليم لم يكن خاصاً بالمساجد ، فكثيراً ما كانوا ينشئون حلقات التدريس في المارستانات أو الربط أو المنازل أو غيرها ، وكان الأغنياء إذا أرادوا تعليم أولادهم أحضروا المعلمين إلى منازلهم .

وكانت مصر في القرن الأول للهجرة ولاية من ولايات المملكة الإسلامية تابعة للمدينة أو دمشق أو بغداد ، لمكان التعليم فيها ثانوياً ، وبخل القرن الرابع للهجرة وليس في عاصمتها

إلا جامعان ، جامع عمرو وجامع «ابن طولون» تُلقي فيها العلوم الإسلامية على مذهب أهل السنة لأنها كانت تابعة للدولة العباسية. فلما تغلب الفاطميون على مصر في أواسط القرن الرابع ، وانتقلوا إليها وبنوا مدينة القاهرة ، وأنشأوا فيها مسجداً يعلمون فيه مذهبهم « الشيعة » وظل الأزهر مدرسة شيعية طوال خلافة الفاطميين نحو ٢٠٠ سنة حتى غلبهم «صلاح الدين الأيوبي» سنة ٥٦٧ هـ ، وكان سُنِّي المذهب ، وليس له يدٌ من متابعة خليفة يثبته في منصبه فبايع الخليفة العباسي في بغداد ، وخطب له في الأزهر . وكان «صلاح الدين» على مذهب الإمام الشافعي فلم يضطر لتبديل كثير في طرق التعليم ، وقبل الناس سلطته على أمون سبيل ولكنه لم ير مندوحة عن مراعاة مذهب الخلفاء العباسيين وهو مذهب «أبي حنيفة» ، ورأى بحكمته وسداد رأيه أن يكتسب ولاء سائر المسلمين ، فأجاز التعليم فيه على المذاهب الأربعة . وكل مذهب يحضره أهله فال ذلك إلى اتساع شهرة هذه المدرسة ، وتقاطر إليها الطلاب من أربعة أقطار المسكونة ، ولم يبق التعليم قاصراً فيها على الفقه وعلوم الدين واللغة ، ولكنه تناول شيئاً من الرياضيات والنجوم وبعض علوم الطبيعة .

وما زال ذلك شأنها في أيام الأيوبيين ومماليكهم حتى جاء السلطان «سليم العثماني» ، وفتح مصر ، ثم استبد الأمراء المماليك بالحكومة ، فاشتغل الناس عن العلم ، وكان العنصر العربي قد ضعف شأنه في سائر المملكة الإسلامية إلا في مصر ، لأن مدرسة الأزهر فيها ، وكانت أكبر وسيلة لاستبقاء اللغة العربية حية بتعليم العلوم الدينية واللسانية لكنها اقتصرت يومئذ على هذه العلوم ، وأهملت سواها من الطبيعيات والرياضيات .

وما زال الأزهر أهم مصادر التعليم في القطر المصري إلى النهضة الحديثة بعد إنشاء المدارس على النسق الجديد في أيام «محمد علي» لتعليم العلوم الحديثة ، كالطبيعيات والطب والهندسة وغيرها . أما قبل هذه النهضة ، فكانت هذه العلوم ولاسيما الطب يدرس في المارستانات أهمها في دولة الأمراء المماليك «المارستان المنصوري» في شارع النحاسين ، ولا تزال آثاره باقية هناك إلى الآن .

تم الكتاب

فهرس الفصول

لمصر العثمانية

مقدمات تهيدية

التاريخ الإسلامى بالنظر إلى سائر التواريخ

التاريخ العام ٢٣

ما هو معنى لفظ تاريخ ٢٥

أقسام التاريخ العام ٢٧

أقسام تاريخ الإسلام ٣٠

مزايا التاريخ الإسلامى ٣٢

تعدين الأتراك ٣٣

تعدين المغول ٣٤

تعدين البربر ٣٥

تعدين الزنوج ٣٦

تاريخ مصر بالنظر إلى سواه وأقسامه ٤٠

موضوع هذا الكتاب ٤٢

ما كانت عليه مصر عند الفتح العثمانى ٤٣

- ٤٣ أصل السلاطين المماليك
- ٤٦ دولة المماليك الأولى أو الأتراك أو البحرية
- ٤٨ الملك الظاهر بيبرس
- ٥٠ بقية دولة المماليك الأولى
- ٥١ دولة المماليك الثانية أو الشراكسة
- ٥٢ أول علائق الدولة العثمانية بمصر
- ٥٧ حروب أخرى مع العثمانيين «قنسو الغورى»
- ٦٠ الدولة العثمانية أصلها ومنشأها
- ٦٦ الإنكشارية أصلهم وتاريخهم وسائر أحوالهم
- ٧١ السلطان سليم الفاتح
- ٧٨ كيف كانت مصر لما جاءها السلطان سليم فاتحاً
- ٨٣ سلطنة الأشرف طومان باي آخر سلاطين المماليك
- تاريخ مصر العثمانية
- ٨٦ فتح العثمانيين مصر (المعركة القاصلة)
- ٩٥ الدور الأول من الفتح العثماني بمصر
- ٩٦ سلطنة السلطان سليم الفاتح

| | |
|-----|--------------------------------|
| ٩٧ | الخلافة والسلطنة في الإسلام |
| ١٠٥ | الخلافة في غير قریش |
| ١٠٩ | نظام الحكومة المصرية |
| ١١٢ | سلطنة سليمان القانوني |
| ١١٤ | نظام الحكومة المصرية أيضا |
| ١١٨ | حاصلات البلاد |
| ١١٩ | ولاة مصر في زمن السلطان سليمان |
| ١٢٤ | سلطنة سليم بن سليمان |
| ١٢٧ | سلطنة مراد بن سليم |
| ١٢٧ | قتل الأخوة في الدولة العثمانية |
| ١٣٠ | أحوال مصر في أيامه |
| ١٣٣ | سلطنة محمد مراد |
| ١٣٤ | أعماله في مصر |
| ١٣٧ | سلطنة أحمد بن محمد |
| ١٤٥ | سلطنة مصطفى بن محمد |
| ١٤٩ | سلطنة مراد بن أحمد |

- ١٥٢ الوفاء وبيرام باشا
- ١٥٣ محمد باشا وموسى باشا
- ١٥٧ خليل باشا
- ١٥٩ أصل النقود المصرية
- ١٦١ مظالم وتعديات
- ١٦٣ سلطنة إبراهيم بن أحمد
- ١٦٦ الوفاء
- ١٦٧ مقصود باشا
- ١٧٠ أيوب باشا
- ١٧٢ رضوان بك وعلى بك
- ١٧٤ سلطنة محمد بن إبراهيم
- ١٧٧ سلطنة ثلاثة سلاطين

العلم والأدب

- ١٧٨ مشاهير العلماء في النور الأول العثماني
- ١٨٢ الشعراء والأدباء
- ١٨٣ المؤرخون

| | |
|-----|----------------------|
| ١٨٨ | اللقويون |
| ١٩٠ | المحدثون |
| ١٩٢ | الفقهاء |
| ١٩٢ | علماء المذهب الحنفي |
| ١٩٥ | علماء المذهب المالكي |
| ١٩٦ | علماء المذهب الشافعي |
| ١٩٩ | المتصوفة |
| ٢٠٠ | سائر العلماء |

الدور الثاني من العصر العثماني

| | |
|-----|----------------------------|
| ٢٠٣ | انتقال النفوذ إلى المماليك |
| ٢٠٥ | سلطنة أحمد بن محمد |
| ٢٠٦ | قاسم بك وذو الفقار بك |
| ٢٠٨ | مشيخة إسماعيل بك |
| ٢١٤ | نو الفقار بك |
| ٢١٧ | سلطنة محمود بن مصطفى |
| ٢١٨ | مشيخة عثمان بك |

٢٢٢ إبراهيم كخيا ورضوان بك

٢٢٦ نشأة علي بك الكبير

٢٢٩ سلطنة عثمان بن مصطفى

٢٣١ سلطنة مصطفى بن محمد

الدور الثالث من العصر العثماني

٢٣٤ علي بك الكبير

٢٣٩ مساعيه في سبيل الاستقلال

٢٤٢ استقلاله

٢٤٤ قبيلة الهوارة

٢٤٦ فتوح علي بك ومعاهداته

٢٤٨ خيانة محمد أبي الذهب

٢٥٠ علي بك في عكا

٢٥٢ محمد بك أبو الذهب

٢٥٣ خروج علي بك لمحاربته

٢٥٦ مقتل علي بك

٢٥٨ مناقب علي بك

الدور الرابع من العصر العثماني

- سلطنة عبد الحميد الأول ٢٥٩
- أبو طيق وعزل الباشوات ٢٦١
- مشيخة إسماعيل بك ٢٦٦
- إبراهيم بك ومراد بك ٢٦٧
- حملة عثمانية لحرب الماليك ٢٧٠
- سلطنة سليم الثالث ٢٧٥

العلم والأدب

- مشاهير العلماء في الأنوار الثلاثة الأخيرة ٢٧٩
- الشعراء ٢٧٩
- علماء اللغة ٢٨١
- الفقهاء ٢٨٣
- المتصوفة ٢٨٩

الحالة الاجتماعية والاقتصادية

الزراعة (حالتها) ٢٩٥

التجارة (حالتها) ٢٩٦

النفود المصرية (تاريخها) ٢٩٨

التعليم في ذلك العصر ٣٠١

قائمة المصادر والمراجع الخاصة بالتحقيق

أولاً : المصادر والمراجع :

- ١ - ابن اياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفى) ، «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» ، حققها وكتب المقدمة محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة (٢) ١٩٨٤ م ج ٥ .
- ٢ - ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، المطبعة البهية مصر .
- ٣ - أحمد عبد الرحيم مصطفى «دكتور» حركات التجديد الإسلامى فى العالم العربى الحديث ، القاهرة ١٩٧١ م .
- ٤ - إسماعيل الخشاب ، تاريخ الماليك فى مصر ، مخطوط رقم ٢١٤٨ تاريخ طلعت دار الكتب المصرية .
- ٥ - حسين أفندى الروزنامجى ، ترتيب الديار المصرية ، نشر شفيق غريبال بعنوان «مصر عند مفترق الطرق» ١٧٩٨ - ١٨٠٠ م مجلة كلية الآداب المجلد الرابع ج ١ مايو ١٩٣٦ .
- ٦ - سوسن سليمان يحيى (دكتورة) قضايا المرأة فى مصر العثمانية مجلة كلية الآداب عدد خاص ٧٥ .
- ٧ - شوقى أبو خليل جرجى زيدان فى الميزان دمشق ١٩٨٠ م .
- ٨ - عبد الرحمن الجبرتى عجائب الآثار طبعة الأنوار القاهرة .

٩ - ليلى عبد اللطيف (دكتورة) الصعيد فى عهد شيخ العرب
همام : القاهرة ١٩٨٧ .

١٠ - ليلى عبد اللطيف (دكتورة) الإدارة فى العصر العثمانى
القاهرة ١٩٧٨ م .

١١ - محمد حرب (دكتور) «العثمانيون فى التاريخ والحضارة»
دمشق ١٩٨٩ م .

١٢ - محمد حرب (دكتور) «حملة السلطان سليم الاول على
الشام ومصر» (باللغة التركية) استانبول ١٩٨٦ م .

١٣ - محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية - تحقيق
الدكتور إحسان حقى - دار النفائس طبعة (٢) ١٩٨٣ م .

١٤ - معلم جودت (اينانچ آلب) ذيل على فصل «الأخيه
الفاتييان التركية» فى رحلة ابن بطوطة استانبول ١٢٥٠هـ - ١٩٣٢م .

١٥ - هاملتون جب وهارولد برون المجتمع الإسلامى والغرب
ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) القاهرة ١٩٧١ م .

ثانياً : الموسوعات :

١ - دائرة المعارف الإسلامية التركية (الترجمة التركية)

استانبول ١٩٦٧ م .

٢ - دائرة معارف التاريخ (بالتركية) دار باتش ، استانبول

١٩٦٩ م .

٣ - الموسوعة العربية الميسرة إشراف محمد شفيق غريبال

- دار إحياء التراث - بيروت - صورة طبق الأصل من طبعة

١٩٦٥ م .

ثالثاً : المعاجم :

١ - بطرس حروفش - المنجد في الإعلام - طبعة (١٠) دار

المشرق - بيروت ١٩٨٠ م .

٢ - حسن عميد - فرهنگ فارسي عميد - (فارسي) طهران

١٣٤٢ .

٣ - دار بيلمن - قاموس الشريعة الإسلامية والمصطلحات

الفقيهية - استانبول - بدون تاريخ .

٤ - الفيروز ابادي (مجد الدين محمد بن يعقوب) القاموس

المحيط - مؤسسة الرسالة - بيروت طبعة (٢) ١٩٨٧ م .

٥ - عبد النعيم حسنين (دكتور) قاموس الفارسية - دار

الكتاب اللبناني - القاهرة - ١٩٨٢ م .

- ٣١٥ -

٦ - علی سیدی - رسمیں قاموس عثمانی - استانبول -
۱۳۳۰ .

٧ - محمد علی الانسی - الدرادی اللامعات - بیروت -
۱۳۱۸ .

رقم الإيداع : ١١٣٣٦ / ١٩٩٢

I . S . B . N

977 - 07 - 0306 - 0

المجلد

تصدر أول كل شهر

- ملتقى الإبداع الثقافي والفكري لكل مفكرى الوطن العربى
- نبض الحركة الثقافية المعاصرة
- تضم كل ألوان الأدب وفنونه بأقلام كبار المفكرين والأدباء فى مصر والوطن العربى
- فكر حر مستنير ، وأراء بناءة على طريق التنوير الذى سارت على دربه طوال مائة عام

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

الضمن
جنيه واحد



مصدر حديثاً عن

دار الهلال

- **من إعجاز القرآن ... رفيف أبو سمدة**
- **يوميات باحثة مصرية في هلايب د. نادية بدوي**
- **طوق الحمامة .. للأمام الفقيه : ... ابن حزم الأندلسي**
- **عرب وأكراد .. خصام أم وثام درية عوني**

مع الباعة أهم إصدارات عام ١٩٩٤

دار الهلال

روايات الجلال تقدم

خافية قصر

بقلم

محمد ناجسي

تصدر : ١٥ يناير سنة ١٩٩٤

إصدارات دار الهلال

من الكتب الأدبية والثقافية والتاريخية والسياسية و الطبية
و كتب التراث وكتب الأطفال و مجلدات ميكس و سمير
لجدهما في مكتبات دار الهلال :

المكتبة هـ العوي - السيدة زينب .
مكتبة النسي - بشار - مكتبة العمورة .
ميدان الحلة .
ميدان الحلة .

وليس اختطفتها القيسري بالكلية :

كلعت حرب والمهندسين : مكتبة مدهولقي - مصر الجديدة : مكتبة
 بيوك سنشور و مكتبة أكسفورد و مكتبة شاديكون - الزيشون
 مكتبة كمبريدج - مدينة نصر : مكتبة راجب و مكتبة الدار
 العربية - العباسية : مكتبة الطالب - الزمالك : مكتبة علي
 مسعود و مكتبة الزمالك - باب الشرق : مكتبة الكيلاني - القصر
 العيني : مكتبة العربي - السيدة زينب : مكتبة العسلي و مكتبة
 العلم - المعادي : مكتبة غزال و مكتبة برج الكونك - حلوان :
 مكتبة الرفاء الجديدة :

وليس التفتت اليك في الكبرياء والسيادة

مكتبة : مكتبة مدبولي - الصفيير - المهندسين : مكتبة
اصديقاء الكتاب - جامعة الدول العربية : مكتبة الكوثر - الهرم :
مكتبة منصر

والى الخليفة العباسي ابا جعفر المنصور

| | |
|----------------------------------|-------|
| مكتبة الصحافة | مكتبة |
| مكتبة نانسي بدمياط و فروع الجلاء | مكتبة |
| مكتبة فتحي حميد الله | مكتبة |
| مكتبة نهى | مكتبة |
| مكتبة قطب | مكتبة |
| مكتبة أبو شبيب | مكتبة |
| مكتبة محمد النحاس | مكتبة |
| مكتبة طرخ | مكتبة |
| مكتبة أبو شبيب و مكتبة الأمير | مكتبة |
| مكتبة علي بيهيد | مكتبة |
| مكتبات الأمير و الفتوح و الصحافة | مكتبة |
| مكتبة الهلال | مكتبة |

ومكتبات الصحافة بينى مزار و القوسية ونجى حمادى و

مکتبہ ہمدی الزواوی پالرمیت ہاوس .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ٣٠ / جنيهاً في ج.م.ع
تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية -
البلاد العربية ٢٥ دولاراً - أمريكا وأوروبا وآسيا
وأفريقيا ٣٠ دولاراً - باقي دول العالم ٤٠ دولاراً .
القيمة تعدد مقدماً بشيك مصرفي لأمر مؤسسة
دار الهلال ، ويرجى عدم إرسال عملات نقدية
بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالرحمن بسيوني زغلول - الصفاة - ص. ب رقم ٧١٨٣٣
للمحصل على نسخ من مجلات الهلال اتصل بالتفصيل : Hilal.V.N 92703


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية